

فى التصوف والأدب الصوفى

فى التصوف والأدب الصوفى

د. إبراهيم عوض

مكتبة جزيرة الورد

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تقديم

وضعتُ فصول هذا الكتاب تحت ما يشبه وقع السياط، إذ كنت أسابق الزمن كي أنجزه فى غضون عدة أسابيع لظروف أحاطت بتأليفه. ولولا نعمة الله وتوفيقه للذان كنت أحس بهما يكتفاننى طوال الوقت ما استطعت أن أخط فيه حرفاً. ويضم الكتاب خمسة فصول: فصل أولي عرّفت فيه بالتصوف وأهله وبعض مصطلحاتهم ومفاهيمهم، ثم أربعة فصول أخرى عن أربعة من مشاهير الصوفية ممن أثاروا صخباً، ودار ولا يزال يدور بشأنهم جدل كبير لا أظنه سوف ينتهى يوماً من الدهر، هم رابعة العدوية والحلاج وابن الفارض والشعراني. وقد تعرضت فى هذه الفصول لما خلفه لنا هؤلاء المتصوفة الأربعة من إبداع أدبى ثرا وشعرا. فأما الحلاج وابن الفارض فقد عكفت على ديوانيهما وأمعنت النظر فيهما وخرجت ببعض الملاحظات والنائج والأحكام. وأما رابعة فتُنسب إليها أقوال وأشعار وتصرفات ومواقف لا ندرى مدى صحة نسبتها إليها، وقد وضعت كل ذلك تحت مجهر الفحص والبحث والتقييم. أما الحلاج فقد كتبت عنه فصلاً ضمن كتاب من كتبى منذ عدة أعوام غير قليلة، فنقلت هذا الفصل إلى هنا كما هو. وأشهد الله لقد استمتعت أياً استمتع لدن إنجاز ما كتبتُ فى هذا الكتاب. ويبقى الشعراني، الذى استمتعت مزيداً من المتعة وأنا أتابعه فى ترجمته الذاتيه المتمثلة فى كتابه: "لطائف المنن والأخلاق"، وكذلك وأنا أكتب عنه. نعم لقد استمتعت بالقراءة له والكتابة عنه استمتاعاً شديداً

رغم اختلافى معه فى كثير من الأحيان . إلا أن هذا الاختلاف شىء ،
 وروعة الترجمة التى كتبها عن نفسه والتى أوحى لى بالكثير هى شىء
 آخر . ولا أريد أن أفسد الأمر على القارئ ، بل أتركه ليواجه بنفسه ما كتبه
 عن الرجل وزملائه الثلاثة الآخرين ، راجيا أن يجد شيئا من المتعة التى
 وجدتتها وأنا أضع هذا الكتاب . وله منى كل الأمنيات الطيبة .

وأخيرا بل أولاً فمن حق الله سبحانه وتعالى على أن أشكره وأحمده
 وأتجده على توفيقه لى وإمداده إياى بالأمل والعزيمة والروح التى لولاها ما
 استطعت أن أضع هذا الكتاب أو أسطر فيه كلمة ، مع يقينى أننى لو قضيت
 عمري كله فى شكره وحمده وتمجيده ما وقته ذرة واحدة من حقوقه عندى
 التى لا تنتهى . فنعم المولى ، ونعم النصير .

فى التصوف

ما معنى التصوف؟ ومن أين اشتقَّ هذا المصطلح؟ فأما فى الجواب عن السؤال الأول فيقول مثلاً عبد الوهاب رضوان نجا الإيبارى فى كتابه: "فن التصوف" (نشرة م. آرنو M. Arnaud, Etude sur le Sufisme, Adolphe Jourdan, Alger, 1888, P. 3-4) نقلاً عن المتصوفة، الذين يسميهم: أهل الحقيقة، إنه "التخلق بأخلاق الصوفية والتوسل بأوصافهم إلى الانتظام فى سلوكهم. وقيل: هو الخروج عن كل خُلُقٍ دَنِيٍّ، والدخول فى كل خلق سَنِيٍّ. وقال الجنيد: هو أن يمتك الحقُّ عنك ويحكى به. وقال الشيخ قاسم الخانى: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً. وقيل: هو كمال الإنسان بالإسلام والإيمان والإحسان. وقيل: إرسال النفس مع الله على ما يريد. وقيل: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار. وقيل: التوجه بالعبادة وطلب الحسنى وزيادة. . . قال الآلوسى فى "الفيض الوارد": والذى يميل إليه كثير من السادة ما يفهم من هذين البيتين:

تتأزج الناس فى الصوفى واختلفوا ولست أُنح هذا الاسم غير فتى	فيه، وظنوه مشتقا من الصوف صافى فصوفى حتى سُمى: الصُّوفى
---	--

وعليه فوجه تسمية السالك بذلك صفاء قلبه وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه. . . وقيل: هو العلم الذى يُبَحَث فيه عما يلزم فى التصوف من المقامات والأحوال والمحبة والعشق والفرق والجمع وما أشبه ذلك".

وبشىء من الجهد فى التوفيق بين هذه التعاريف التى لا يخلو بعضها من تهويم، وبعضها الآخر من تحالف، أن تقول إن التصوف، لدى أصحابه، معناه أن يزهد الإنسان فى طبيبات الحياة وأن يقبل على الله بقلب سليم مجتهدا بكل قواه فى الابتعاد عن المعاصى والالتزام بالواجبات والفروض الدينية. فأما الاجتهاد فى مرضاة الله بتنفيذ أوامره وتجنب نواهيه فهو أمر طيب لا يمكن أحدا أن يماحك فيه، وهو ما يعنى أن المتصوف هو إنسان مسلم يتمتع بدفع القلب وحرارة الشعور وعمق الإخلاص. ولكن هل الزهد فى طبيبات الحياة مطلوب، أو مرحَّب به على الأقل فى الدين؟ أما أنا فلا أظن ذلك، وإلا فلم خلق الله هذه الطيبات؟ ولمن؟ أوقد خلقها للحيوانات مثلا؟ ذلك أن الحيوانات لا تعرف دعوى الاقتدار ولا تفكر فيها. أم تراه خلقها سبحانه للكفار دون المؤمنين؟ ولكن هل يعقل هذا؟ ثم أين يمكننا أن نجد مثل ذلك الكلام فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله؟ بل هل يقول العقل بهذا؟ ولم يا ترى؟

أفهم أن يقال إن المسلم إذا وجد نفسه فى ظروف مادية صعبة وجب عليه التماسك وعدم الجزع أو مد بصره أو يده للمال الحرام إلى أن تنتهى المحنة، سواء كانت محنة فردية مقصورة عليه كما يحدث لكل منا فى أى وقت لسبب أو لآخر، أو كانت محنة عامة تشمل الأمة أو الشعب كله فى أى ظرف من الظروف الوطنية التى يمكن أن تمر بها الأمة. ففى هذه الحالة

يجب على الأمة أن تماسك وتصبر وتشد الأحزمة على البطون حتى تعبر المأزق بسلام وعزة وكرامة ولا تنهار أو تستسلم للظروف أو للقوى الدولية المعادية التي تريد تركيعها بالحصار أو مصادرة الممتلكات التي لها عندها أو ما إلى ذلك. أما أن يكلف المسلم بالفقر لوجه الفقر، أو كما قيل: بالافتقار، فهذا ما لا أفهمه ولا أظن الله يرضى به. ولقد مر المسلمون الأوائل بظروف صعبة بسبب محاصرة الكفار لهم في مكة في شعب أبي طالب أو بسبب مصادرتهم أموالهم وبيوتهم بمكة عند الهجرة، وأثبت الصحابة أوائذ أنهم على قدر المسؤولية والظروف الصعبة التي مرت بها الأمة آنذاك، وأثبت أغنيائهم أنهم أوفياء لتعاليم دينهم حرصاء على مرضاة ربهم ورسولهم فتبرع كل منهم بقسط كبير من ممتلكاته لإخوانه في الدين ممن لم يُرزقوا مثله اليسار، وبهذا خرجوا من عنق الزجاجة على أحسن حال، وفي أسرع وقت. إن الغنى ليس إثماً ينبغي أن يتجنبه المسلم، بل هو نعمة وبركة، لأن الأمم لا يمكن أن تقوى وتكرم وتعز وتناحل احترام الأمم الأخرى إلا إذا كانت غنية. ذلك أن الغنى ليس معناه أن يمتلخ الإنسان حق الآخرين دون وجه حق، بل معناه أن يُقبل كل فرد في الأمة على العمل والإنتاج والإبداع والبحث عن مصادر إيجابية للثروة، فتنشط الأحوال وتحول الدولة إلى خلية نحل يبذل كل فرد فيها أقصى جهده لإغناء نفسه وأمته، وبهذا تثرى الأمة وتصبح أمة قوية مهيبة الجانب يحترمها الآخرون ويعملون لها ألف حساب. وإذا كان هناك من

يزهد فى الدنيا رغم ذلك فليُحْرَزَ المالَ أولاً ثم يُوزَّعَ ما يزهد فيه من ذلك المال على إخوانه فى الدين والوطن، فيكسب بهذا أجرين: أجر العمل، وأجر التصديق. إن كثيراً منا، على المستوى النظرى فقط للأسف، يزعمون أن الجرى وراء المال أمر معيب لا يليق، مع أنه ما من واحد منهم إلا ويلهث وراء المال لهثاً، ولكنه التظاهر الكاذب بالزهد فى الدنيا. الحق أن السعار وراء المال شىء، والاعتناء شىء آخر. السعار وراء المال معناه أن ينسى الإنسان واجباته نحو ربه ونحو أبناء دينه ووطنه فلا يفكر فى شكر الله وأداء حقه سبحانه من العبادة، ولا يفكر فى مد يد العون إلى المحتاجين من إخوانه فى الدين أو فى الوطن، ولا يفكر فى حلال أو حرام، بل كل همه هو كسب المال فحسب من أى طريق. وهذا شىء غير الغنى، الذى يقوم على بذل الجهد من أجل ترقية النفس والأسرة والوطن والأمة كما أشرنا آنفاً، وهو ما سوف يحاسبنا الله عليه إن قصَّرنا فيه. وحتى تتضح الأمور لا ينبغي أن تزهد أمة الإسلام فى تحصيل أسباب القوة والثراء، وإلا ضاعت وفشلت فى سباق الحياة وتخلفت عن الصفوف الأولى وديست من ثم بالأقدام والأحذية. فلتنظر الأمة لنفسها ولتتصَّرفَ بمقتضى ما يقوله لها العقل والدين وما تستلزمه الأوضاع الدولية. أما تعامى المسلم عن رؤية خريطة الحياة بتعقيداتها فإثم سوف يحاسبه الله عليه. والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأقوياء

والنبهاء . والعجيب أن كثيرا من هؤلاء المتظاهرين بالزهد فى الدنيا كانوا يحرصون على الالتحاق بالخوانق حتى يأكلوا ويشربوا ويسكنوا ويلبسوا دون مقابل من عمل أو تعب . فهل هذا هو الزهد فى الدنيا ؟ إن كان فأنا أول الزاهدين ، ومعى أسرتى كلها بزوجتى وأولادى وأحفادى الموجودين الآن والذين سوف يهلون على الدنيا فى المستقبل ، وبهذا أضمن لى ولهم حياة مستريحة ليس فيها معاناة من الغلاء أو من قلة المرتب أو من التفكير فى التوفيق بين الداخل والمنصرف فى ظروف تطير عقل أحلم الحلما وتُعجز أعتى المدبرين المالىين .

هذا عن جواب السؤال الأول، أما بالنسبة إلى جواب السؤال الثانى فيقول مثلا الشيخ مصطفى عبد الرازق (فى مقال له بمجلة "المعرفة" / يونيه ١٩٣١م، وأشار إليه الدكتورة زكى مبارك فى كتابه: "التصوف فى الدين والأخلاق" / مطبعة الرسالة / ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م / ١ / ٥١) إنه يحتمل أربعة فروض: أن يكون "الصوفى" منسوباً إلى صُوفَة، أو إلى الصوف، أو إلى كلمة "سوفيا" اليونانية، أى الحكمة، أو مشتقا من الصفاء . وصُوفَة قبيلة عربية كانت تقوم بإجازة الحج، أى إعطاء إشارة البدء بالتحرك من عرفة . لكن يبدو لى غريبا ألا يجد المتصوفون إلا تلك القبيلة الجاهلية الوثنية ينتسبون إليها ، وهم المسلمون الذين يحرصون على ألا يرتبط اسمهم بشىء من أمور الجاهلية . ثم إن تلك القبيلة كانت قد اختفت من مسرح التاريخ منذ زمن

موغل في القدم ولم يعد أحد يذكرها، فكيف تذكرها المتصوفة فجأة وعلى غير انتظار أو توقع؟ علاوة على أن قريشا قد تولت منذ زمن بعيد أمر البيت الحرام كله، وبخاصة بنو هاشم، فكيف نصدق أن المتصوفة يمكن أن يتجاهلوا هذه الحقيقة ويذهبوا فيبحثوا لهم عن أصل مجهول لا يعرفه أحد تقريبا ويتركوا قريشا وبنى هاشم أهل نبهم؟ كذلك لم نقرأ هذا التفسير لأحد من القدماء الذين كتبوا عن الصوفية والمتصوفة. بل إن المتصوفة لم يفكروا أن ينسبوا أنفسهم أو ينسبهم أحد إلى النبي ذاته، فكيف يصح أن تتخيل أنهم ينتسبون إلى صوفة، ذلك الرجل الجاهلي الوثني الذي كانت تسمى باسمه القبيلة المذكورة؟

أما نسبة الصوفية والمتصوفة إلى الصفاء فبعيد لأن "الصفاء" مشتق من مادة "ص ف و"، على حين أن "الصوفية" مأخوذة من مادة "ص و ف". ولو كان هذا الفرض صحيحا لألفيناهم يقولون: "الصُّفُويَّة" أو "الصَّفَائِيَّة" مثلا. أما "الصوفية" فلا يصح اشتقاقها من "الصفاء" كما هو واضح لكل ذى عينين. وإذا كان شهاب الدين الآلوسی في "الفيض الوارد" يرى رغم ذلك أن "الصوفية" مشتقة من "الصفاء" مع تقديم الفاء على الواو فليس رأيه هذا بوجيه، إذ لماذا قدموا الواو على الفاء، وهذا التقديم يربك العقول ويبعدها عن التنبيه إلى ما يريدون الاتصاف به؟ كذلك ليس هناك أى سبب لهذا التقديم كالثقل فى النطق مثلا ولا هو مما نطقت به العرب على الوجهين مثل

"جَذَبَ" و"جَبَذَ" مثلاً. وفوق هذا وذاك فإن كلمة "الصوفى" لا تصلح أن تكون منقلبة عن "صفوى" لأن ضبط الكلمتين مختلف غاية الاختلاف. ومع هذا فبعض الصوفية يقولون إن التصوف مشتق من "الصفاء" لصفاء قلوب هؤلاء في معاملتهم مع الله، إذ إن باطنهم كظاهريهم غاية في النقاء. واشتهر في ذلك قول أبي الفتح البستي:

تَنَازَعُ النَّاسُ فِي الصُّوفَى وَاخْتَلَفُوا وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْأِسْمَ غَيْرَ فُتًى	فِيهِ، وَظَنُوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ صَافًى فَصُوفًى حَتَّى سُمِّيَ: الصُّوفِيُّ
--	--

ومن ثم قال شهاب الدين الآلوسي في كتاب "الفيض الوارد": إن الذي يميل إليه كثير من السادة الصوفية ما يُفهم من هذين البيتين. ولا يخفى أن النسبة إلى "الصفاء": "صَفَوِيٌّ" وبعد تقديم الواو على الفاء صار "صُوفِيًّا"، وعلى هذا يكون في اللفظة قلب، والله أعلم. وقد أشار إلى رأى الآلوسي هذا الشيخ عبد الهادي بن رضوان نجا الإيبارى المصرى فى الصفحة الثانية من كتابه: "فن التصوف".

وعلى نفس الشاكلة نقول إن "التصوف" لا يمكن أن يكون نسبة إلى "الصُّفَّة"، التى كان يعيش فيها بعض الصحابة فى مسجد رسول الله بالمدينة باعتبارهم فقراء لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً، وهو المعنى الذى يحرص الصوفية على وصف أنفسهم به. وكان يطلق على هذه الطائفة من الصحابة اسم "أصحاب الصُّفَّة". وسر استبعادى لهذا التفسير هو أن اشتقاق

"الصُّفَّة" إنما يرجع إلى مادة "ص ف ف"، وهى شىء مختلف تمام الاختلاف عن "ص و ف". ولو كان هذا صحيحا لقالوا: "صُفِّيُون". وبالمثل لا أظنها مأخوذة من "سوفيا" اليونانية لعدة أسباب: فقد عرب العرب كلمة "فلسفة"، وفيها "سوفيا"، أى الحكمة، (إذ إن "الفلسفة" هى "محبة الحكمة": من "فيلو" أى محب، و"سوفيا" أى الحكمة)، فلو كان "التصوف" مأخوذا من "سوفيا" لكانت بالسين لا بالصاد. كما أن الصوفية لم يشتهروا بالحكمة بوصفها شيئا يميزهم عن سواهم من الفرق والمذاهب ولم يحاولوا أن يقولوا عن أنفسهم إنهم حكماء، بل قالوا وقيل عنهم إنهم زُهَّاد أو عُبَّاد أو عُشَّاق لله. والشىء الوحيد الذى تظهر فيه كلمة "الحكمة" مرتبطة بالصوفية هو كتاب ابن عطاء الله السكندرى المسمى: "الحكم العطائية"، وهو شىء خاص به ولا صلة له بخصوصية بالتصوف. وبالإضافة إلى هذا لا نعرف عن الصوفية أنهم استعاروا أيا من مصطلحاتهم من اللغات الأجنبية حتى بعدما تعقد التصوف وتأثر بعضهم ببعض الأفكار الأجنبية الغربية عن الإسلام. ومثلما نبذنا القول باشتقاق المصطلح من "الصُّفَّة" نستبعد القول باشتقاقه من "الصَّف" لأن اشتقاق الكلمة الأخيرة يعود إلى مادة "ص ف ف" مثل "الصُّفَّة" سواء بسواء. كما أنه لا علاقة بين الصوفية والصف، فهم لم يكونوا جنودا ينتظمون فى صفوف مثلا. وهذان الفرضان قد أوردهما د. زكى مبارك ضمن كلامه فى مناقشة الفروض الأربعة التى ناقشها الآن.

ويبقى أن التصوف مشتق من الصوف، وهو أوجه التفسيرات في نظر د. زكي مبارك، وفي رأى د. محمد بشار الفيضي العراقي في مقال له على المشباك بعنوان "مباحث مهمة في علم التصوف". ويعرض د. الفيضي هذا الرأي ووجهة نظره فيه على أساس أن نسبة التصوف واشتقاقه يرجعان إلى ما كان عليه كثير من الصوفية، من لبس الصوف زهدًا واخشيشانًا. وعلى هذا يكون هذا الاسم هو مصدر الفعل: "تَصَوَّف"، فهو متصوف: من "ص و ف" للدلالة على لبس الصوف، وذلك لجملة أسباب منها: أولاً أن النبي وأصحابه كانوا يلبسون الصوف. وقد وردت في ذلك أحاديث وآثار منها أن "رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يركب الحمار ويلبس الصوف...". وعن أبي موسى الأشعري قال: "يا بني، لو رأيتنا ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم لحسبت أننا ريحنا ريح الضأن. إنما لباسنا الصوف، وطعامنا الأسودان: التمر والماء"، وأثر عن الحسن البصري قال: "والله لقد أدركت سبعين بدرية كان لباسهم الصوف". ثانياً أن لبس الصوف يعلم صاحبه الاخشيشان ومحافة الدنيا وعدم الركون إلى الترف. وهذا ما كان يهدف إليه الصوفية بسلوكهم، فاتخذوه شعاراً لهم. ثالثاً أن لبس الصوف كان سنة الأوائل من كبار الصوفية في العصور الأولى بعد ازدهار دولة الإسلام وانفتاح الدنيا على المسلمين وما تبع ذلك من انشغال الناس بزخرف الحياة، وتولعهم بالترف إلى الحد الذي أنساهم آخرتهم. فلبس الصوفية هذا اللباس مخالفة

للناس في ترفهم الذي جاوز الحلال إلى البغي بغير الحق، وكان صنيعهم هذا أشبه ما يكون بوثيقة الاحتجاج الصامته التي يدل حالها على مقالها، فهي إذن وسيلة اتخذها الصوفية لردع الناس وكبح جماحهم. ولذا لبس الصوف أغنياء الصوفية أيضا. ولا يخفى ما لهذا الفعل من أثر في النفوس، فإن قيام غني بارتداء الصوف وهو قادر على لبس أفخر الثياب، يثير فضول الناس، ويدفعهم للوقوف على ما وراء هذا الأمر من سر. وحين يدركون أن هذا الرجل إنما فعل ذلك زهدا في الدنيا، واحتجاجا على مترفها، فستكون رسالة الصوفية، والحالة هذه، قد بلغت أوعية الناس من قلوب وعقول بأخصر طريق، وأنجح وسيلة. وقد رجح ابن خلدون هذا التفسير فقال في مقدمته: "إنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم". ويرى الباحث أن لباس الصوف لم يكن حالة ملازمة للصوفية على مر الزمان، بل كان في مرحلة معينة، ولأهداف مقصودة كما قال. لكن هذا اللباس قد ظل رمزا لهذه الجماعة يذكر بجهادها المميز في سبيل إصلاح الأمة وتربيتها روحيا، حتى إن كثيرا من الناس صار يلبس الصوف تشبهاً بهم، ومحاكاةً لهم.

وكذلك يرى د . زكى مبارك أن هذا التفسير هو أوجه التفسيرات، وهو ما أوافقه عليه، وإن كنت أرى أن لبس الصوف ليس شرفاً فى حد ذاته، وأنه ليس علاجاً لما ذكره د . الفيضى من الترف الذى انغمست فيه الأمة عقب الفتح، إذ إن لبسى أنا مثلاً الصوف لا يعالج ترف زيد أو عمرو من الناس، بل يعالجه أن يكف زيد أو عمرو عن الترف الذى انغمس فيه . ثم إن إصلاح السيئين لا يتم بتكشف الصالحين، بل بتغيير هؤلاء الفاسدين لأنفسهم . وفوق هذا فلبس الصوف ليس أفضل أسلوب للفت أنظار الناس إلى طيب السريرة وطهارة السلوك، بل أفضل طريقة هى المعاملة الكريمة والسماحة والرقّة والخلق الطيب وطول البال والتعاون والألفة والمسارة إلى المساعدة . كما أن الإسلام لا يرتاح إلى تشديد الإنسان على نفسه، وإلا فلمن خلق الله طبيبات الدنيا وسخرها ؟ وما الذى يفعله الله بعذابنا إن شكّرنا وآمنا ؟ ولهذا قال رسولنا الكريم: لا رهبانية فى الإسلام . ولم يُعرف عن النبى أنه داوم على لبس الصوف، بل كان يلبس ما تيسر من الثياب مثلما كان يأكل مما تيسر من الطعام، لا يتكلف فى هذا ولا فى ذاك .

كذلك فالقول بأن الصوفى هو دائماً فى حالة صفاء روحى أو أن صلته بربه تقوم دوماً على الصفاء هو كلام يخلط أصحابه بين الفرض النظرى والواقع العملى، إذ المفروض (المفروض فقط) فى الصوفية، وحسب دعاواهم ليس إلا، أنهم هم أهل الصفاء والنقاء، أما على أرض الواقع فكثيراً ما يكون

المتصوفة من أسفل الناس خلقا وسلوكا . ولست أقصد الخط من شأنهم بوصفهم صوفية، بل كل ما أقول هو أنهم، مثل سواهم من البشر، فيهم وفيهم .

وبالمثل يقول ماسينيون ومصطفى عبد الرازق في كتاب "التصوف" إن "التصوف مصدر الفعل الخماسي المَصُوع من "ص و ف" للدلالة على لبس الصوف، ومن ثم كان المتجرد لحياة الصوفية يسمى في الإسلام: صوفيا . وينبغي رفض ما عدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء والمحدثون في أصل الكلمة كقولهم إن الصوفية نسبة إلى "أهل الصُّفَّة"، وهم فرقة من النساء كانوا يجلسون في صفة المسجد النبوي بالمدينة لعهد الرسول عليه السلام، أو إنهم من الصف الأول من صفوف المسلمين في الصلاة، أو من بنى صوفة، وهي قبيلة بدوية، أو إلى "صوفة القفا"، وهي الشعرات النابتة عليه، أو إن اللفظ مشتق من "صُوفِيَّ": مطاوع "صَافِيَّ"، والأصل: "صفا". وقد استُعمل هذا اللفظ المطاوع منذ القرن الثامن الميلادي للتورية مع كلمة "صوفِيَّ" ومع الكلمة اليونانية: "سوفوس"، التي حاولوا فيها الحال بالمعادلة بين "ثيوسوفيا" (Theosophie) و"تصوف". وقد رد نولدكه (Noeldeke) هذا المذهب الأخير في أصل كلمة "صوفِيَّ"، مبينا أن السين اليونانية تكتب باطراد في العربية "سينا" لا "صادا"، وأن ليس في الآرامية كلمة متوسطة للانتقال من "سوفوس" اليونانية إلى "صوفِيَّ" العربية

(ماسينيون ومصطفى عبد الرازق/ التصوف/ ترجمة خورشيد ويونس
وعثمان/ دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة/ سلسلة "كتب دائرة المعارف
الإسلامية"/ العدد ١٦ / ٦) .

ويقول د . الفيضى: "والملاحظ أن ابن خلدون يحدد القرن الثاني بداية
ظهور مصطلح 'الصوفية'. وفي أخبار التاريخ ما يؤيد ذلك، فقد نقل الشيخ
الغماري ما ذكره الكندي، وكان من أهل القرن الرابع، في كتاب "ولاة مصر"
في حوادث سنة المائتين أنه ظهر في الإسكندرية طائفة يُسمّون بالصوفية
يأمرون بالمعروف'. ونقل أيضاً عن المسعودي في "مروج الذهب" حاكياً عن
يحيى ابن أكرم قوله: 'إن المأمون يوماً لجالس إذ دخل عليه علي بن صالح
الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ
يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية'. ويبدو لي، والله أعلم،
أن ظهور المصطلح سابق على هذه الفترة، فإن الجماعة الذين ذكرهم الكندي
لا يمكن أن يظهروا فجأة، وإنما حصلت الشهرة للمصطلح في القرن الثاني.
ويؤيد هذا ما أثير عن الحسن البصري أنه قال: 'فأعطيته شيئاً فلم يأخذه،
وقال: معي أربعة دوانق، فيكفيني ما معي' وما روي عن سفيان الثوري أنه
قال: 'لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء'. والمعروف في تاريخ
الوفيات أن الحسن البصري توفّي سنة ١١٠ من الهجرة، وتوفي أبو هاشم
الصوفي سنة ١٥٠ من الهجرة. وعلى كل حال فالحسن البصري رحمه الله

يُعدّ أول من قَتَقَ هذا العلم وخصه في الحديث، فكان ينطق بمعانيه، ويبيدي أسرارَه، ويتكلم فيه بكلام لم يُسمَع به حتى قال له بعض مجالسيه: يا أبا سعيد، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك، فممن أخذت هذا العلم؟ قال: من حُذيفة بن اليمان. وحذيفة أمين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد خصه بعلم المنافقين، وأُفردَ بفهم خفايا الفتن. وهو الذي كان يقول: 'كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني' حتى إن أكابر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي خُصَّ به، وكانوا يسألونه عن أهل النفاق فيخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم. وكان عمر يستكشفه عن نفسه: هل يعلم فيه شيئاً من النفاق؟ فبرأه عنه. ولعظم ثقة عمر به كان إذا دُعِيَ إلى جنازة يصلي عليها نظر: فإن حضر حذيفة صلى عليها، وإن لم يحضر حذيفة لم يصل عليها. ونعود إلى الإمام حسن البصري لنقول: لقد كانت له مجالس للذكر يخلو فيها مع إخوانه ومحبيه من النساء والعباد في بيته، مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السخيتاني ومحمد بن واسع وفرقد السنجي وعبد الواحد بن زيد، ويقول لهم: 'هاتوا انشروا النور'، فيتكلم عليهم من هذا العلم في علم اليقين والقدرة، وفي خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس. ومن هنا يمكن القول: إن أول مدرسة كانت للتصوف بدأت بعد الصحابة هي مدرسة

نُسَّاك البصرة، وأول من نطق بهذا العلم أستاذها الحسن البصري. ثم تابعت من بعدها المدارس، وظهر من بعد الحسن رجال لا يُحْصَوْنَ عددًا متخصصون في هذا العلم المبارك.

أما بالنسبة إلى موقع التصوف من العلوم الإسلامية فيقول: "تُعَرَفُ الشريعة الإسلامية بأنها ما شرع الله لعباده من الأحكام المختلفة، وهي ذاتها ما يعرف بالملة والدين . . . والناظر في هذه الأحكام يجدها على ثلاثة أقسام: القسم الأول أحكام متعلقة بأصول العقائد كالإيمان بالله واليوم الآخر. القسم الثاني أحكام متعلقة بأقوال الإنسان وأفعاله: في علاقته التبعية مع الله عز وجل كالصلاة والصوم، والعملية مع الناس كالبيع والشراء والنكاح. القسم الثالث أحكام متعلقة بالأخلاق كوجوب الإخلاص والصدق، وسلامة الصدر من الضغينة، وترك الكبر والعجب والرياء فالأحكام المتعلقة بالعقيدة انفصلت بعد الصدر الأول عن قسَمِئِهَا، ودعا إلى هذا الفصل ما أثاره المعتنقون للإسلام في هذه الفترة من شبهات حول أمور العقيدة عن قصد أو غير قصد كان لها أثر خطير في زعزعة طمأنينة الإيمان في قلوب كثير من الناس، الأمر الذي حدا بعلماء المسلمين إلى دخول المعترك ومناقشة ذوي الشبهات بالطرق العقلية والنقلية حتى تمكنوا من نقضها وإعادة الطمأنينة إلى القلوب. وكانت الحاجة قائمة إلى تدوين هذه المناقشات بغية تعميم نشرها والحفاظ عليها، فأخذت هذه الأحكام وما أثير حولها من شبهات وما سُجِّلَ

على الشبهات من ردود طريقها إلى الاستقلال على هذا النحو، فصارت علماً مستقلاً يُعرَف بـ 'علم الكلام'، ويُعرَف العلماء المتخصصون به بـ 'المتكلمين'. والأحكام المتعلقة بأقوات الناس وأفعالهم من عبادات ومعاملات انفصلت أيضاً بعد الصدر الأول في علم مستقل... ونجم عن ذلك استقلال هذا الفن بعلم عُرف باسم 'الفقه'، واختص برجال يبحثون فيه سُمُوا بـ 'الفقهاء'. والأحكام المتعلقة بالأخلاق انفصلت هي الأخرى بعد الصدر الأول في علم مستقل. ودعا إلى هذا الفصل ضعف الوازع الديني في النفوس وتضاؤل التأثير الروحي لديها، فقد قُتِحَت الدنيا على الناس فشغفوا بها حُباً ونسوا آخرتهم، وبدأ الطغيان واضحاً في سلوكهم من الركون إلى المجون والانشغال برغبات الجسد شهوات ونزوات، فأحس علماء المسلمين بخطورة المأزق. وكان هذا الجانب لم يُعْنَ به بعد، فابتُروا لاستدراك الحال وسد النقص، فسَعَوْا لإحياء المفاهيم الأخلاقية في الإسلام وإعادة الروح إلى ما كان عليه السلف الصالح من الزهد والعبادة والتسامي على المحرمات والمنكرات، فَأَصَلُوا في ذلك الأصول، ودَوَّنُوا الكتب والفصول، فكانت المحصلة أن استقل هذا الجانب بعلم حاله في ذلك حال قَسِيمِيَّة: علم الكلام وعلم الفقه، وسمي: 'علم التصوف'، وصار له رجال متخصصون في مباحثه عُرفوا باسم 'الصوفية'. ومن هذا العرض يتضح لنا أن التصوف هو 'علم الأخلاق في الإسلام'.

وليس فى كلام الدكتور الفيضى ما يحتاج إلى تعقيب، إلا أن يكون تكريرا لما قلناه آنفا من أن الكلام النظرى شىء، والواقع العملى شىء آخر، إذ من المتصوفة ناسٌ أخلاقهم فى غاية السوء والانحطاط، وناس آخرون أخلاقهم فى منتهى السمو والسموق. وهذا شىء لا يختص به المتصوفة وحدهم، بل هو شائع مشاهد فى كل أصحاب نخلة أو مذهب.

ثم يمضى د. الفيضى فيورد عددا من تعريفات التصوف قائلا: "والحق أن التصوف عرّف بتعريفات كثيرة جداً بلغت المئات. وهي، فيما أرى، لا تخرج على ما ذكرته. وكل ما فى الأمر أن المعرّفين له نظروا إليه من جهات مختلفة: فمن نظر إلى التصوف على سبيل المثال من جهة الزهد عرّفه بأنه الزهد، ومن نظر إليه من جهة العبادة عرّفه بها، ومن نظر إليه من جهة السلوك عدّه سلوكاً، تماماً مثل فئة تحلقت حول مبنى تتوخى وصفه: فمن وقف من جانبه الشرقي وصف منه ما بدا له، ومن وقف من جانبه الغربي وصف منه ما بدا له. . . وهكذا الآخرون. وقد تختلف هنا أوصاف الواصفين، لكنهم فى المحصلة يصفون مبنى واحداً. ومما لا شك فيه أن الوصف كلما كثر وتعددت أطرافه كلما وضحت معالم الموصوف، وازدادت جلاءً. والجدير بالذكر أن بعض التعريفات كانت تعبر عن مشاعر قائلها وتجاربهم الروحية، وتشير إلى الأحوال التى هم فيها أو المقامات التى وصلوا إليها وقت إطلاقهم تلك التعريفات. وفى كل الأحوال فإن جميع التعريفات

تندرج تحت مظلة التعريف الذي بينته، وهو كونه علم الأخلاق في الإسلام لأنه القواعد التي انطلق منها رجال التصوف، والخارطة التي ساروا عليها في مجاهداتهم، والضابط الذي يحكم سلوكهم، وتُقَيَّم من خلاله تاجاتهم. ومن التعريفات التي صرّحتُ بذكر الأخلاق ما يأتي: عرفه أبو محمد الجريري: 'الدخول في كل خُلُقٍ سَنِيٍّ، والخروج من كل خلقٍ دَنِيٍّ'. وعرفه أبو بكر الكتاني: 'التصوف خلق. فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف'. وعرفه أبو حامد الغزالي: 'هو قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يُتَوَصَّلَ بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتخليته بذكر الله'. وعرفه الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله سرّه: 'الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق'. . . . وعرفه أبو حفص الحداد: 'التصوف كله أدب: لكل وقت أدب، ولكل مقام أدب، ولكل حال أدب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول'. وعرفه أبو محمد رويم: 'التصوف مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والاقتدار، والتحقيق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار'. وعرفه السيد الجرجاني: 'التصوف: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً فيُرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطناً فيُرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال'.

وبناءً على ما تقدم أقول: حين يكون التصوف علم الأخلاق في الإسلام فهذا يعني أن ثلث الإسلام تصوف، وأن من لا تصوف له فقد أخل بركن من أركان الدين. يقول الشيخ زروق: 'نسبة التصوف في الدين نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان الذي فسرهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: أن تعبد الله كأنك تراه... الحديث، إذ لا معنى له سوى ذلك'. ومن هنا شَرَفُ هذا العلم، وكانت نسبته من العلوم أنه كليٌّ لها وشرطٌ فيها، إذ لا وزن لعلم أو عمل إلا بصدق النية والإخلاص... ومن ناحية أخرى فإن العلوم توجد في الخارج من دون التصوف، لكنها، والحالة هذه، ستكون ناقصة أو ساقطة. ولذلك ذكر السيوطي رحمه الله أن نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو. يقصد أنه كامل فيها، ومحسّن لها. كما أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمناقق ومبتدع ومشارك إذا رغب فيه وحرص عليه لأنه نتيجة الذهن وثمره العقل، إلا هذا العلم، علم الإيمان واليقين، فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام في حقائقه إلا لمؤمنٍ مُوقِنٍ من قبل. والجدير بالتنبيه قبل أن نأتي على نهاية هذا المبحث أن التصوف إنما يعدل ثلث الإسلام من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فيبدو، على ضوء ما بيناه، أنه يمتد إلى الدين كله، إذ جملته الإخلاص. ومعلوم لدى كل ذي بصيرة أن هذا الأمر لا ينفك، لقبول الأعمال، عن

الأحكام العقيدية والأحكام العملية، بله الأخلاقية. ومن دونه يكون إسلام المسلم جسداً بلا روح، وشكلاً بلا مضمون.

وُضِعَت الأسماء للدلالة على العلوم، وبين العلم والاسم الدال عليه تقوم عادةً علاقة ظاهرة أو خفية، قوية أو ضعيفة. . . ونحن إذا نظرنا إلى العلوم الثلاثة لأحكام الشريعة الإسلامية سنجد لكل علم منها اسماً مشتهراً، ووراء كل اسم علاقة أو أكثر بالعلم الذي وقع عليه: فالأحكام المتعلقة بالعقيدة بعد أن استقلت بعلمٍ اشتهر لها اسم 'علم الكلام' . . . واختلف علماء الفن في سبب هذه التسمية على أقوال أشهرها أن مسألة الكلام، أي كلام الله عز وجل، كانت أشهر مباحث هذا العلم وأكثرها نزاعاً وجدالاً. والأحكام المتعلقة بالعبادات والمعاملات طغى عليها اسم 'علم الفقه'. والباحثون في هذا الفن يذكرون في سبب اصطلاحه أن الفقه في اللغة العلم بالشيء والفهم له. ولأن العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية يحتاج فهماً دقيقاً، فقد أُطلق على هذه الأحكام مصطلح 'الفقه'. والأحكام المتعلقة بالأخلاق غلب عليها اسم 'علم التصوف'."

هذا ما قاله د. الفيضى، وتعلّقى على هذا الكلام أن فيه مبالغة وغلوا شديداً إذ جعل من التصوف الدين كله. ليس ذلك فحسب، بل إننا حتى لو اكتفينا بجعل التصوف روح الدين، الذى بدونه يبقى الدين جسداً بلا روح، لكان ثم مبالغة، إذ الإسلام لا يصلح دون فقه أو عقيدة، ومن ثم

فالتصوف دون فقه أو عقيدة لا يصلح بتاتا لشيء . ذلك أن التصوف لا يشكل إلا جزءا من الإسلام، جزءا فقط، هو الجانب النفسى الذى يتمثل فى أداء العبادات وفعل الخيرات بقلب حار وإخلاص وتجرد . ثم من قال إن المتكلمين أو الفقهاء يفتقرون بالضرورة إلى الإخلاص وحرارة القلب ؟ ومن قال إن المتصوفة هم بالضرورة مخلصون متجردون ؟ هل المتصوفة الذين يزعمون أنهم بلغوا نهاية الطريق، ومن ثم سقطت عنهم التكاليف، هم مسلمون صالحون ؟ هل المتصوفة الذين يزعمون أنهم اتحدوا مع الله أو حل الله فيهم هم مسلمون مستقيمون ؟ هل المتصوفة الذى يعيشون عالية على الآخرين فيأكلون ويشربون ويلبسون ويسكنون ويعالجون على حساب غيرهم بحجة أنهم قد فرغوا أنفسهم للعبادة وأنهم زاهدون فى الدنيا، فهذا لا يعنون أنفسهم بالجرى وراء متطلباتها، هم مسلمون صادقون ؟ هل ذلك الشيخ الصوفى الذى وقف أمام إبليس يقول له: 'إنك، فى سماحتك وتواضعك، تذكرنى بالنبي فلان' هو ممن يخافون الله ويقولون كلمة الحق ولا يبالى بأمور الدنيا ؟ وهل ذلك المتصوف الآخر الذى يدين له من الأتباع من لا يُحصون عددا، ومع هذا تحبه أمريكا كارهة الإسلام وتحرص على أن تكون صلتها به قوية محكمة، ولا يجد هو من يكرمه ويخلع عليه الدروع والنياشين إلا من يحارب الإسلام ويشجع على شتم الرسول، وفوق ذلك ليس مسلما أصلا، أهذا الشيخ الصوفى يبعث على الثقة ؟ لو أن الكاتب قال إن المفترض فى

الصوفى أنه يركز على الباطن كما يركز الفقيه فى فتاواه على الجانب الظاهرى لما كان بيننا وبينه خلاف كبير رغم أن الفقيه قد يكون مشغولا أيضا بالباطن، إلا أن تخصصه من الناحية العلمية ينصبّ على مراعاة القواعد الظاهرية، ورغم أن الصوفى قد يهمل الباطن رغم أن همه من الناحية الافتراضية هو التركيز على ذلك الباطن.

هذا، ويوجد فى التصوف ما يسمى بـ "المقامات" والأحوال"، التى يقول السيوطى فى الأوليات إن أول من تكلم فى مصر عنها هو ذو النون المصرى (انظر "فن التصوف" لعبد الوهاب رضوان نجا الإيبارى/ ٤). ولو شئنا أن نعرّف المقامات بطريقة مبسّطة فلربما جاز لنا أن نقول إنها محطات على طريق المتصوف تحدد كل منها المرحلة التى بلغها من المجاهدة الروحية. أما الأحوال فهى الحالات الروحية التى يكون عليها المتصوف كلما بلغ مقاما من المقامات. أما بالنسبة إلى تعريف الصوفية أنفسهم للمقامات والأحوال فيقول ابن عربى مثلاً فى "الفتوحات المكية": "المقام عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام، والحال هو ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب. ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل، وأن يبقى ولا يعقبه المثل. فمن أعقبه المثل قال بدوامه، ومن لم يعقبه المثل قال بعدم دوامه. وقد قيل: الحال تغير الأوصاف على العبد". وهو، كما يرى القارئ، كلام مبهم يصلح لأى شىء تقريباً. وقد عرّف الجرجاني الحال فى كتاب "التعريفات" بقوله: "معنى يرد على القلب من

غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو هيبة"،
وعند عبد الكريم الجيلي أن "كل حال فهو موهوب وغير مكتسب غير ثابت
إنما هو مثلُ بارق برق. فإذا برق إما أن يزول لنقيضه وإما أن تتوالى أمثاله.
فإن توالى أمثاله فصاحبه خاسر". ويقول د. أسعد السحمراني في كتابه:
"التصوف منشؤه ومصطلحاته": "المقام والحال: اصطلاحان يستخدمهما
الصوفيون للتدليل على تدرج السالك للطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى ولما
يتعرض له في تدرجه هذا في المقامات من أحوال تأتيه من نسمات الرحمة
الإلهية. المقامات هي مكاسب تحصل للإنسان المؤمن ببذل الجهود، وهي
مراحل يرتقي فيها المريد في طريقه إلى التمكين والاطمئنان القلبي لتحقيق له
مكانة بين الخاصة من المصطفين الأخيار. ويقول السراج الطوسي في "اللمع":
"إن قيل: ما معنى المقامات؟ يقال: معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل
فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانتقاع إلى الله عز
وجل". وقال الله تعالى: "ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد" (إبراهيم/
١٤)، وقال: "وما منّا إلا له مقامٌ معلومٌ" (الصفات/ ١٦٤). ومن المقامات
عند الطوسي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، الرضا، التوكل... إلخ.
أما الحال فهي معنى يردُّ على القلب من غير تصنع ولا اكتساب. والأحوال
هي المذاهب الفائضة على العبد من ربه، وهي تكون ميراثاً يلي العمل الصالح
المقترن بصفاء القلب، أو امتناناً من الله تعالى على العبد، ولكنها لا تدوم،

وإذا دامت تحولت من حال الى مقام . وقد جاء في "اللّمع" : 'وأما معنى الأحوال فهو ما يحلّ بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار . وقد حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال: الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم . . . وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات . ومن الأحوال: المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينة، المشاهدة، اليقين . . . إلخ. المقام إذن هو مقام الإنسان بظاهره وباطنه في حقائق الطاعات، وأما الحال فهي ما يتعرض له القلب من نسمات الرحمة الإلهية، والصدر من الشرح، ولا يدوم" .

أما في "الرسالة القشيرية" فنجد أن المقام هو "ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف . فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشغل بالرياضة له . وشرطه ألا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لا يصح له التسليم . وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد . والمقام هو الإقامة، كالدخل بمعنى الإدخال، والمخرج بمعنى الإخراج . ولا يصح لأحد منازل مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة" . أما الحال فهي "معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم . . . فالأحوال

مواهب، والمقامات مكاسب . وقالوا: الأحوال كاسمها . يعني أنها كما تحلّ بالقلب نزول في الوقت .

وجاء في تعريف للدكتور قاسم غني: "مقامات التصوف إنما هي من الأمور الاكتسابية والاجتهادية، ومن جملة الأعمال التي هي باختيار السالك وإرادته، بينما الأحوال من مقولة الإحساسات والانفعالات الروحية، ومن الحالات والكيفيات النفسية الخاصة مما ليس باختيار الإنسان، بل هو من جملة المواهب والأفضال النازلة على قلب السالك من لدن الله من غير أن يكون للسالك أدنى تأثير في نزوله على قلبه أو محوه عن خاطره" . وفي "الرسالة القشيرية" أن هناك من يرى الأحوال كالبروق، فإذا دامت فحديثُ نفس، ومن يرى على العكس أنها لا بد من دوامها، وإلا كانت لوائح وبواده، أى أموراً عارضة تلوح ثم تزول ولا تبقى .

والواقع أن هناك عدة ملاحظات على هذه التقسيمات والتصنيفات: فأولاً من ذا الذى يمكنه يا ترى تحديد المرحلة الروحية التى بلغها فى دينه؟ وكيف يمكن تصنيف تلك المقامات والأحوال بتعقيداتها ودقائقها؟ وهل هذا أصلاً أمر ممكن بالنسبة للبشر؟ إن هذا، لو عقلنا الأمر جيداً، معناه أننا نقوم بحاسبة أنفسنا بأنفسنا، وهى مهمة لم يوكل الله أحداً من البشر للقيام بها بدلاً منه . أليس كذلك؟ ثم لماذا كان ذلك الاختلاف فى تقسيم المقامات والأحوال؟ بل لماذا يبلغ التناقض بين المتصوفة أنفسهم الحد الذى يعكس

بعضهم الأمر عنده فيجعل المقامات أحوالا، والأحوال مقامات؟ كذلك هل يصح القول بأن طريق الصوفي، أو مقاماته وأحواله، تكون دائما متصاعدة لا تعرف التراجع والتقهقر كما يُفهم من كلام القوم؟ الحق أن الحالة الروحية لأي إنسان تمر بكثير من التراجعات مثلما تكتسب مواقع متقدمة بين الحين والحين، ولم يحدث قط أن اتخذت حالة أي إنسان اتجاهها واحدا هو اتجاه التقدم إلى الأمام والصعود إلى الأعلى على الدوام، بل مثلما يتقدم فكذلك يتراجع ويتقهقر. وفوق ذلك فالإنسان إذا ما ظن أنه تقدم وأصبح أعلى مستوى روحيا مما سبق فقد يكون ذلك الظن نفسه سببا في التأخر عما كان قد وصل إليه فعلا، إن كان قد أحرز تقدما حقا ولم يكن ظنا في غير محله. كما أن شرح الصوفية للأحوال والمقامات شرح معقد، وفيه أحيانا بهلوانيات مضحكة، ومبالغات لا تصح أبدا.

خذ مثلا ما قاله القشيري عن مقام "التمكين" من أن أصحابه "مَحْوُ" في وجود العَيْن". ترى هل فهم القارئ شيئا؟ ثم ما الحكمة في هذه اللغة التي تجلب الصداع دون أن يخرج الإنسان منها بطائل، اللهم إلا إذا تكلف شرحها بكلام معسلط مما يبرع فيه الصوفية ويزيد الأمور تعقيدا وتشابكا؟ أما المبالغة فاقراً ما قاله القشيري أيضا عن صاحب مقام "الأنس" من أن "أدنى محل الأنس أنه لو طُرِحَ في لُظَى لم يتكدر عليه أنسه. قال الجنيد: كنت أسمع السريّ يقول: يبلغ العبد إلى حد لو ضُربَ وجهه بالسيف لم يشعر.

وكان فى قلبى منه شىء حتى بان لى أن الأمر كذلك". ترى هل هذا معقول؟ ألم يكن الأولى بذلك رسول الله حين مرض فكان يتألم كما تتألم نحن البشر الطبيعيين؟ أما موت المشاعر على هذا النحو فلست أدرى كيف يكون. ولو حدث فعلا كما يقولون فهو أمر شاذ مخيف لا أظنه يحدث لإنسان لم يتعاط شىئا يوقف شعوره بالألم كالذى سمعته مؤخرا من أن بعض ذوى السوابق حين يُسْتَدْعَوْنَ إلى قسم الشرطة ويعرفون أنهم سوف يُضْرَبُونَ ضربا مبرحا لا يطيقونه فإنهم يتعاطون نوعا من الحبوب يمنعهم من الإحساس بالألم مهما كانت درجته. ولا ننس أن مواد التخدير الطبى تمنع المخدّر من الشعور بأى شىء، بل تنقله من حالة اليقظة والوعى إلى حالة ينعدم فيها كل إحساس تقريبا إلى أن تنتهى العملية الجراحية ويكون الألم قد مضى أو خَفَّتْ حدّته إلى حد بعيد. ثم إن النبى على شدة قربيه من ربه لم يحدث أن غاب عن الوجود على هذا النحو الغريب لا فى صلاة ولا فى دعاء ولا فى تأمل. فمن أين إذن أتى المتصوفة بهذا الكلام العجيب؟ أتراهم مخلوقات خارقة لا تخضع لسنن الكون فى الشعور بالألم؟ إننى لا أعادى التصوف مبدأً كما بينت، بل دافعى هو أن يعيش المسلم وفق ما يريده منه دينه لا وفق ما يسمعه من كل من هب ودب! ولو قال فقيه شىئا ما أنزل الله به من سلطان ولا قاله رسول الله لكان لى منه نفس الموقف. ونفس الشىء يقال عن المعتزلى أو الخارجى... إلخ. وأنا، حين أفعل هذا، لا أدعى أننى بالضرورة على

الصواب، بل هو اجتهاد منى قد يصح، وقد يطيش. ولكن لا بد من التحدث مع ذلك بما أعتقد أنه هو الصواب، أما أن يكون صواباً على وجه القطع فهو ما لا أجرؤ على ادعائه.

وعلى أية حال فإن تعريف المقامات والأحوال على النحو الذى نراه لدى المتصوفة من شأنه أن يحول المجاهدة الروحية إلى شىء مادى، وكأننا إزاء بيت بنىه ومرتفع به طبقاً بعد طبق، فهو لا يعرف النزول بل الزيادة والارتفاع على الدوام إلى أن يصل البناء منتهاه فيتوقف عندئذ. ولا ننس أن كثيراً من المتصوفة، بسبب من هذا المفهوم الخاطئ للمقامات والأحوال، يسقطون فى فخ الغرور، إذ يظنون أنهم قد بلغوا منتهى الطريق، وأنهم من ثم صاروا مُعَفِّينَ من أداء الواجبات وألوان العبادات، أى سقط عنهم التكليف. وهذا من وسوسة الشيطان، والعياذ بالله. من هنا فإننى أقترح أن يقال بدلاً من ذلك إن المسلم عليه أن يظل طول الوقت فى مجاهدة لنفسه وشهواته لا يتوقف أبداً ولا يتوانى عن العمل المنتج النافع له ولأمته حسب تخصصه ومجاله، وإنه معرض فى كل وقت للصعود والهبوط، وإنه ليس من اختصاصه الحكم على نفسه وإعطاؤها الدرجة التى يظن أنها تستحقها، بل يترك ذلك لله سبحانه، فالحساب والتقويم من شأنه هو وحده جل وعلا. ولا بد لنا من التنبيه إلى أنه ما من إنسان يستطيع الزعم بأنه قد بلغ الغاية على طريق السمو الروحى، إذ يوم يضع فى حسبان أنه قد بلغ ذلك المبلغ يكون هذا بداية

السقوط والفشل والبؤس بسخط الله . بل إنه، من الناحية المبدئية، لا توجد نقطة متى بلغها الإنسان يكون قد بلغ الغاية التي ليس بعدها غاية، بل الغاية في حقيقة الأمر هي شيء وهمي أكثر منه حقيقيا يتصور الإنسان أنه عند الأفق، لكنه إذا صار إلى هناك وجدته قد ابتعد عنه وأن عليه مواصلة الرحلة والسعى من جديد وهلم جرا . ولا بد أن نعرف في ذات الوقت أن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، وأنه سبحانه كريم يغفر الذنوب جميعا، وأنه لا ييأس من رُوح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون .

وكان الإمام أبو حامد الغزالي ينغمس في الحياة يدرس ويكتب ويناقش ويتولى المناصب، ثم تحول بعد ذلك إلى التصوف فتحمس لأصحابه وكبر من شأنهم وأكد أن طريقتهم هي وحدها الطريقة الصحيحة الواجبة الانتهاج . قال: "ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتخليته بذكر الله . وكان العلم أيسر عليّ من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات الماثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من

المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. وكم من الفرق أن تعلم حد الصحة وحد الشيع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تكون صحيحا وشبعان، وبين أن تعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أجرة تصاعد من المعدة على معادن الفكر وبين أن تكون سكران! بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران، وما معه من علمه شيء. والصّاحي يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد الصحة. فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا! فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معي من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر. فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين مجرد، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها. وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ

النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجاني عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أهدت بي من الجوانب. ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أنني على شفا جُرف هار، وأنني قد أشفيتُ على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعدُ على مقام الاختيار: أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا، وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بُكرةً إلا ويحمل عليها جلد الشهوة حملة فيفترها عشيّة، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومناادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار! ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال. فإن أذعنت لها وتركت

هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التقت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة".

هذا ما قاله الغزالي. ورغم احترامى لأبى حامد ولعقليته الجبارة وعلمه الجم وغزارة كتاباته وعمق تحليلاته بوجه عام فإننى أحب أن أسمح لنفسى بالاختلاف معه، إذ أرى أنه ما من طريقة إلا وفيها الصالح النافع، وفيها الفاسد الضار، ومن ثم فلا المتصوفة هم أحسن الناس ولا هم أسوأهم، بل هم بشر من البشر: فيهم الطيب، وفيهم الخبيث، وأسلوبهم فى الحياة لا يخلو من الحسن ولا القبح. وبالمناسبة فكل أصحاب طريقة يروُن أن طريقتهم هى الطريقة الوحيدة الصحيحة. وترتب على ذلك أن كل أصحاب طريقة يجتهدون فى تقبيح الطرق الأخرى، مضيقين بذلك على العباد أمرهم، فكان الدنيا ثقب إبرة بالغ الضيق وليست براحا واسعا يسع من الحباث ألفا بل مليوناً بل ملايين بل مليارات وديشيليونات . . . إلى ما شاء الله مما لا يمكننا إحصاؤه من أعداد البشر فى كل الأزمنة والبلاد. وكل ما هنالك أن الناس تتفاوت فى الطباع والأمزجة والعقول والأذواق والميول والقدرات والمواهب والبيئات والأساليب التى ربُّوا عليها ونشأوا على أساسها، فترى هذا يفضل مذهب أهل السنة، وآخر يؤثر الاعتزال، وثالث يرى أن التصوف أفضل له، ورابع يعتقد أن التشيع هو الخطة الأوفق . . . وهكذا. ولو أن كل واحد فهم

ما قلناه من أن الإسلام أوسع من كل هذه الطرق، وبالتالي فلا يمكن أن يتطابق وأية طريقة منها، بل يحتويها جميعا احتواء الكل على الأجزاء، وأن كل جزء منها قد يشتمل على ما يتعارض والإسلام لأراح واستراح ولما ضيع عمره فى الجدالات والمعارك المذهبية التى لا تأتى فى الغالب بخير، بل تزيد الأمة انقساماً وخصاماً، وقد تفتت كيانه. وعلى هذا فإنى أقول: فليختر كل منا ما يوافق طبعه ومشاربه وفهمه، على أن يضع نصب عينيه دائماً مبادئ الإسلام وروحه بحيث إذا لمح فى الطريقة التى يسلكها ما يتعارض وهذه المبادئ أو ذلك الجوهر أصلح أمره فى الحال ولم يتعصب لمذهبه تعصب من يراه هو الأصل، والإسلام هو الفرع.

لنأخذ مثلاً التشيع، فكل إنسان حر فى أن يؤمن بأن علياً، كرم ما لله وجهه، كان ينبغي أن يتولى الخلافة بعد رسول الله ثم يتولاها أولاده ثم أحفاده ثم باقى ذريته من بعد، لكنى لا أفهم تصوّر الشيعة أن إيمانه بحق عليّ هذا لا يكتمل إلا إذا سبّ أبا بكر وعمر وثلبَ عرض أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق. ذلك أنه لا علاقة بين الأمرين، بل من الممكن جداً أن نقول فى حق عليّ فى الولاية ما نقول، وفى ذات الوقت نحترم زوجة نبينا ووالدها مثلاً، أو على الأقل: أن نسكت فلا نحاول الإساءة إليهما، إن لم نستطع الشاء عليهما. كذلك يمكن أن يكون الإنسان متصوفاً حار القلب متوهج الإيمان يركز على المشاعر الباطنة، لكنّ دون أن يهمل الشعائر والرسوم كما يفعل بعضهم حين

يزعم أنه قد بلغ نهاية الطريق وكملت له أخلاقه وصفت نفسه صفاء تاما فلم يعد بحاجة إلى تأدية العبادات مثلا، أو يزعم حصول الكرامات على يديه، أو يتصور إمكان اتحاده بالله أو حلول الذات الإلهية فيه . . . وهكذا . صحيح أننى أعلم أن ما أكتبه الآن ليس إلا أمانى طيبة لا يصدقها الواقع، لكن لا بد أن أقول ما عندى، إذ لست أستطيع شيئا آخر سوى التذكير والنصح إن كان لى أن أدعى الحق فى التذكير والنصح، إذ أنا بدورى محتاج إلى من يذكرنى وينصحنى مثلما أذكر الآخرين وأنصحهم . . . وهكذا دواليك . وبذلك الطريقة تسير سفينة الحياة، فتستقيم مرة، وتتلعب بها الأمواج أخرى، إلى أن تصل إلى غايتها باستيفائها أجلنا . وهذه هى طبيعة الحياة، وتلك قدراتنا، التى لا يكلفنا الله أكثر منها ؟

كذلك لست أفهم هذا الاستقطاب الذى يقيمه الغزالى بين الدنيا والآخرة بما يفيد أنك لا تستطيع أن تجمع بينهما، بل إما الدنيا فتخسر الآخرة، وإما الآخرة فلا بد لك حينئذ من نبذ الدنيا بالكلية، وليس من طريق ثالث . والعجيب أننى كنت دائما ما أسمع خطيب الجمعة الريفى يقول إن الدنيا مزرعة الآخرة . أى أن الدنيا لا تتعارض مع الآخرة بل تشكل الطريق الذى يؤدى إليها . وهو كلام صحيح مائة فى المائة، وإلا فكيف يمكن أن يكسب الإنسان معركة الآخرة إذا نبذ الدنيا ؟ إن نبذ الدنيا الحقيقى هو أن ينتحر الإنسان بحيث لا يعود يربطه بها أى رابط، فهل هذا مما يرتضيه الدين ؟

ثم كيف يصح أن ينبذ الإنسان الدنيا، والله إنما خلقها لنستمتع بها؟ أليس قد ذكر سبحانه في القرآن مرارا أنه سخر لنا ما فى السماوات والأرض جميعا منه؟ أبهذه الطريقة ينبغى أن تقابل نعمة الله؟ لو أن هذا وقع منا تجاه شخص مثلنا لكانت قلة لياقة وإساءة لا يسهل اعتقارها، فما بالنا إذا كانت قلة اللياقة مع الله عز شأنه؟ ثم إننا لكي نكسب الآخرة لا بد لنا من العمل والتعاون مع الآخرين والقيام بواجباتنا تجاه أنفسنا وأسرنا وأقاربنا وجيراننا ووطننا، وهو ما يستلزم مغامرة الدنيا والضرب فيها وخوض صراعاتها؟ فما معنى نبذنا إياها وإدارة ظهرنا لها إذن؟

قد يقول الغزالي إن مغامرة الدنيا معناه ارتكاب الذنوب والآثام. وأنا معه فى أن هذا سوف يقع، لكننى أضيف أنه ليس متوقعا منا نحن بنى البشر أن نتزهد كل التزهد عن الأخطاء، وإلا فما معنى قول الرسول الكريم: "كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"؟ وما معنى قوله جل وعز: "وخلق الإنسان ضعيفا"؟ وما معنى قوله سبحانه: "قل: يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا. إنه هو الغفور الرحيم"؟ وما معنى قول نبينا صلى الله عليه وسلم على لسان رب العزة والجلال: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء ب قوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم"؟ وعلى أية حال فليس معنى أننا سوف نرتكب أخطاء فى الدنيا أن نبذ الدنيا، بل معناه أن نعمل دائما على تصحيح مسارنا ونحاول تجنب

ارتكاب الأخطاء مرة أخرى، مع علمنا أننا مهما نبذل من جهد ونخلص النية والعمل فإن الخطأ سوف يتسرب إلى ما نعمله من خلال هذه الثغرة أو تلك، وما أكثر الثغرات التي تنفذ منها الأخطاء !

إننى، حين أقرأ آيات سورة "البقرة" التي يتحدث فيها الله عن خلق آدم والاستغراب الذي قابل به الملائكة ذلك الخبر حين سمعوا به من ربهم، أجد أن الإنسان لم يُخلق منزهاً عن الخطأ، بل لا يُنتظر منه ألا يخطئ مثلما ظنت الملائكة فاستغربت أن يخلقه الله ما دامت هي تسبحه سبحانه وتقدس ليل نهار ولا تجترح الشر أبداً، بل خلقه الله لكى يعمر الأرض مسلحاً بالعقل والإرادة، متوقفاً منه الإفساد وسفك الدماء كما قالت الملائكة فلم ينف الله ما قالت، بل لفت نظرها إلى شيء آخر لم تلتفت إليه، ألا وهو ما يتفرد به الإنسان من القدرة على تعلم الجديد كل يوم وتطوير الدنيا من حوله . ثم لا ينبغي أن ننسى رحمة الله لنا وبره بنا وكرمه معنا وغفرانه لذنوبنا . إن الله لن يؤاخذنا بقسوة كما يظن بعض الناس، بل برحمته منه وفضل، ما دمنا نؤمن به ونبذل جهدنا فى سبيل عمل الخير، ولا علينا بعد هذا إن فرطت منا أخطاء ما دامت لم تجترح عن عناد وجبروت وإصرار . وحتى لو ارتكبت على هذا النحو فإن توبة الله واسعة ولا يُغلق بابها أبداً لا ليلاً ولا نهاراً، وما من ذنب إلا والإنسان يستطيع أن يستغفر منه فيغفره الله له . ولقد أخطأ آدم فى أول الطريق، فهل ألقى به الله فى قعر جهنم؟ أبداً، بل استغفره آدم فغفر

له وتاب عليه . إنه هو التواب الرحيم . وفى النهاية فإن البشر كلهم أجمعين لا يمكن أن يكونوا أطهارا خالصى الطهارة، بل هم بوجه عام يخلطون عملا صالحا وآخر سيئا، والعبرة بأن تكون الحسنات أكثر من السيئات، أو على الأقل: أن تكون نياتهم خيرة وأن يعملوا بكل ما أوتوا من قوة على تنفيذ ما اتَّوَّه لا يألون فى ذلك أى جهد حتى لو لم ينجحوا بسبب من هذه العقبة أو تلك .

لقد ذكر الغزالى أنه كان يزدهيه ما كان قد اكتسبه من علم، فرأى أن مثل هذا الشعور من شأنه أن يحبط أجره عند الله على التدريس، فكانت النتيجة أن ترك التدريس جملة . ولو كنت مكانه ما تركت التدريس لأن هذا الشعور لا يخامر المدرسين فقط، بل يخامر قلوب البشر جميعا، فكلنا تأتى علينا أوقات وحالات نحس فيها بالزهو لنجاحنا فى عملنا وتصورنا أن غيرنا ما كان ليحسن أن يعمل مثله . ولو أن كلا منا ترك عمله لهذه العلة لقد يجب على كل الناس أن يتركوا أعمالهم ويعتزلوا الدنيا . وعمر بن الخطاب ذاته على جلال قدره وتقواه قد أعجبه نفسه ذات مرة حين رأى أنه قد صار خليفة للمسلمين أجمعين بعدما كان يعمل برعى الغنم، فهل ترك الخلافة علاجا لهذا الازدهاء ؟ لا طبعاً، بل عالج نفسه وقمعها فى الحال وأعلن ذلك على الناس .

يقول ابن منظور فى "مختصر تاريخ دمشق": "نادى عمر بن الخطاب بـ الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس وكبروا صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أيها الناس، لقد رأيته أُرعى على خالات لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي، وأي يوم! ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما زدت على أن قميت نفسك (يعني: عبثت). فقال: ويحك يا ابن عوف! إني خلوت، فحدثني نفسي قالت: أنت أمير المؤمنين، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها. وقال عبد الرحمن بن حاطب: كنت مع عمر بن الخطاب بضجتان، فقال: كنت أُرعى للخطاب بهذا المكان، فكان فظا غليظا، فكنت أُرعى أحيانا، وأحتطب أحيانا، فأصبحت أضرب الناس، ليس فوقى أحد إلا الله رب العالمين. ثم قال:

لا شيء مما ترى يبقى بشاشته لم تغن عن هرمة يوما خزائنه ولا سليمان إذ تجري الرياح له أين الملوك التي كانت نواهلها حوضاً هنالك موروداً بلا كذب	يبقى الإله، ويفنى المال والولد والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا والإنس والجن فيما بينهما بُرد من كل أوب إليها راكب يقد لا بد من ورده يوما كما وردوا
---	--

ولقد وقع فى إحدى الغزوات على عهد النبى شىء من خالد أغضبه صلى الله عليه وسلم، فهل تخلص من خالد أو أمره بترك عمله واعتزال الدنيا؟ لقد رأى أنه اجتهد فأخطأ، فنبهه إلى خطئه وشدد على أنه لا ينبغى

أن يصنع ذلك مرة أخرى. كما ضُبِطَت امرأة قبيل فتح مكة وهى تحمل رسالة من أحد الصحابة البدرين ينبه فيها أهل مكة إلى نية الرسول فى غزوهم وفتح مدينتهم. فماذا صنع الرسول حين عرف بالأمر؟ لقد أراد عمر أن يقتل الرجل، إلا أن الرسول قال له: وما يدريك؟ لعل الله أطلع على أهل بدر فقال لهم: "اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم". وأنا أفهم الحديث على أن الرسول قد وازن بين اشتراك الصحابى فى بدر، تلك المعركة الفاصلة فى تاريخ الإسلام والبشرية التى يُوزن فيها عمل من اشترك فيها من الصحابة بميزان استثنائى، وبين ما أقدم عليه الصحابى بطيب نية واجتهاد خاطئ وجهل بأوضاع الدين والدولة الجديدين، فضلا عن خوفه أن تضار مصالحه فى مكة وتصوره أنه بهذه الرسالة سوف يتقدها، فتركه عليه الصلاة والسلام دون عقاب، سيما وأن الرسالة لم تصل لغايتها فلم يضر المسلمين شىء، وأنه يعلم أن إيمان الرجل إيمان صحيح، وإن غشيت غبشة عارضة وقتية لا تنال منه منالا، وأنه متى تبه تنبه واستقام على الطريقة لا يلتوى بعدها أبدا.

والعبد لله أحيانا ما يخامرُه مثل هذا الشعور إذا وضع دراسة أو اشترك فى ندوة ورأى نفسه قد وُقِّقَ فيها، فيجد لزاما عليه أن ينبه نفسه إلى أن ما يعلمه فى جنب ما يحمله لا يعدو أن يكون قطرة من محيط لا سواحل له، وأن ما توصل له من علم أو ألفه من كتاب أو ألقاه من محاضرة إنما هو هبة من الله أفاضها الله عليه، فيقف فى المحاضرة التالية ويعلن للطلاب أنه

مثلهم جاهل، إلا أن جهله يختلف عن جهلهم فى أنه جهل بسيط لأنه لا يكف عن محاربة هذا الجهل والعمل على إزالة غشاواته غير المتناهية عن عينيه واحدة واحدة رغم كل شىء . لو أن الغزالي قد اعتزل التدريس والتأليف لأنه رأى مثلاً أن عليه ضغوطاً عاتية من السلطان لا يمكنه مواجهتها لقول ما لا يرضاه ضميره لفهمتُ موقفه وقدَّرته ووافقتُ على الاعتزال . أما، وهو لم يتحدث عن شىء من ذلك أو ما يشبهه، فلا أجد ما أستند إليه فى الموافقة على ما صنع . ولو افترضنا أن هذا قد حدث فعندئذ ما كان له أن يعتزل الناس وتيار الحياة الصاحب فى صومعة مثلاً، بل كان ينبغى أن يجد لنفسه عملاً آخر يتعيش منه هو وأسرته بعيداً عن التدريس بضغوطه . أما ترك كل شىء، كما يفهم من كلامه فى هذا الشأن، فكلاً وألف كلاً، مع إجلال الشديده له رغم كل ذلك .

لقد كنت، وأنا صغير لم يصلب عودى ولا استحسنت تجاربي ولا نضج فهمى للحياة بعد، أتصور أنه سيأتى يوم أخلص فيه من كل عيوبى فأعيش بعده عيشة كلها سعادة وسكينة ورضا وبُعد عن الخطأ والتقصير . ثم تكشفت لى الحياة عن حقيقتها، فإذا هى تتلخص فى أن واجبنا الأول والأخير هو بذل الجهد دون توقف بهدف الوصول إلى الكمال، الذى لا ولن نصل إليه أبداً، ورغم ذلك لا ينبغى أن نتوقف عن السعى لدركه يوماً مع يقيننا أن هذا هو المستحيل بعينه، وأن هذا هو قدرنا وواجبنا فى الحياة،

وأنه على أساس من القيام بذلك الواجب أو التقريط فيه سوف ندخل الجنة أولا.

ومما قاله الإمام أبو حامد الغزالي أيضا عن التصوف ويحتاج إلى النظر فيه لنرى مدى إصابته للحق بشأنه ما كتبه رحمه الله فى الجزء الثانى من كتاب "إحياء علوم الدين" أثناء كلامه عن بعض الأمور المتصلة بالمتصوفة، إذ قال: "سئل عن مال أوصي به للصوفية، فمن الذى يجوز أن يُصرف إليه؟ فقلت: التصوف أمر باطن لا يُطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف فى إطلاق اسم "الصوفي". والضابط الكلي أن كل من هو بصفة إذا نزل فى خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكرا عندهم، فهو داخل فى غمارهم. والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات: الصلاح والفقر وزى الصوفية وألا يكون مشغلا بحرفة وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة فى الخانقاه. ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم، وبعضها ينجبر بالبعض. فالفسق يمنع هذا الاستحقاق لأن الصوفي بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة. فالذى يظهر فسقه، وإن كان على زيه، لا يستحق ما أوصي به للصوفية. ولسنا نعتبر فيه الصغائر. وأما الحرفة والاشتغال بالكسب فإنه يمنع هذا الاستحقاق. فالدهقان والعامل والتاجر والصانع فى حانوته أو داره والأجير الذى يخدم بأجرة، كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصي به للصوفية ولا

ينجبر هذا بالزّي والمخالطة. فأما الوراقّة والخياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفيّة تعاطيها، فإذا تعاطاها لا في حانوت ولا على جهة اكتسابٍ وحرفةٍ فذلك لا يمنع الاستحقاق، وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات. وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة فلا تمنع، وأما الوعظ والتدريس فلا ينافي اسم "التصوف" إذا وجدت بقية الخصال من الزّي والمساكنة والفقر، إذ لا يتناقض أن يقال: 'صوفي مقرئ، وصوفي واعظ، وصوفي عالم أو مدرس'، ويتناقض أن يقال: 'صوفي دهقان، وصوفي تاجر، وصوفي عامل'. وأما الفقر فإن زال بغيره يُفترط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفيّة. وإن كان له مال ولا يفي دخله بخرجه لم يبطل حقه، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة، وإن لم يكن خرج. وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات. وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر، ولكن من لا يخالطهم وهو في داره أو في مسجد على زيههم ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك في سهمهم، وكأن ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزّي. فإن لم يكن على زيههم ووُجد فيه بقية الصفات فلا يستحق إلا إذا كان مساكنا لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية. فالمخالطة والزّي ينوب كل واحد منهما عن الآخر. والفقيه الذي ليس على زيههم هذا حكمه: فإن كان خارجا لم يُعدّ صوفيا، وإن كان ساكنا معهم ووُجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم. وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا

يشترط ذلك في الاستحقاق . وعدمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة .
وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

هذا ما قاله الغزالي فى تعريف "المتصوف" وضبط مصطلح "التصوف" ، وهو ضابط غريب، وبخاصة من عالم كبير كالغزالي رضى الله عنه . إذ كيف فاته أن الإسلام لا يرحب بهذا الذى يقوله عن المتصوفة من أنهم يؤثرون الفقر وترك العمل والسعى وراء الرزق، اعتمادا (بطبيعة الحال) على أن هناك من يطعمهم ويكسوهم ويرزقهم وهم نائمون فى العسل بحجة أنهم مشغولون بعبادة الله، ناسين أو بالأحرى: متناسين أن العمل عبادة، وأن الإسلام لا يعرف مثل هذا الكسل والتبدل وانتظار الأكل والشرب من الآخرين بعدما صار هؤلاء الصوفية أعضاء شلاء فى المجتمع لا يُرجى منهم نفع ولا جدوى . ثم ما معنى تساكُن المتصوفة ؟ أليس معناه أنهم يسكنون خاتقاها يجرى عليهم فيه الرزق دون أن يتعبوا فى تحصيله وكأنهم نساء يعتمدن على كفالة أقربائهن ؟ وهل هذا مما يجوز فى الإسلام ؟ بل هل هذا من الرجولة والكرامة والشهامة فى شىء ؟ ألم يقل الرسول لمن رآه يبقى فى المسجد بعد انتهاء الصلاة اعتمادا على أن له أخا يقوم بأمر طعامه وشرابه وكسائه إن أخاه أعبدُ منه ؟ ألم يكره الرسول من المسلمين أن يمد أحدهم يده بالسؤال، وهو يستطيع أن يحصل رزقه بنفسه ؟ ألم يأمر الرجل الذى أتاه سائلا أن يذهب إلى بيته ويحضّر ما يمكن بيعه، ثم باعه له بدرهمين واشترى له بهما

قدوما ليحتطب ويبيع ما يحتطبه، ثم أمره ألا يريه وجهه مدة من الزمان عاد إليه بعدها وقد كسب مالا ينفقه في إشباع حاجياته، فقال له إن هذا خير من أن يأتي يوم القيامة وقد نُكِّتَ في وجهه نكئة سوداء؟

ثم من قال إن الإسلام يرضى لأتباعه بالفقر، فضلا عن أن يرحب به، فضلا عن أن يوجبه عليهم؟ أليس الله هو الغنى؟ أليس الله المثل الأعلى في السماوات والأرض؟ وكما أن الله عليم، ومن ثم فعلينا أن نبذل نحن البشر جهدنا كي نحصل العلم ونكون علماء، وكما أن الله قوى، ومن ثم فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف بما يعنى أن المسلم عليه أن يبذل كل جهده كي يكون قويا فيرضى عنه الله ورسوله، وكما أن الله جميل يحب الجمال، ومن ثم ينبغي أن يحرص المسلم على الجمال في كل ما يعمل، وكما أن الله نظيف يحب النظافة، ومن ثم كان واجبا على المسلم أن يكون نظيفا حتى ليؤكد الرسول الكريم أن النظافة من الإيمان، كذلك فَكُونَ الْغَنَى من صفات الله سبحانه وتعالى معناه أن علينا نحن المسلمين العمل بكل قوانا على أن نكون أغنياء. ولم يترك الرسول الأمر غائما دون تحديد، بل قال لأحد صحابته حين أراد أن يتبرع بماله كله: "إِنَّكَ إِنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ". وبالإضافة إلى ذلك ألم يبين صلى الله عليه وسلم أن اليد العليا خير من اليد السفلى، بما يفيد أن الغنى أفضل من الفقر، وأن من يعمل فيغتنى خير من لا يعمل فيظل فقيرا، إذ إن علو اليد

يقتضى أن يكون صاحبها غنيا يُعْطَى لا فقيرا يأخذ ؟ على أن هناك فرقا لا يخفى بين قوتنا وغنانا مثلا وبين قوة الله وغناه سبحانه، وهو أن صفات الله مطلقة لا تحدها حدود، أما صفاتنا فمحدودة، فضلا عن أنها مستمدة منه جل وعلا وليست من عند أنفسنا، إذ نحن من خَلَقه، وما من شيء نملكه أو نتصف به إلا وهو من عطاياه وكرمه.

وأغرب من ذلك أن الغزالي يتناول التصوف وكأنه حرفة من الحرف، إذ هو لا يتصور أن يجمع أحدهم بين التصوف والدهقنة مثلا، أو التصوف والتجارة، أو التصوف والصناعة. وما دام المتصوف لا يمكن أن يزاول حرفة أو تكون له مهنة يأكل منها، وكأن التصوف هو وظيفته في الحياة لا يمكن أن يزاول وظيفة سواها، فمعنى هذا أن يتولى الآخرون إطعامه وسقيه وكسوته وإسكانه، لأنه ليس له عمل ولا يشعر بالحرج جراء عدم العمل، بل كل ما يفعله هو أن يعيش في خانقاه يأتيه فيها طعامه وشرابه وكساؤه دون أن يقوم في مقابل ذلك بأي عمل، وهو ما لا يتسق مع الإسلام في شيء. ذلك أن التصوف كما أفهمه إنما هو التوجه الروحي بحيث إن المتصوف إذا أقبل على عمل شيء من عبادة أو سعى دنيوي فإنما يقبل عليه ويؤديه بجرارة وإخلاص باذلا كل ما لديه من جهد لا يعرف الفتور ولا الكلل، في حدود الاستطاعة البشرية بطبيعة الحال. وعلى هذا فمن الممكن أن يكون المتصوف صاحب عمل كأن يكون تاجرا أو زارعا أو صانعا أو مدرسا أو ضابطا أو خبازا أو

سباكاً أو بواباً . . . إلخ. لا بل لا بد أن يكون صاحب عمل، وإلا فمن أين يأكل ويشرب ويلبس ويكون له بيت يسكنه؟ إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال الفاروق رضى الله عنه، ولا ينبغي للمسلم أن يكون عالة على الناس، بل يجب عليه أن يسعى على معاشه هو وأسرته.

ونحن فى عصرنا هذا نعرف أكثر مما كان يعرف من مَضُوءٍ من أسلافنا أن الأمم إنما تَعَزَّز وتَقوى بغناها، وأن هذا الغنى لا يمكن أن يتحقق إلا بالعمل، والعمل الشاق المتصل. أما الفقر فهو باب الضعف والهلاك ووقوع الأمة فى فخ الحاجة ومد اليد لأخذ المعونة أو الاستدانة، التى تؤدى إلى التدخل الأجنبى والاستعمار. أم سيقال إن المتصوف لا يشغل نفسه بمثل تلك الأمور الدنيوية؟ إذن فهو متصوف منافق يتظاهر بحب دينه وبالإخلاص فى ممارسته بينما هو فى الحقيقة لا يمارس منه شيئاً، أو لا يمارس منه شيئاً نافعا، ظناً منه أن القشور التى يمارسها هى الدين، فى حين أنها ليست من الدين فى قليل أو كثير، أو هو متصوف جاهل لا يعرف دينه ولا يفهم حقيقة أمره. لكن لا بد أن نضيف إلى ذلك أن الغنى المقصود ليس هو غنى المال فقط بل غنى النفس أيضاً. فكما ترى فإن الغنى أفضل من الفقر فى كل حال: فى حال الغنى المادى وفى حال الغنى النفسى جميعاً.

ولا يقول بأفضلية الفقر إلا من لا يعرف حقيقة الإسلام، فالفقر مذلة وحاجة وضعف، ومن ثم فهو مذموم بكل لسان. ومع هذا ينبغي أن نوضح

أن الفقر إذا كان نتيجة تمسك بالمبدأ الخلقى أو العقيدى فهو شرف يزين صاحبه، وكذلك إذا كان نتيجة عجز عن العمل أو عن العثور عن العمل فليس على صاحبه من حرج، إذ هو أمر خارج الطوق، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها . لكن لا بد للشخص المقتدر حينئذ ألا يستسلم للفقر، بل عليه البحث عما يخرج من هذا النفق المظلم لا يكف عن ذلك أبدا . وقد تمر الأمة بظروف صعبة من حصار ظالم أو جائحة طبيعية مثلا، فعندئذ لا عيب فى الفقر الذى تعاني منه جماهيرها، إذ الأمر ليس بأيديهم بل هو مفروض عليهم . ولكنهم، فى هذه الحالة أيضا، مطالبون بالسعى لتجاوز الأزمة لا بالرضا بها، فضلا عن استدامتها .

ولا ينبغى أن يقال إن المتصوف رجل زاهد فى الدنيا، فهو من ثم لا يفكر فيها ولا يشغل نفسه بها . ذلك أنى أخشى أن يكون فى هذا سوء أدب مع رب العالمين، الذى سخر لنا الدنيا بكل ما فيها من أرض وسماء ونجوم ورياح وشمس وقمر وبحار وأنهار كما يؤكد القرآن مرارا وتكرارا فى سورة المختلفة: المكى والمدنى على السواء بما يدل على أهمية الأمر، إذ ليس من حسن الإيمان فى هذه الحالة أن يقول الإنسان إنه عازف عن هذه النعم التى سخرها الله له . أفهم أن يقال: لا ينبغى أن يكون الإنسان مسعورا وراء المال بحيث ينسى بقية واجباته ولا يراعى حراما ولا حلالا . لكنى لا أفهم أن يدعو مسلم إلى كراهية الغنى لا لشيء إلا لحبه للفقر والحاجة وما يترتب

على الفقر والحاجة من مقاساة الذل والهمل والكرب العظيم بالليل والنهار . ثم إن المتصوف لا يعيش وحده فى الدنيا حتى يقول إنه لا يحتاج منها إلا أقل القليل، بل هو فى أغلب الأحيان مسؤول عن زوجة وأولاد وأبوين كبيرين، وربما عن بعض الأقارب المساكين العاجزين أيضا . فكيف يقوم بواجبه نحو هؤلاء إذا كان فقيرا لا يملك ما ينفقه عليهم أو يعطيه إياهم ؟ وفى الأيام الأولى للدولة الإسلامية حين لم يكن هناك مال كاف لإدارة شؤونها وتعبئة جيشها والإنفاق على الفقراء فيها، ألم يكن أغنياءها يسارعون إلى إنقاذها ؟ فكيف بالله كانت تستطيع الدولة الإسلامية تجاوز تلك الشدة لو لم يكن هناك أغنياء يقومون بهذا الواجب ؟ أم ترى الدول يمكنها أن تعيش فى فقر، وتنجح رغم هذا فتكون دولا قوية مرهوبة الجانب ؟ هذا ما لا يمكن أن يكون .

ثم إن الضابط الذى اعتبره الغزالي فى تحديد معنى "المتصوف" إنما هو ضابط شكلى من فقر وارتداء لزي الصوفية ومساكنة لهم مما لا يدل بالضرورة على شىء وراءه، مع أن الصوفية يقولون إنهم من أهل الباطن، الذين يشغلون بالجواهر ولا يعبأون بالأشكال، ويعيرون الفقهاء من أجل ذلك بأنهم يركزون فى أمور العبادة على الظاهر فيتحدثون مثلا عن حركات الصلاة وسكاتها وأقوالها وأفعالها ثم لا يشغلون أنفسهم بالكلام عما ينبغى أن يتحلى به المصلى من خشوع وإخلاص وإخبات وما إلى هذا، وهو ما

أشار إليه د . محمد عبد المنعم خفاجى بقوله: "الفقه علم بأحكام الشريعة، والتصوف عمل بها . والفقه من علوم الظاهر، والتصوف من علوم الباطن . ومصادر الفقيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهى وإن كانت مصادر التصوف إلا أنه يستمد مع ذلك من الوجدان والذوق والروح والإلهام مادة فهمه لهذه المصادر، بينما يستمدّها الفقيه من عقله . والعمل والعبادة اللذان توجبهما معرفة الأحكام الشرعية هما وقوف عند حدود الظاهر، أما العمل والعبادة اللذان يوجبهما التصوف فهما لا يقفان عند غاية ولا عند حد" (د . محمد عبد المنعم خفاجى/ الأدب فى التراث الصوفى/ مكتبة غريب/ ١٩٨٠م/ ٩) . فهل التصوف هو أن يكون الإنسان لابسا زى الصوفية ومساكنا لهم وفقيرا مثلهم كما يفهم من كلام الغزالي، ثم لا شىء آخر؟ ما أسهل إذن أن يكون كل من هب ودب صوفيا ما دام هذا هو التصوف !

رابعة العدوية

فى الجزء الثانى من كتاب د . يوسف القرضاوى: "من هدى الإسلام- فتاوى معاصرة" سؤال عن رابعة العدوية: هل هى شخصية حقيقية أم هل هى من اختراع الصوفية؟ وهذا هو السؤال: "سمعت أحد الخطباء المعروفين يحمل على السيدة رابعة العدوية الزاهدة الصالحة المشهورة ويقول إنها أسطورة اخترعتها الصوفية لينسبوا إليها ما لا يُقْبَل ولا يُعْقَل من الأقوال والأشعار مثل قولها فى مناجاة الله تعالى:

فليتك تحلو، والحياة مريرة وليت الذى بينى وبينك عامرٌ	وليتك ترضى، والأناام غضابٌ وبينى وبين العالمين خرابٌ
---	---

وقولها:

كلهم يعبدوك من خوف نار أو لأن يدخلوا الجنان فيحظوا ليس لى فى الجنان والنار حظ *	ويروون النجاة حظا جزيلا بنعيم ويشربوا سلسيلا أنا لا أبتغى مجبى بديلا *
فأما الذى هو حب الهوى وأما الذى أنت أهل له وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى *	فشغلى بذكرك عما سواك فكشفتك لى الحجب حتى أراك ولكن لك الحمد فى ذا وذاك *

وأطال الخطيب فى إنكار هذه الأشعار وما تضمنته من كفر وضلال حسب قوله. فهل ما ذكر هذا الخطيب صحيحٌ ومُسَلَّمٌ، ولا وجود لهذه المرأة الصالحة؟ وهل هذه الأشعار تتضمن ضلالاً وكفراً حقاً؟ نرجو بيان رأيكم الذى عرفنا فيه الاعتدال، مبينا الأدلة من القرآن والسنة".

فأجاب الدكتور بكلام كثير تناول فيه أشياء متعددة سوف نكتفى منها بما يهمنى هنا مع بعض التصرف، وهو أن الخطيب المذكور، إن صح ما ذكره السائل عنه، أخطأ خطأين كبيرين: أنه اتخذ مجرد الجحود والإنكار سلاحاً فى نفى الوقائع التاريخية، وهذا أمر مرفوض فى منطق العلم، وإلا لقال من شاء ما شاء. ولكن يُقْبَلُ منه ومن مثله فى هذا المقام أن يقول إنه رجع إلى كتب التاريخ وكتب التراجم والطبقات التى عُنيَتْ بالأعلام عامة، وبالزُّهاد والعُباد خاصة، فلم يجد ذكراً لهذه العابدة الصالحة التى اخترعوها وسَمَّوها:

رابعة العدوية، بل يوجد من ثقات المؤرخين من أنكر وجودها وعاب على الصوفية ذكر أخبارها فى كتبهم. لكن الخطيب لم يقل هذا، ولا يستطيع أن يقول لأن الحقائق العلمية تكذبه، والوقائع التاريخية تصدمه. فكتب التاريخ والتراجم تثبت وجود رابعة العدوية وترجم لها وتذكر بعض أقوالها وأعمالها وأشعارها، فضلاً عن كتب الصوفية أنفسهم: ترجم لها أبو نعيم فى "حلية الأولياء"، وابن الجوزى فى "صفة الصفوة"، وابن خلكان فى "وفيات الأعيان"، والذهبي فى "سير أعلام النبلاء"، وابن كثير فى "البداية والنهاية"،

وابن العماد فى "شذرات الذهب"، وصاحبة "الدُّرَّ المنشور فى طبقات ربّات الحدور"، والزركلى فى "الأعلام". كما ذكرها القشيرى فى "الرسالة"، وأبو طالب المكى فى "قوت القلوب"، والغزالى فى "الإحياء"، والسهروردى فى "عوارف المعارف"، والشعرانى فى "طبقاته"، وغيرهم. و ذكر ابن الجوزى فى "صفة الصفوة" أنه أفرد لها كتابا جمع فيه كلامها وأخبارها.

والخطأ الثانى أن الخطيب عاجل الموضوع الذى يريد معالجة تعتمد على الإثارة والتهيج لا على التنوير والتحقيق. والإثارة قد تعجب بعض سامعيه المعجبين به والذين تستهويهم الجرأة فى النقد أو النقض والهجوم والخروج على المسلمات عند الناس، ولكنها لا تعجب خاصة المثقفين والمستثمرين ممن يزنون الأمور بعقولهم ولا يأخذون كل ما يقال قضية مسلمة. وقد كان حسب الخطيب هنا طريقين لا يملك ذو علم أو فكر أن ينكرهما أو أحدهما عليه: الطريق الأول التحقيق فيما يُنسب إلى رابعة العدوية أو غيرها من أقوال ومواقف، فليس كل ما نسب إليها صحيحا موثقا، بل قد يكون مقطوعا بنفيه عنها. من ذلك أنهم نسبوا إليها هذه الأبيات المشهورة تناجى بها ربها سبحانه:

فليتك تحلو، والحياة مريّة	وليتك ترضى، والأنام غضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ	وبينى وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الودُ فالكل هينُ	وكل الذى فوق التراب ترابُ

و الأبيات ليست لرابعة بل البيتان الأول و الثانى من شعر أبى فراس
الحمدانى فى خطاب ابن عمه الأمير المشهور سيف الدولة، وهما مذكوران
فى ديوانه من قصيدة مطلعها:

أما لجميل عندك ثوابٌ	ولا لمسى عندك من متابٌ؟
لقد ضلّ من تحوى هواه خريدةٌ	وقد ذلّ من تقضى عليه كعابٌ

وأبو فراس كان فى القرن الرابع الهجرى، ورابعة فى القرن الثانى. أما
البيت الأخير فهو من قصيدة المتنبى فى مدح كافور، وفيه "المال" مكان
"الكل". وكل ما فى الأمر أن الصالحين وجدوا أن هذا الشعر لا يجوز أن
يخاطب به إلا الله جل جلاله فنسبوا الخطاب فيه لمن هو أهله. ولا أدري من
نسب الشعر إلى رابعة، خاصة ولم أقرأ هذا فى كتاب معتبر، وإن كان
مشهورا على الألسنة، وليس كل مشهور على الألسنة حجة. وكذلك
ما ينسب إليها من الشعر الذى تقول فى آخره:

ليس لى فى الجنان والنار حظٌ	أنا لا أبتغى مجبى بديلا
-----------------------------	-------------------------

لا أدري مدى صحة نسبه إليها". ثم مضى الدكتور القرضاوى فأورد بعض
ما ينسب إليها من أقوال وأشعار ومواقف ممحصا له ليرى أهو حقيقى تاريخى
أم لا، ومدليا برأى الإسلام فيما يتصور صدوره عنها. وما يهمنى من هذا كله
هو أن هناك من يشكك فى وجود هذه العابدة الزاهدة بناء على ما ينسب
إليها من شعر وتصرفات لا يقتنع بها عقله.

والواقع أن هناك أشياء كثيرة تنسب إلى رابعة لا يمكن أن تكون صحيحة، وبخاصة أن أقرب من ترجموا لها، وهو الجاحظ الذي عاش في القرن التالي لقرن وفاتها، لم يذكر عنها إلا أنها كانت من النساء الناسكات الزاهدات من أهل البيان، وذلك في "البيان والتبيين" و"الحيوان" و"الحاسن والأضداد"، ثم أورد عنها في الكتاب الأول الحكايتين التاليتين: "قيل لرابعة القيسية: لو كلمت رجال عشيرتك فاشترؤا لك خادما تكفيك مهنة بيتك؟ قالت: والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأله من لا يملكها؟"، "وقيل لرابعة القيسية: هل عملت عملا قط ترين أنه يُقبل منك؟ قالت: إن كان شيء فخوفي من أن يُرد عليّ"، وهذا كل ما هنالك، وهو ما يدفع إلى التساؤل: إذا كان الجاحظ المستقصى، وهو أقرب من كتبوا عنها إلى عصرها، لم يزد في الكتابة عنها على هذه السطور القلائل، فضلا عن أن أحدا آخر من كتاب عصره أو من العصر الذي يليه لم يكتب شيئا في هذا الموضوع، فمن أين أتى من جاؤوا بعده بهذا الذي يُعزى إليها من أشعار وأثر ومواقف وحكايات؟ ومن نقله إليهم يا ترى؟ يمكن أن يقال إن بعض هذا المنسوب إليها قد يكون صحيحا، إذ لعله كان موجودا في كتب مبكرة ضاعت فلم تصل إلينا أو لعله استمر يُنقل شفويا حتى سجله بعض من أتى بعد الجاحظ. ولا أريد أن أجادل في هذا رغم غرابته، إذ من المستبعد جدا أن تكون رابعة بهذه الأهمية التي تُظهرها بها تلك الكتابات المتأخرة ثم

لا يهتم بها أحد من القرنين التاليين لها اهتماماً يُذكر، بل أنا الذى طرحته رغبة فى حل تلك المشكلة، لكننى فى ذات الوقت لا أستطيع أن أقبل ما يمتلى من تلك الأخبار بالمبالغة التى لا يقبلها العقل أو التى تتعارض مع ما نعرفه من الطبيعة البشرية، مع أخذنا فى الاعتبار أن هناك دائماً استثناءات من الطابع الشائع لهذه الطبيعة، إلا أن هناك دائماً سقفا لا يمكن أن ترتفع فوقه تلك الطبيعة. وأرجو أن يتنبه القارئ إلى أن الاختلاف فى سنة وفاة رابعة يبلغ خمسين عاماً، إذ يقول بعض إنها ماتت سنة ١٣٥هـ، وبعض آخر سنة ١٨٥هـ. فإذا كان الشك فى تاريخ وفاتها يبلغ هذا المدى، فما بالنا بأخبارها وأقوالها وأشعارها، التى لم تسجل إلا بعد تلك الوفاة بزمنٍ جدٍ طويل؟

وقد وجدتُ د. عبد الرحمن بدوى لا يطمئن إلى شىء يتصل برابعة العدوية على ما سوف يأتى بيانه لاحقاً فى هذا الفصل. كما رأيت كاتب مادة "رابعة العدوية" فى "دائرة المعارف الإسلامية" يبدى تشككاً كبيراً فى أخبار تلك العابدة، بل يكاد يشك فى كل شىء يتعلق بتلك الأخبار. وهذه عبارته فى أصلها الإنجليزى تشهد على ذلك: "One cannot go so far as to throw into doubt her historical existence, but the traditions about her life and teachings include a very large proportion of legend which today can hardly be distinguished in mind, one may nevertheless be from a portrait of the saint as it permitted to present

was conceived by her coreligionists over the
 ."course of the centuries

والآن إلى بعض ما كتبه المؤلفون فى ترجمة رابعة العدوية حتى نعرف
 ماذا قيل عنها، وإلى أى مدى يمكن الاطمئنان إليه: ففى "روضة العقلاء
 ونزهة الفضلاء" لأبى حاتم السجستاني (ت ٣٥٤هـ): "أبنا علي بن سعيد
 حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا سهل بن عاصم حدثنا نافع بن خالد قال:
 دخلنا على رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق، فخضنا فيه وهي ساكنة.
 فلما فرغنا قالت رابعة: خيبة لمن يدعي حبه ثم يتهمه فى رزقه". وفى
 "التعرف لمذهب أهل التصوف" للكلاباذي (ت ٣٨٠هـ): "دخل جماعة على
 رابعة يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما عرفت لعلتى
 سببا. عُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ، فَمَلَتْ بِقَلْبِي إِلَيْهَا، فَأَحْسَبُ أَنَّ مَوْلَايَ غَارَ عَلَى
 فَعَاتِبَنِي. فَلهُ الْعُتْبَى". وفى "أسرار التوحيد" للمنور (ت ٦٠٠هـ): "قال أبو
 سعيد الخير إنه سمع من أبى علي الفقيه أن رابعة سئلت كيف بلغت هذه
 المرتبة فى الحياة الروحية. فأجابت: بقولى دائما: اللهم إني أعوذ بك عن كل
 ما يشغلنى عنك، ومن كل حائل يحول بينى وبينك".

وفى "الحلية" لأبى نعيم الأصفهاني: "قال أبو عبد الله بن عمرو، قال:
 نظرت رابعة إلى رياح (ت ١٩٥هـ)، وهو يقبل صبيبا من أهله ويضمه إليه،
 فقالت: أحبه؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعا
 لغيره، تبارك اسمه. قال: فسقط رياح مغشيا عليه، ثم أفاق وهو يمسخ العرق

من عند وجهه وهو يقول: رحمة من الله تعالى ذكره ألقاها فى قلوب العباد للأطفال". وعن "عين القضاة" للهمداني أنه "خطبها عبد الواحد بن زيد مع علو شأنه، فهجرتة أياما حتى شفع إليها إخوانه. فلما دخل عليها قالت له: يا شهوانى، اطلب شهوانية مثلك!". وعن "الشذرات" لابن العماد أنها كانت تقول لربها: "وعزتك ما عبدتك رغبة فى جنتك، بل لمحبتك. وليس هذا ما قطعت عمرى فى السلوك إليه".

وفى "إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين" للزبيدي: "قال سفيان الثورى رحمه الله تعالى لرابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى، وكانت إحدى المحبين، ماتت سنة ١٣٥، وكان الثورى يقعد بين يديها ويقول: علمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة. وكانت تقول له: نعم الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا! وقد كان الثورى زاهدا عالما، إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا. وقال لها الثورى يوما: لكل عقد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، وما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته، فأكون كأجير السوء: إن خاف عمل، أو إذا أُعطِيَ عمل، بل عبدته حبا له وشوقا إليه. وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت: إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسأله من لا يملكها؟ فكان هذا جوابا لأنه قال: سألني حاجتك. وخطبها عبد الواحد بن زيد، فحجبتة أياما حتى سئلت أن يدخل عليها، فقالت له: يا

شهواني، اطلب شهوانية مثلك! أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة؟ وخطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة ألف، وقال: لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أحملها إليك. فكتبت إليه: ما يسرني أنك لى عبد وأن كل مالك لى وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين. وقد قالت فى الحجة أبياتا (نظما) تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم، منهم سفيان الثوري وجعفر بن سليمان الضبعي وعبد الواحد بن زيد وحماد بن زيد، وهذه هى:

أحبك حبين: حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفتك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقد تكلم صاحب "القوت" على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار يعرفه من رزقه، ويُنكره من حُرْمه. والمصنف رحمه الله أشار إلى زُبْدَة كلامه. فلنورد كلامه أولاً ثم كلام صاحب "القوت". قال المصنف: ولعلها أرادت بحب الهوى: حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبجبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله الذي انكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواهما. وأما صاحب "القوت" فقال: فأما قولها: "حب الهوى" وقولها: "حب أنت أهل له" وتفرقتها بين الحبين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره من لم يشهده، وفي تسميته ونعت وصفه إنكار

من ذوي العقول ممن لا ذوق له ولا قدم فيه، ولكنا نحمل ذلك وندل عليه من عرفه. يعني "حب الهوى": إني رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين، لا عن خبر وسمعت تصديق من طريق النعم والإحسان، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك عليّ، ولكن محبتي من طريق العيان، فقرّبتُ منك وهربت إليك واشتغلت بك وانقطعت عمن سواك. وقد كانت لي قبل ذلك أهواء متفرقة، فلما رأيتك اجتمعت كلّها فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيته ما سواك. ثم إني مع ذلك لا أستحق على هذا الحب، ولا أسأهل أن أنظر إليك في الآخرة على الكشف والعيان في محل الرضوان، لأن حبي لك لا يوجب عليك جزاء عليه، بل يوجب عليّ كل شيء لك مني مما لا أطيقه ولا أقوم بحقق فيه أبداً، إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير، ووجب عليّ الحياء من قلة الوفاء، فتفضلت عليّ بفضل كرمك، وما أنت له أهل من تفضلك، فأريتني وجهك عندك آخر كما أريتني اليوم عندي أولاً. فلك الحمد على ما تفضلت به في ذا عندي في الدنيا، ولك الحمد على ما تفضلت به في ذاك عندك في الآخرة، ولا حمد لي في ذا ههنا ولا حمد لي في ذاك هناك، إذ كنت وصلت إليهما بك. فأنت الحمود فيهما لأنك وصلتني بهما. فهذا الذي فسّرناه هو وجد الحبين المحققين. وقد كانت تذكر الأنس في وجدها، وترتفع إلى وصف معني من الخلّة في قولها السائر:

إني جعلتك في الفؤاد محدّثي	وأبجتُ جسمي من أراد جلوسي
----------------------------	---------------------------

فالجسم مني للجليس مؤانس	وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
-------------------------	----------------------------

ومن قولها النادر في مقام الخلة:

وتخللت مسلك الروح مني	وبه سمي الخليل: خليلا
فإذا ما نطقت كنت حديثي	وإذا ما سكت كنت الغليلا

وقد أهل ذلك لها كل ما نقله عنها العلماء ووصفوها به، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يصلح من معنى كلامها لأننا ظننا بقولها ذلك أن كان لها في الحبة قدم. ولا يسعنا أن نشرح في كتاب كشف حقيقة ما أجملناه ولا أن نفصل وصف ما ذكرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضي الجزاء عليها من محبته ولا يوجب على حبيبه شيئاً لأجل محبته فهو مخدوع بالحبة ومحجوب بالنظر إليها. وإنما ذاك مقام الرجاء، الذي ضده الخوف، وليس من المحبة في شيء. ولا تصح الحبة إلا بخوف المقت في الحبة. وقال بعض العارفين: ما عرفه من ظن أنه عرفه، ولا أحبه من توهم أنه أحبه...".

وفي "شرح الزبيدي": "وقالت أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، قدس سرها، المتوفاة سنة ١٣٥، يوما: من يدلنا على حبيبنا؟ فقالت خامه لها: حبيبنا معنا، ولكن الدنيا قطعنا عنه. اعلم أن رابعة، قدس سرها، كانت رأسا في المعرفة والحبة كما هو مشهور من حالها، ولا يخفى عليها مقام المعية. وإنما قالت ما قالت وهي في مقام الاستغراق الذي

هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق على المشاهدة. والمحـب في مقام القُرب قد يتطلـب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال، فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم، فتمتنع عليه القواطع. فما أدق نظرها رحمها الله! . . . وقيل لـرابعة قدّس سرها: كيف حُبُّكَ للرسول صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: والله إني لأحبه حبا شديدا، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين. وحُكِيَ عن أبي سعيد الخراز، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: يا رسول الله، اعذرني، فإن محبة الله شغلّني عن محبتك. فقال: يا مبارك، من أحب الله فقد أحبني".

وفى "الرسالة القشيرية": "سألت رابعة: متى يكون العبد راضيا؟ فقالت: إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة. . . وقال رجل لـرابعة: إني قد أكثر من الذنوب والمعاصي، فلو ثبت هل يتوب عليّ؟ فقالت: لا، بل لو تاب عليك لتبت". وفى "طبقات الأولياء" لعبد الرؤوف المناوى "أن لصا دخل حجرتها وهي نائمة، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده، فوضعها فوجده، فحملها فحفيّ عليه. فأعاد ذلك مرارا، فهتف به هاتف: دع الثياب، فإننا نحفظها ولا ندعها لك، وإن كانت نائمة. قال البوني: وهذا تحقيق التمكن بقوله تعالى: 'له مُعَقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه'. . . وخاطت بعض قميصها في ضوء مشعلة سلطانية ففقدت

قلبها زمانا حتى تذكرت، فمزقت القميص، فعاد قلبها . وسُئِلَتْ: متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة . وكانت شديدة الخوف جدا، فإذا سمعتُ ذكر النار أُغْمِيَ عليها . وكانت تقول: لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا . قيل: كيف ؟ قالت: لأنها تفنى . قالوا: مكثتُ أربعين سنة لا ترفع رأسها حياءً من الله . وكانت تقول: ما سمعت الأذان إلا ذكرتُ منادي يوم القيامة، وما رأيت الثلج إلا ذكرتُ تطاير الصحف، وما رأيت الجراد إلا ذكرتُ الحشر .

وفى "مصارع العشاق" للسراج القارى (من أهل القرن الخامس الهجرى) نقراً ما يلى: "أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوزي بقراءتي عليه قال: أخبرنا محمد بن عبد الله القطيعي قال: حدثنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشي قال: حدثنا محمد هو ابن الحسين قال: حدثني عصام بن عثمان الحلبي قال: حدثني مسمع بن عاصم قال: قالت لي رابعة العدوية: اعتللتُ علةً قطعتني عن التهجد وقيام الليل، فمكثتُ أياماً أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار لما يُذكر فيه أنه يعدل قيام الليل . قالت: ثم رزقني الله عز وجل العافية، فاعتادتني فترة في عقب العلة، وكنت قد سكنتُ إلى قراءة جزئي بالنهار، فانقطع عني قيام الليل . قالت: فبينما أنا ذات ليلة راقدة أُريتُ في منامي كأنني رُفِعْتُ إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن، فبينما أنا أجول فيها أتعجب من

حسنها إذا أنا بطائر أخضر، وجارية تطارده كأنها تريد أخذه. قالت: فشغلني حسنها عن حسنه، فقلت: ما تريدن منه؟ دعيه، فوالله ما رأيت طائرا قط أحسن منه. قالت: بلى. ثم أخذت بيدي فأدارت بي في تلك الروضة حتى انتهت بي إلى باب قصر فيها، فاستقحت، ففتح لها، ثم قالت: افتحوا لي بيت المقة. قالت: ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي، وقالت لي: ادخلي. فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر تالوا وحسنا ما أعرف له في الدنيا شبيها أشبه به. فبينما نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب يُنفذ منه إلى بستان، فأهوت نحوه وأنا معها، فتلقنا فيه وُصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم الحماير، فقالت لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلانا قتل في البحر شهيدا. قالت: أفلا تجمرون هذه المرأة؟ قالوا: قد كان لها في ذلك حظ فتركه. قالت: فأرسلت يدها من يدي، ثم أقبلت علي فقالت:

صَلَاتُكَ نَوْراً، وَالْعِبَادُ رُقُودٌ	وَنُؤْمُكَ ضِدٌّ لِلصَّلَاةِ عَيْنِدُ
وَعُمْرُكَ غَنَمٌ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلَةٌ	يَسِيرُ وَيَفْنَى دَائِمًا وَيَبِيدُ

ثم غابت من بين عيني، واستيقظت حين تبدى الفجر، فوالله ما ذكرتُها فتوهمتها إلا طاش عقلي، وأنكرت نفسي. قال: ثم سقطت رابعة مغشياً عليها". ويقول الزمخشري (من أهل القرنين: ٥ - ٦هـ) في "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار": "اجتمعت عند رابعة عدّة من الفقهاء والزهاد، فذموا

الدنيا، وهي ساكنة. فلما فرغوا قالت لهم: من أحب شيئاً أكثر من ذكره: إما بمحمد وإما بدم. فإن كانت الدنيا في قلوبكم لاشيء فلم تذكرن لاشيء؟".

وفى ترجمة رابعة العدوية فى كتاب "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم" لابن الجوزى (٥٠٨ - ٥٦٧هـ): "أخبرنا أبو القاسم الحريري، قال: أنبأنا أبو طالب العشاري، قال: أخبرنا أبو بكر البرقاني، قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد المزكي، قال: أخبرنا محمد بن إسحاق بن إسحاق السراج، قال: حدثنا حاتم بن الليث الجوهري، قال: حدثنا عبد الله بن عيسى، قال: دخلت على رابعة العدوية بيتها، فرأيت على وجهها النور، وكانت كثيرة البكاء، فقرا رجل عندها آية ذكر فيها النار، فصاحت ثم سقطت. ودخلت عليها وهي جالسة على قطعة بوري خلق، فتكلم رجل عندها بشيء، فجعلت أسمع وقع دموعها على البوري مثل الوكف، ثم اضطربت وصاحت، فقمنا وخرجنا. قال محمد بن عمر: دخلت على رابعة، وكانت عجوزا كبيرة بنت ثمانين سنة، كأنها الشن، تكاد تسقط، ورأيت في بيتها كراخه بوارى، ومشجب قصب فارسي طوله من الأرض قدر ذراعين عليه أغانها، وستر البيت جلة، وربما كان بورياً، وحُب وكوز ولبد هو فراشها، وهو مصلاها. وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة، وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة. وقال لها رجل: ادعي لي. فالتصقت بالحائط وقالت: من أنا يرحمك

الله؟ أطلع ربك وادعه، فإنه يجيب دعوة المضطر. قال مؤلف الكتاب: كانت رابعة محققة فطنة. ومن كلامها الدال على قوة فهمها قولها: أستغفر الله من قلة صدقي في قولي: 'أستغفر الله'. وكان سفيان الثوري يقول: 'مُرُوا بنا إلى المؤدبة التي لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتُها'. وقال يوما بين يديها: واحزنناه! فقالت: لا تكذب. قل: واقلة حزنناه! لو كنت محزوناً ما هناك العيش. وقيل لها: هل عملت عملاً ترين أنه يُقبل منك؟ فقالت: إن كان فمخافتي أن يُردَّ عليّ".

وفى "وفيات الأعيان" لابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) أنها "أم الخير رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة. كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة. وذكر أبو القاسم القشيري في "الرسالة" أنها كانت تقول في مناجاتها: إلهي، أتحرق بالنار قلباً يحبك؟ فهتف بها مرة هاتف: ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا ظنَّ السوء. وقال يوماً عندها سفيان الثوري: واحزنناه! فقالت: لا تكذب. بل قل: واقلة حزنناه! لو كنت محزوناً لم يتهياً لك أن تتنفس. وقال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها في المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور. وكانت تقول: ما ظهر من أعمالي فلا أعدّه شيئاً. ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتُمون سيئاتكم. وقالت لأبيها: يا أبة، لست أجعلك في حلٍّ من حرامٍ تطعمنيه. فقال لها: رأيت إن لم أجد إلا

حراماً؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار. وكانت إذا جَنَّ عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادَتْ: إلهي، هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كل حبيب مجيبه. وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار. ولقي سفيان الثوري رابعة، وكانت زرية الحال، فقال لها: يا أم عمرو، أرى حالاً رثّة. فلو أتيت جارك فلانا لغير بعض ما أرى. فقالت له: يا سفيان، وما ترى من سوء حالي؟ ألتست على الإسلام؟ فهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأنس الذي لا وحشة معه. والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسأله من لا يملكها؟ فقال سفيان: ما سمعت مثل هذا الكلام. وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة. فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل. وكان أبو سليمان الهاشمي له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم في امرأة يتزوجها، فأجمعوا على رابعة العدوية، فكتب إليها: أما بعد، فإن مُلْكِي من غلة الدنيا في كل يوم ثمانون ألف درهم. وليس يمضي إلا قليل حتى أتمها مائة ألف إن شاء الله. وأنا أخطبك نفسك، وقد بذلت لك من الصّدّاق مائة ألف، وأنا مُصَيِّرُ إِيْلِكَ مِنْ بَعْدُ أَمْثَالَهَا، فأجيبيني. فكتبت إليه: أما بعد، فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن. فإذا أتاك كتابي فهَيِّئْ زادك،

وقَدَّم لمعادك، وكن وصيَّ نفسك، ولا تجعل وصيتك إلى غيرك، وصُم دهرك، واجعل الموت فطرك، فما يسرنِي أن الله خَوَّلني أضعاف ما خَوَّلك فيشغلني بك عنه طرفة عين. والسلام. وقالت امرأة لرابعة: إني أحبك في الله. فقالت لها: أطيعي من أحببتي له. وكانت رابعة تقول: اللهم قد وهبتُ لك مَنْ ظلمني، فاستَوْهَبني مَنْ ظلمته. قال رجل لرابعة: إني أحبك في الله. قالت: فلا تعص الذي أحببتي له.

وأُجِيتُ جسمي من أراد جلوسي	إني جعلتك في الفؤاد محدثي
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي	فالجسم مني للجليس مؤانس

وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة. ذكره ابن الجوزي في "شذور العقود". وقال غيره: سنة خمس وثمانين ومائة، رحمهما الله تعالى. وقبرها يزار. وفي كتاب "صفة الصفوة" في ترجمة رابعة المذكورة بإسناد له متصل إلى عبدة بنت أبي شوال قال ابن الجوزي: وكانت من خيار إماء الله تعالى، وكانت تخدم رابعة، قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة: يا نفس، كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور. وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت. ولما حضرتها الوفاة دعيتي وقالت: يا عبدة، لا تُؤذني بموتي أحدا، وكفني في جُبي هذه. وهي جُبة من شعر كانت تقوم

فيها إذا هدأت العيون. قالت: فكفّناها في تلك الجبة، وفي خمار صوف كانت تلبسه، ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلة إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه. فقلت: يا رابعة، ما فعلت بالجبة التي كفّناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نزع عني، وأبدلت به ما تريته علي، فطويت أكفاني وختم عليها، ورُفعت في عليين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا. فقالت: وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه؟ فقلت لها: فما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات! سبقتنا والله إلى الدرجات العلا. فقلت: وبم، وقد كنت عند الناس أكبر منها؟ قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست. فقلت لها: فما فعل أبو مالك؟ أعني ضيغما. قالت: يزور الله عز وجل متى شاء. قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: بخ بخ! أعطني والله فوق ما كان يؤمل. قلت: فمُرّني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل. قالت: عليك بكثرة ذكره. يوشك أن تعبّطي بذلك في قبرك. رحمهما الله تعالى.

ويقول ابن العماد الأقفهسي (٦٨٠ - ٨٦٧ هـ): "قالت رابعة العدوية لصالح المري، وكان يقول كثيراً: مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ باب يوشك أن يفتح له"، فقالت رابعة: إلى متى تقول؟ من أغلق هذا حتى يستفتح؟ فقال صالح: شيخ جهل، وامرأة علمت. وفي "المستطرف من كل فن مستظرف" للأبشيهي:

"كانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريد بها ثواباً، ولكن لیسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمّتي هذا عملها في اليوم والليلة". ولصالح الدين الصفدى (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) في ترجمة رابعة العدوية من كتابه: "الوافى بالوفيات": "رابعة بنت اسماعيل أم عمرو العدوية، وقيل: أم الخير، ولاؤها للعكيين. وقد أورد ابن الجوزي أخبارها في جزء وقال: وفي الشاميات رابعة العابدة. وكانت عبدة بنت أبي شوال معاصرة لها، وربما تداخلت أخبارهما. ونسبها بعضهم إلى الحلول لإنشادها:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي فالجسم مني للجلس مؤانس	وأجئتُ جسمي من أراد جلوسي وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
---	---

وهو جهل. قال الشيخ شمس الدين: ما أحسب أن أحدا نسبها إلى ذلك إلا حلوليّ مباحيُّ يُنْفَق بها زندقته".

وفي كتاب "شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام" لبشير يموت نقراً أنها "هي أم الخير، رابعة بنت إسماعيل العدوية. امرأة صالحة من أهل البصرة اشتهرت بالعبادة والنسك. توفيت بالقدس ١٨٥ هجرية. من شعرها قولها في الذات الإلهية:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي فالجسم مني للجلس مؤانس	وأجئتُ جسمي من أراد جلوسي وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي
---	---

* * * وما لسواه في قلبي نصيبُ ولكن عن فؤادي ما يغيبُ * * * اللزاد أبكي أم لطول مسافتي؟ فأين رجائي فيك؟ أين مخافتي؟ * * * وحُبُّا لأنك أهلٌ لذاكا فشغلي بذكرك عَمَّنْ سواكا فكشَّفك لي الحُجُب حتى أراكا ولكنْ لك الحمد في ذا وذاكا	* * * حبيبٌ ليس يُعَدُّ له حبيبُ حبيبٌ غاب عن بصري وشخصي * * * وزادي قليل ما أراه مُبَلَّغي أتحرقتني بالنار يا غاية المنى؟ * * * أحبُّكَ حين،: حُبَّ الهوى فأما الذي هو حب الهوى وأما الذي أنت أهلُّ له فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	* * * حبيبٌ ليس يُعَدُّ له حبيبُ حبيبٌ غاب عن بصري وشخصي * * * وزادي قليل ما أراه مُبَلَّغي أتحرقتني بالنار يا غاية المنى؟ * * * أحبُّكَ حين،: حُبَّ الهوى فأما الذي هو حب الهوى وأما الذي أنت أهلُّ له فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
--	--	--

وقالت حين خطبها الحسن البصري معذرة:

وحبيبي دائماً في حضرتي وهـواه في البرايا محنتي فهو محرابي . إليه قُبَلتي وا عنائي في الورى! وا شَقَّوتي! نشأتني منك، وأيضا نشوتي منك وصلاً، فهو أقصى مُنيّتي	راحتي، يا إخوتي، في خلوتي لم أجِد لي عن هـواه عوضاً حيثما كنت أشاهدُ حسنه إن أمتُ وجداً، وما ثمَّ رضى يا طبيب القلب يحيا دائماً قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجي	راحتي، يا إخوتي، في خلوتي لم أجِد لي عن هـواه عوضاً حيثما كنت أشاهدُ حسنه إن أمتُ وجداً، وما ثمَّ رضى يا طبيب القلب يحيا دائماً قد هجرتُ الخلق جمعاً أرتجي
---	---	---

وللدكتور عبد الرحمن بدوى كتاب عن رابعة قرر فيه أنها أدخلت فى التصوف الإسلامى مفهوم العشق الإلهى، ثم قارن بينها وبين القديسة تيريزا، قائلاً إن تصوفها متأثر بالتصوف النصرانى فى موضوع المحبة الإلهية (انظر كتابه: "شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية" / ط ٢ / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٦٢م / ١٠ وما بعدها). ومن بين ما قاله أيضاً أنها قد توغلت فى الإثم وأن هذا هو السبب فى عنفها بعد التوبة رداً على ما كانت عليه من عنف شهوانى (ص ١٧، ٢٣). كذلك يقف عند بعض أشعارها فى الحب مؤكداً أن الحب فى بعض تلك النصوص حسى لا روحى (ص ٢٣ - ٢٦). ثم يمضى فيفترض أن تكون قد مرت بتجربة عاطفية فاشلة هى السبب فى اتجاهها إلى الله بحبها بوصفه نوعاً من التعويض (ص ١٩، ٢٥). لكن لو كانت هناك مثل تلك التجربة العاطفية الفاشلة أكانت ترفض كل من تقدم لخطبتها معلنة على نحو حاسم أنها ليس لها أى أرب فى هذا المجال؟

وبالمثل يُبعد د. بدوى يبعد النجعة إذ نراه (ص ٢٦ - ٢٧) يتكلم عن الخطبة والزواج الروحى بين رابعة وبين الله، مقارناً ذلك بما عند القديسة تيريزا فى الديانة النصرانية. وهو يورد نصاً من كتاب "عقلاء الجانين" لأبى القاسم الحسنى بن محمد بن حبيب النيسابورى جاء فيه أن رابعة قد زارت حيونة إحدى صواحبها، فلما كان جوف الليل غلب النوم رابعة، فقامت حيونة وركبتها برجلها قائلة: قومى. قد جاء عرس المهتدين يا من زين

عرائس الليل بنور التهجد . ثم يعلق قائلا على هذا النص بأنه "نص على أكبر درجة من الخطورة لأنه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات منذ القرن الثاني الهجري . لكن ينبغي أن تنبه إلى الأمور التالية: الأول أننا لا ندري مدى صحة الخبر الذي رواه النيسابوري . بل إن د . بدوي نفسه يكاد يشك في كل شيء يتصل برابعة حتى إنه ليلحقها بالأساطير (ص ٦- ٧ من كتابه عنها) ، فلم التمسك إذن بهذا النص وأمثاله من النصوص التي اعتمد عليها في استخلاص نظرياته وفروضه عن التصوف الإسلامي في ذلك العصر؟ والثاني أن هذا النص، إن كان نصا حقيقيا ولم يكن مخترعا ككثير من النصوص التي تتعلق برابعة، يتحدث عن "المهتدين" لا عن "المهتديات" . وعلى هذا فإن الكلام فيه على أحسن تقدير ليس عن النساء وحدهن، بل عن الرجال والنساء جميعا . كما أن حيونة قد أشارت إلى دور رابعة في هذا العرس، ألا وهو تهجدها، الذي يشع على من حولها نورا كما أشارت . فأين التهجد من الخطبة والزواج؟ ثم أي خطبة وزواج من الله، وكل من هنالك من الرجال والنساء مُشْتَرِك في تلك المناسبة، التي لا يعدو التعبير عنها بـ "العرس" أن يكون تعبيراً مجازياً كما هو واضح لكل ذي عينين؟ أقول إن كل هؤلاء من رجال ونساء سيشتركون في ذلك الزواج؟ يا له من افتراض سخيف ! ثم هل الزواج يتم كل ليلة كما هو واضح في حديث حيونة؟ كذلك فإن الله عندنا في الإسلام لا يتجسد ولا ينزل إلى الدنيا في

صورة بشرية كما كانت تيريزا تعتقد، إذ الله لديها هو المسيح، أما رابعة فلا يمكن أن يخطر لها شيء من ذلك على بال، ومن ثم فالزواج منه لا يمكن أن يخطر على بال امرأة أو فتاة مسلمة أبداً. زد على ذلك أن حيونة لم تذكر رابعة بين العرائس. ثم إنها زادت فجعلت تلك العرائس عرائس الليل لا عرائس الله. من الجلى إذن أن د. بدوى قد دخل دراسته عن رابعة بأفكار مسبقة يريد أن يلفت بها الأنظار بأى طريق، متأثراً فيها بما فى الأديان الأخرى دون الانتباه إلى أن ثمة فروقا حاسمة وجازمة بين الإسلام وتلك الأديان. إنه يتصور أن رابعة كانت فيلسوفة وجودية! وهى، كما ترى يا قارئى الكريم، فكرة بائسة لا تلائم السياق أبداً بأى حال من الأحوال!

وبالنسبة إلى الأخبار التى تشير إلى أن رابعة لم يكن لها أرب فى الرجال، فهو أمر معروف ومُشَاهَد، إذ نرى المرأة من هؤلاء النساء لا تفكر فى الزواج مطلقاً، وإذا أخطأت وتزوجت فسرعان ما يتم طلاقها لأنها ليست مهيأة لهذا اللون من الحياة. والملاحظ على بعض هؤلاء النسوة أنهن يشبهن الرجال فى بعض صفاتهن كالخشونة والصرامة وعدم الاعتناء بأنوثتهن وما يتعلق بها من ملابس أو زينة. وإذا تدبَّنَّ أسرفن على أنفسهن ومن حولهن بألوان العبادة تصورا منهن أن الدنيا ليست إلا صلاة وصياماً. وكأن فريد الدين العطار قد تبناه إلى هذا المعنى حين ترجم لها ضمن الرجال فى كتابه:

"تذكرة الأولياء" قائلا إن المرأة التي تسلك الطريق إلى الله كما يفعل الرجال لا يمكن أن تسمى: امرأة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا يُعقل ما افترضه د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن رابعة العدوية من أنها قد قارفت الآثام فى شبابها قبل أن تستقيم فى طريق التصوف، فضلا عن أن تكون قد أوغلت فيها كما زعم دون أن يكون مستندا فى هذا الزعم إلى أى أساس حسب إقراره هو سوى مجرد الافتراض (انظر كتابه: "شهادة العشق الإلهى رابعة العدوية/ ١٧، ٢٣)، إذ أجمع كل من كتبوا عنها أنها كانت مشغولة بالله عن الدنيا، بغض النظر عن موافقتنا لهم فى كل ما كتبوه فى هذا الموضوع أو لا، فهذا شىء آخر. فالمهم أنه لم يقل أحد ممن كتبوا عنها بما قال به د. بدوى أو أشار إليه ولو من طرف خفى على أى نحو من الأنحاء. ويزيد ما ادعاه عبد الرحمن بدوى بعدا عن الحقيقة ما رُوى عنها من حكايات تؤكد أنها كانت ترفض كل من يتقدم إليها بغية الزواج منها كما رأينا، بغض النظر عن مدى صحتها. إنما أستشهد بها هنا لأنه لا يوجد ما يناقضها، مما يدل على اشتها رابعة بالعزوف عن جنس الرجال، وعلى زيف ما افترضه د. بدوى من جهة أخرى من ثم.

والعجيب أن كاتب مادة "رابعة العدوية" فى النسخة العربية من موسوعة "ويكيبيديا" يقول إن عبد الرحمن بدوى قد قند الصورة التى رسمها الفلم المصرى الشهير لرابعة، إذ أكد أنها كانت امرأة صالحة على عكس ما

جاء فى ذلك الفلم من أنها مارست الرذيلة وعَبَّت الخمرَ عبًّا قبل أن تتوب عن ذلك . وهذا كلام الموسوعة نصا: "اختلف الكثيرون فى تصوير حياة وشخصية العابدة رابعة العدوية، فقد صورتها السينما فى الفيلم السينمائى المصرى الذى قامت ببطولته الممثلة نبيلة عبيد والممثل فريد شوقي فى الجزء الأول من حياتها كفتاة لاهية تمرّغت فى حياة الغواية والخمر والشهوات قبل أن تتجه إلى طاعة الله وعبادته، فى حين يقول البعض إن هذه صورة غير صحيحة ومشوهة لرابعة فى بداية حياتها، فقد نشأت فى بيئة إسلامية صالحة، وحفظت القرآن الكريم وتدبّرت آياته، وقرأت الحديث وتدارسته، وحافظت على الصلاة وهى فى عمر الزهور، وعاشت طوال حياتها عذراء بتولاً برغم تقدم أفاضل الرجال لخطبتها لأنها انصرفت إلى الإيمان والتعبّد ورأت فيه بديلاً عن الحياة مع الزوج والولد. ويقتد الفيلسوف عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "شهيدة العشق الإلهي" أسباب اختلافه مع الصورة التى صورتها السينما لرابعة بدلالات كثيرة منها الوراثة والبيئة، بالإضافة إلى الاستعداد الشخصى . وكان جيران أبيها يطلقون عليه: العابدة. وما كان من الممكن، وهذه تنشئة رابعة، أن يفلت زمامها . كما أنها رفضت الزواج بشدة".

والملاحظ أن فى الحكايات التى تدور حول رابعة مبالغات كثيرة لا يمكن أن يقبلها العقل ولا الدين: من ذلك مثلاً قولهم إن رجلاً قرأ عندها آية

ذُكِرَتْ فيها النار، فصاحت ثم سقطت، وإن آخر تكلم عندها بشيء فجعلت دموعها تتساقط على الحصى بصوت مسموع كالطر. ترى هل يقبل هذا الكلام عاقل؟ لقد قرأنا سيرة الرسول وأحاديثه عليه السلام وسير الصحابة الكرام فلم نر منهم مثل هذا. فهل رابعة أكثر منهم خوفا من الله؟ بل هل يمكن أن يقع هذا من إنسان أيا كان؟ إن أقصى ما قاله النبي في البكاء أن من السبعة الذي يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ولم يقل: رجلا كلما ذكر الله أمامه هطلت دموعه وسُمع لها صوت كصوت المطر. ذلك أنه لو صح هذا لأصيب هؤلاء البكاؤون بالجفاف حتما وهزلوا وماتوا.

ومن تلك المبالغات كذلك قولهم إنها كانت تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فتشب من مرقدتها وهي فزعة وتقول: يا نفس، كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور. وكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت. بالله كيف تستقيم حياة إنسان لا يكاد ينام ليله ولا نهاره؟ ثم هل هذا مما يقبله الله من عباده؟ ترى ما يفعل الله بتعذيبنا أنفسنا على هذا النحو؟ لقد طالبنا سبحانه أن نؤمن به ونشكره سبحانه على نعمه وكرمه، أما أن نذهب فنعذب أنفسنا كل هذا العذاب فهو أمر لم يشرعه الله ولم يأذن به ولا يقبله أصلا، بل هو مما يستحيل علينا فعله، إذ لا بد لكل منا أن يأخذ

كفائته من النوم، وإلا انهار وسقط ولم يستطع مواصلة الحياة ذاتها لا العبادة فحسب. ودعنا من السؤال عمن كان يقوم بأمرها وينفق عليها. إنه إذن لأعبد منها. وهذا طبعاً إن كانت تلك الأخبار صحيحة ولم تزيّف بعد مآتها، وهو ما أتصور أنه قد وقع، مما يُبعد عنها التبعة في هذا ويلقى بها على من زعموا هذه المزاعم التي لا أصل لها من الصحة.

كذلك لا أتصور صحة ما قيل من أن لصاً دخل حجرتها وهي نائمة، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده، فوضعها فوجده، فحملها فخفي عليه. فأعاد ذلك مراراً، فهتف به هاتف: "دع الثياب، فإننا نحفظها ولا ندعها لك، وإن كانت نائمة"، وهو ما علق عليه البوني بقوله: "وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى: 'لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ'"، وأنها خاطت بعض قميصها في ضوء مشعلة سلطانية ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت، فمزقت القميص، فعاد قلبها، وأنها سئلت: متى يكون العبد راضياً؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة.

ذلك أنها كانت تعيش في كوخ كما يقولون، ولم تكن تملك من متاع الدنيا شيئاً طبعاً لما يؤكدون. فكيف سولت للص نفسه أن يذهب إلى كوخ يسرله الفقر سرلةً فيسرق امرأة ليس لها شيء يُسرق؟ أما المعجزة العجيبة التي حدثت فهي بطبيعة الحال لا تدخل العقل ولا بالطبل البلدى. إنها حكاية خيالية جميلة، ويمكن أن تُدرّس بوصفها نصاً أدبياً ممتعاً. أما أن يقال

إنها حكاية حقيقية فدون ذلك خُرط القَتَاد كما كان العرب القدماء يقولون !
ثم ما معنى أن يُسَرَّ الإنسان بمصيبته كما يُسَرَّ بما يناله من نعمة ؟ إن الإنسان
ليس حجرا لا يحس ولا يميز . ولو صار أى إنسان بهذه المنزلة ما كان
إنسانا . فهذا كلام قد يعجب بعض الناس الذين يحبون أن يشنّفوا آذانهم بمثل
تلك الأقوال المدوية التى لا طائل وراءها ، لكنه لا يدخل عقولنا رغم حُبنا
لكل مؤمن يرضى بقضاء الله وقدره ، وهو أقصى ما يمكن أن يبلغه المؤمن من
الرضا بالقضاء والقدر . أما أن يُسَرَّ بالمصائب تقع على أم رأسه كما يُسَرَّ
بالنعم فهذا ما لا يمكن أن أتخيله مجرد تخيل . إن الأحجار والحديد
تأكلهما عوامل التعرية أكلا ، فما بالناس بالإنسان ؟

أما الكلام المنسوب إليها فى النص التالى من "شرح الزبيدي" : " قيل
لرابعة قُدس سرّها : كيف حُبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت :
والله إني لأحبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين " ،
وأنه قد حُكي عن أبي سعيد الخراز قوله : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم
فى المنام ، فقلت : يا رسول الله ، اعذرني ، فإن محبة الله شغلّني عن محبتك .
فقال : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحبني " ، فهو كلام يناقض بعضه بعضا ، إذ
كيف يكون الإنسان محبا لشخص حبا شديدا ، إلا أن حبه لطرف ثالث قد
شغله عنه ؟ ثم ألا يرى القارئ بين السطور هنا لونا مقيتا من الغرور ، إذ يريد
من يقول هذا أن يشير إلى أنه أكبر من أن ينشغل بحبه صلى الله عليه وسلم

لأن لديه حبا أهم منه، فهو من ثم ليس عنده من الوقت ولا من البال ما يوجهه إلى الرسول عليه السلام؟ ترى أهذا مما يليق قوله فى حقه عليه السلام؟

ولو صدقنا هذا الكلام العجيب فالسؤال هو: كيف ظهر لها النبى فى المنام، وهى غير مشغولة به لا تفكر فيه؟ إننا نعرف أن الأحلام عادةً هى انعكاس لما يشغلنا فى اليقظة. أما إن قلنا إنها لم تكن مشغولة به صلى الله عليه وسلم، بل هو الذى ساء أن تتجاهله فظهر لها فى المنام بغية تنبيهها إلى تقصيرها فى حقه فتكون طامة كبرى أن ينزعج الرسول من هذا الأمر، بينما هى لا تبالى به أدنى بالة. كذلك فإنها، فيما يحكون عنها، قد ذكرت مرة أنها تجتهد فى العبادة وقيام الليل وتفعل المستحيل حتى يمكن الرسول يوم القيامة أن يباهى بها بين الأمم الأخرى. أليس معنى هذا أنها تفكر فيه صلى الله عليه وسلم. نحن هنا بين أمرين: أن نظرتها لهذا الأمر غير محكمة، ولهذا نراها تتناقض مع نفسها من موقف إلى آخر، أو أن ذلك التناقض راجع إلى أن مثل تلك الروايات هى روايات مخترعة، فكان كل من أراد أن يقول شيئاً يعبر به عن فكره واعتقاده ألف حكاية ونسبها إلى رابعة فتكون هى المتحدث بلسانه دون أن يتنبه أحد إليه، فينجو من التبعة. ثم من يا ترى ذلك الذى لا يستطيع أن يفكر طوال الوقت إلا فى الله؟ ألا يجوع؟ ألا يعطش؟ ألا يحتاج إلى دخول الحمام؟ ألا يكتب ويقرأ مثلى مثلاً ويبيت يقلب الفكر والرأى

ويراجع ما يكتبه ويصححه ويدفع به إلى المطبعة وينتظر ظهوره على أحر من الجمر؟ ألا يفكر فى تدبير أمر بيته وحاجات أفراد أسرته ومرض من يمرض منهم مثلاً؟ ألا يفكر فى تجهيز ابنته وسترها وزفافها إلى زوجها معززة مكربة؟ ألا يمرض ويتألم ويقاسى الصداع والمغص والسرطان؟ ألا يستدين فيعانى الخوف من عدم السداد فى الميعاد؟ ألا يختلف مع جيرانه أو شركائه أو أقاربه مثلاً وتشور بنيه وبينهم المشاكل التى قد تصل إلى المحاكم؟ ألا يتعرض للسرقة والخداع ويضيع منه ماله، والحياة لا تمضى دون مال؟ أم إن المتصوفة ليسوا ينتمون إلينا ولا يعيشون فى دنيانا؟ أتراهم من جنس السوبرمان؟ حتى السوبرمان، يا أخى، يجوع ويعطش ويتألم ويقلق. كل ما هنالك أنه أعلى منا نحن البشر مرتبة، لكنه ليس مُعْفًى من كل ما يشغلنا ويقلقنا، وإلا ما كان مخلوقاً! وهذا إن كان هناك سوبرمان أصلاً، إلا أننى أمضى مع الافتراضات إلى آخر المدى. ومرة أخرى أنا لا أحمل رابعة مثل هذه الأقوال، بل أحملها من اخترعوها ونسبوها إليها. وقد يقول بعض الناس: وما الضرر من وراء هذه الحكايات التى تصفها أنت نفسك أحياناً بأنها جميلة وممتعة؟ وجوابى هو أنها جميلة وممتعة ما تنبّهنا إلى أنها لا أساس لها من الصحة رغم ذلك. أما أن يتصور متصور، كما يريد منا مخترعو تلك القصص، أنها حقيقية وأن من الناس من يستطيع صنع تلك العجائب بل الخوارق فإنها تصير حينئذ سبباً للإحباط والكدر، إذ يظن أن فى طاقة

البشر ما يُنسَب لرابعة وغيرها، ولكنه حين يتحقق أنه لا يستطيع ذلك ينقلب على نفسه لوما وتقريعا ويظل يحاول فيفشل فيزداد سخطا على نفسه ويتهم إيمانه وضميره، وتتحول حياته بهذه الطريقة إلى سلسلة من الخيبات والإحباطات، ولا يهنأ له جنب ولا طعم.

وهناك أقوال تُنسَب إلى رابعة توحى بـ "الغرور الروحي" إن صح هذا التعبير، فضلا عن ردودها الجافة المتقصصة لمن يسألها، وهو ما لا يليق صدوره ممن يوصف بالصفاء والتجرد. ومن هذا الكلام المنسوب إليها، وفيه من الغرور ما فيه، ما جاء في "المستطرف من كل فن مستظرف" للأبشيهي، إذ يقول: "كانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وتقول: والله ما أريدُ بها ثوابا، ولكن لیسرّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: انظروا إلى امرأة من أمّتي هذا عملها في اليوم والليلة". ومعنى هذا أنها قد فعلت ما فعلته لا من أجل نفسها بل من أجل الرسول، مما يوحي بأنها ليست محتاجة إلى صلاتها حاجة الرسول إلى تلك الصلاة. وفي هذا ما فيه من الغرور والكبر. ولا أقف عند قدرة شخص ما أن يصلي ألف ركعة في اليوم، وهو ما لم يفعله رسول الله ذاته عليه الصلاة والسلام، بل هو مما لا يحتمله الطول الزمني لليوم، وبخاصة أن أمثالها يطيلون الصلاة إطالة. وحتى لو استطاع اليوم أن يستوعب صلاة ألف ركعة فإن الشخص الذي يصليها لا يمكنه فعل أي شيء آخر في يومه وليله ولا حتى أن

ينام. فكيف تكون حياة مثل هذا الشخص؟ إلا أننى لا أتهمها بذلك ضرورةً، إذ من الجائر جدا، بل هو مما يغلب على ظنى، أن تكون تلك المقالة قد نسبت إليها زورا.

ومنها كذلك ما أورده الكلاباذى (ت ٣٨٠هـ) فى "التعرف لمذهب أهل التصوف" من أنه "دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما عرفت لعلنى سببا. عُرِضْتُ عَلَى الْجَنَّةِ، فَمَلْتُ بِقَلْبِي إِلَيْهَا، فَأَحْسَبُ أَنَّ مَوْلَايَ غَارَ عَلَى فَعَاتِبَنِي. فَلَهُ الْعُتْبَى". وفى "أسرار التوحيد" للمنور (ت ٦٠٠هـ): "قال أبو سعيد الخير إنه سمع من أبى على الفقيه أن رابعة سئلت كيف بلغت هذه المرتبة فى الحياة الروحية، فأجاب: بقولى دائما: اللهم إني أعوذ بك عن كل ما يشغلنى عنك، ومن كل حائل يحول بينى وبينك". وقال لها الثورى: لكل عقد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، وما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته، فأكون كأجير السوء: إن خاف عَمَلٌ، أو إذا أُعْطِيَ عَمَلٌ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه. وفى "الشذرات" لابن العماد أنها كانت تقول لربها: "وعزتك ما عبدتك رغبة فى جنتك، بل لحبتك. وليس هذا ما قطعت عمري فى السلوك إليه". ولا أظن القارئ إلا تنبه للتناقض الواضح بين قولها مرة إن قلبها قد مال إلى الجنة وما روى من أنها كانت تستعيز بالله من النار وتضعق إذا ما جاء ذكرها وتساءل الله أسيحرقها بالنار رغم حببها له، وبين قولها لربها

إنها لم تعبد حبا في جنته ولا خوفا من ناره، فضلا عما في هذا المعنى الأخير من تطاول مع الذات الإلهية لا يصح صدوره من مسلم، إذ معناه في أهون الأحوال أنه أكبر مما يقوله الله لعباده وأنه قد بلغ أفقا من السمو لا يصلح له فيه ذلك الأسلوب الذي يعامل به سائر المسلمين. فهل هذا مما يليق؟ أترى هذا قد فات الله سبحانه، فهي تنبهه إليه؟ إننا نحب الله ونتوق إلى مشاهدة جلاله في الجنة، لكن هل هذا يتناقض مع حبنا لنعيم الجنة وخوفنا من عذاب النار؟ وكيف فاتها أن مشاهدة جلال الله جزء من نعيم الجنة ذاته؟ على أن الأمر لا يقف ها هنا، بل ثم رواية تقول إن بعض الناس شاهدوها سائرة في الطريق، وفي إحدى يديها ماء، وفي الأخرى نار، فسألوها ماذا تريد أن تفعل بالماء والنار، فقالت إنها ذاهبة إلى السماء لتضع في الجنة ما معها من نار، وتضع في النار ما معها من ماء، كيلا يكون هناك جنة ولا نار، فيعبد الناس ربهم دون خوف أو طمع بل لوجهه الكريم لا أكثر. وفي هذه الحكاية غرور زائد من جانب واضعها، إذ لا أظن رابعة هي صاحبها، وتجاوز لقدره ونسيان منه أنه عبد لله لا ينبغي أن ينسى تلك العبودية لحظة من زمان، إذ من ذا العاقل الذي يفكر في تعديل كون الله سبحانه على هواه هو بما يفيد أنه لا يعجبه ما قضاه الله منذ الأزل بخصوص الجنة والنار، فأراد أن يقيم وضعاً جديداً يختلف عما أراده الله؟ وهذا كله إن كانت قد قالتها فعلا ولم يكن محمولا عليها حملا، وهو ما أرجحه، إذ إن هذه الفكرة لا

تناسب امرأة مثلها لا نعرف لها ثقافة عميقة متشابكة ولا كانت تتمتع بجرأة تمكنها من قول مثل هذه المقالة، التي تحتاج إلى وسط فكري معقد وشخصية متمردة لا تناسب أمثالها . ثم ما معنى أن الله سبحانه جل جلاله قد غار من ميل قلبها إلى الجنة؟ إن كان سبحانه وتعالى يغار من ميل الواحد منا إلى الفوز بالجنة، فلم يا ترى أطال وَصَفَهَا وَفَصَّلَهُ وَحَبَّبَنَا فِيهَا ودعانا إلى العمل لها؟ ثم هل يصح أن نقول إن الله قد غار من ذلك؟ الواقع أنه إذا كان هذا صحيحا، وهو بالتأكيد غير صحيح، فلن تنتهي غيرته أبدا، إذ ما من واحد من المؤمنين إلا ويميل قلبه إلى الجنة ونعيمها . ألا ترى أيها القارئ المدي المسيء الذي يصل بنا إليه الكلام المنسوب إلى رابعة رحمها الله؟

ومن أقوالها اللاذعة الحشنة، إن كانت قد قالت ذلك، ما نُسبَ إليها في "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء" لأبي حاتم السجستاني (ت ٣٥٤هـ)، إذ قال: "أبنا علي بن سعيد حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثنا سهل بن عاصم حدثنا نافع بن خالد قال: دخلنا على رابعة العدوية فذكرنا أسباب الرزق، فحضنا فيه وهي ساكتة . فلما فرغنا قالت رابعة: خيبة لمن يدعي حُبّه ثم يتهمة في رزقه" . وتعليقي على هذا الرد هو: أني يا ترى كانت تحصل رابعة على طعامها وشرابها وملبسها مهما يكن من قلته وتفاهته؟ أتراها كانت تعتمد على من يقوم لها بجاجاتها؟ فهو إذن صاحب الفضل في ذلك لا هي . أم ترى رزقها كان ينزل عليها من السماء يوما بيوم فهي لا تحتاج إلى أن

تفكر فيه؟ لكن السماء لا ينزل منها طعام ولا شراب، إذ كانت سنن الله في كونه، ولا تزال، تقتضى منا الجرى وراء الرزق وتحصيله بالتعب والجهد المتواصل كي نأكل ونشرب ونلبس ونسكن وتداوى وتعلم وتنزه.

وفى "الحلية" لأبى نعيم الأصفهاني: "قال أبو عبد الله بن عمرو، قال: نظرت رابعة إلى رياح (ت ١٩٥هـ) وهو يقبل صيباً من أهله ويضمه إليه، فقالت: أحبه؟ قال: نعم. قالت: ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً لغيره تبارك اسمه. قال: فسقط رياح مغشياً عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق من عند وجهه وهو يقول: رحمة من الله تعالى ذكره ألقاها فى قلوب العباد للأطفال". وقد قرأت مثل هذا الكلام الغريب أشد الغرابة عن الفضيل بن عياض وابنته، فقد "قيل إن الفضيل، كانت له ابنة صغيرة، فوجع كفها، فسألها يوماً وقال: يا بنية، ما حال كفك؟ فقالت: يا أبت، بخير والله. لئن كان الله تعالى ابتلى مني قليلاً، فلقد عافى مني كثيراً. ابتلى كفى، وعافى سائر بدنى، فله الحمد على ذلك. فقال: يا بنية، أريني كفك. فأرته فقبله، فقالت: يا أبت، أناشدك الله: هل تحبني؟ قال: اللهم نعم. فقالت: سواء لك من الله. والله ما ظننت أنك تحب مع الله سواه. فصاح الفضيل وقال: يا سيدي، صبية صغيرة تعاتبني في حيي لغيرك. وعزتك وجلالك لا أحببت معك سواك". وفى كتاب "الصوفية فى الإسلام" للمستشرق نيكلسون (ترجمة نور الدين شريعة/ مكتبة الخانجي / ١٣٧١هـ - ١٩٥١م / ١٠٦) أن

فُضِيلاً أَجْلَسَ ذات يوم ابناً له في الرابعة في حجره، فقبله، فقال له الطفل: أتحبني يا أبت؟ فقال له: نعم. فسأله الطفل: كم قلباً لك؟ فقال: واحد. فقال الطفل: تحب اثنين بقلب واحد؟ فأدرك الفضيل أن كلام الطفل نصيحة من الله. ثم جعل يجلد رأسه بالحائط غيرَةً منه لربه ويتبرأ من محبته للطفل، وأخلص قلبه لله. وقد نسب نيكلسون هذه الحكاية إلى مخطوط "طبقات الصوفية". ولا نجد أفضل في الرد على هذا السخف خيراً مما حدث به الرسول علي الصلاة والسلام. قال: "جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه"، وهو ما يعنى بكل وضوح ويقين أن رحمة الآباء لأبنائهم إنما هي من رحمة الله سبحانه، وأنه لا يمكن أن يوجد أي تناقض بين حب الفضيل لابنه أو ابنته وبين حبه لله، إذ إن ذلك الحب إنما هو من هذا الحب. كذلك هناك الحديث التالي الذي يرويهِ أبو هريرة رضي الله عنه، قال: "أبصر الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن، فقال: إن لي من الولد عشرة ما قبِلْتُ أحدا منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه من لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمَ".

ومن بحث منشور بموقع الإيسيسكو للدكتور محمد بن أحمد صالح عنوانه: "عناية الشريعة الإسلامية بالطفولة" تقتطف النص التالي مع شيء من

التصرف: "ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الرفق في تربية الأطفال وعلاج أخطائهم بروح الشفقة والرأفة والعطف والرحمة، وعدّ الغلظة والجفاء في معاملة الأولاد نوعاً من فقد الرحمة من القلب، وهدد المتصف بها بأنه عرضة لعدم حصوله على الرحمة من الله، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قَبَلْتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: 'مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمُ'.

وقد عمل النبي صلى الله عليه وسلم على إدخال السرور في قلوب الأطفال، إذ كان يُقَبِّلُهُمْ ويداعبُهُمْ ويحملُهُمْ في صلاته: عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو حامل أمّة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها. وروى عبد الله بن شداد قال: 'بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر. فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر. فقال صلى الله عليه وسلم: 'إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أُعْجِلَهُ حتى يقضي حاجته'. وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي يوماً إذ

قال الخادم إن فاطمة وعلياً رضي الله عنهما بالسُدة... فدخل علي فاطمة ومعهما الحسن والحسين، وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما.

وأخرج البخاري من حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي، وعلي قميص أصفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'سنة. سنة'. قال عبد الله: وهي بالحبشية: 'حسنة'. قال ثابت عن أنس رضي الله عنه: أخذ النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله ثم شمه. وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الحسن والحسين: 'هما ريحائتا من الدنيا'. وأخرج البخاري من رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: 'جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتقبلون صبيانكم؟ فما قبلهم. فقال النبي: 'أوأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟'. وأخرج البخاري عن رواية أسامة بن زيد رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول: 'اللهم أحبهما'.

وكان صلى الله عليه وسلم يسلم على الصبيان ويداعبهم ويتلطف بهم، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأخ صغير لأنس بن مالك: 'يا أبا عمير، ما فعل النغير؟'. والنغير: اسم لطائر يشبه العصفور كان يلعب

به أبو عُمَيْر فمات، فكان صلى الله عليه وسلم يداعب الصبي ليخفف عنه
 ويزيل حزنه بفقد الطائر الذي كان يلعب به. وكان التلطف بالصبيان من عادة
 رسول صلى الله عليه وسلم، فكان يقدّم من السفر فيلتقاه الصبيان، فيقف
 عليهم، ثم يأمر بهم فيرفعون إليه، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه، ويأمر
 أصحابه أن يحملوا بعضهم. فرمى تفاخر الصبيان بعد ذلك، فيقول بعضهم:
 حملني رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه، وحملك أنت وراءه، ويقول
 بعضهم: أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم".

وهب رابعة لم يكن بمقدورها أن تفهم هذا الحب الذي يجده الآباء في
 قلوبهم لأبنائهم لأنها لم تتزوج وتنجب، أفلم تكن قادرة على أن تتخيل ما
 حُرِمَتْ؟ هذا أمر عجيب. وهبها فاتها ذلك أيضا، ألم تكن تعرف ما قاله
 النبي عليه السلام في هذا الشأن؟ إلا أنني لا أستبعد أن يكون هذا الكلام
 قد وُضِعَ على لسانها وَضْعًا، فهي بريئة منه. لقد رفض عمر بن الخطاب أن
 يتولى أحد الرجال عملا من أعمال الدولة لأنه لا يجد في نفسه تعلقا بأولاده
 الصغار، فرأى رضى الله عنه أن مثل ذلك الشخص محروم من الرحمة لا
 يمكنه أن يفكر في أمر الرعية ولا أن يقوم بشؤونها كما ينبغي. ثم ألم يبك
 الرسول صلى الله عليه وسلم لموت ابنه إبراهيم؟ إن البكاء أشد من التقبيل
 في التعبير عن تعلق الأب بابنه، فما هو يا ترى رأى رابعة فيه وفي بكائه؟
 وهذا إن كانت حقا قد قالت هذا الكلام. ثم إننا لو أحببنا ربنا من قلوبنا

لعرفنا أن هذا الحب لا يكون حبا صحيحا إلا إذا حملنا على حب العباد . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "من أحب عليا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله . ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله" .

لو أن رابعة أو من وضع على لسانها ذلك الكلام قال إن المسلم لا يصح أن يحب أحدا أو شيئا أكثر من الله لقلنا له: ونحن معك لا نستطيع أن نقول غير ما قلت . بل لقد قالها القرآن المجيد في الآية الرابعة والعشرين من سورة "التوبة": "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" . بل إن هذه الآية نفسها لدليل على أن حب الله لا يتم إلا بحب الرسول، فقد ربط القرآن بين الله ورسوله مما سألزمت به بنا بعد قليل . أما أن يقال إن حب الله يحو كل حب آخر في القلب فهذا ما لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أوافق عليه . ذلك أن حبنا لله هو المنبع الذي نستمد منه حبنا لأولادنا وزوجاتنا وأقاربنا والمستضعفين من حولنا وعظماء الرجال الذين يبذلون أرواحهم أو أموالهم دفاعا عن الملة والأمة . وإذا كان القرآن يقول للرسول عليه السلام: "قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" ، فما معنى أن تقول رابعة أو من وضع على لسانها ذلك الكلام

إن حبها لله قد استغرقها فلم يبق في قلبها مكان للانشغال بالرسول؟ بل كيف تقول ذلك، وهي إنما عرفت الله وأحبه من خلال الرسول، الذي تزعم أنها ليس عندها من فراغ البال ما توجهه نحوه؟ أليس هذا غريباً وغير لائق؟ ولا أريد أن أقول شيئاً أشد من ذلك. أم تراها ستقول إنها قد اتخذته سُلماً وصلت به إلى الله، فلما وصلت لم تعد بحاجة إلى السلم؟

ولقد وجدت ابن عربى يقول شيئاً مشابهاً لهذا، إذ ذكر أن من السائرين إلى الله بعزائم الأمور المشروعة طائفةً ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطرق الموصلة إلى جناب الحق، فإذا أُعْطِيَ العلمَ بذلك زال من الطريق وخلق بينهم وبين الله. فهؤلاء إذا سارعوا أو ساقوا إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدام أحد من المخلوقين لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق تعالى. ومن هؤلاء رابعة. أما الطائفة الثانية فلا تشهد أمراً إلا والرسول حاجب لها. ومنهم عمر بن الخطاب (انظر طه عبد الباقي سرور/ رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام/ دار الفكر العربى/ ١٩٥٧م/ ٧٤-٧٥). وهو كلام خطير، أو على أقل تقدير: غير لائق، إذ يرى ابن عربى أن النبى لم يعد له دور فى حياة مثل هؤلاء المتصوفة لأنهم كبروا وشبوا عن الطوق ولم يعودوا يحتاجون إلى الاسترشاد بشيء من أحاديثه أو أفعاله. لقد صاروا فى معية الله مباشرة، فلماذا يحتاجون إلى الرسول؟ وهذا هو الغرور فى أقصى درجاته. وهوى ذكرنا بأولئك الصوفية

المدلسين الذين يقولون إنهم قد وصلوا فى المجاهدة الروحية إلى الحد الذى لم يعودوا يحتاجون معه إلى تأدية العبادات، فلذلك سقطت عنهم التكاليف الشرعية.

ثم كيف يا ترى نسيت رابعة أن الله يُكثّر من إرفاق ذكر الرسول بذكره سبحانه فى القرآن؟ قال تعالى: "قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة/ ٢٤)، "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ" (التوبة/ ٢٩)، "وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ" (التوبة/ ٥٩)، "الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ" (التوبة/ ٦٣)، "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة/ ٧١)، "وَمَا تَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ" (التوبة/ ٧٤)، "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة/ ٨٠)، "وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى

قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ" (التوبة/ ٨٤)، "وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ" (التوبة/ ٩٤)، "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" (التوبة/ ١٠٧). وهذا في سورة واحدة فقط هي سورة "التوبة"، فما بالنا لو رصدنا كل الآيات التي في القرآن؟

والأمر نفسه يصدق على الحديث أيضا: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ"، "عن وائل بن حجر: جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هذا وائل بن حجر جاءكم. لم يحكمكم رغبة ولا رهبة. جاءكم حبا لله ولرسوله"، "قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع موالى، ليس لهم مولى دون الله ورسوله"، "الأعمال بالنية، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه، ومن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله"، "إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمير، فإنها رجس"، "كان علي رضي الله عنه تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خير، وكان به رمد، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فخرج علي فلاحق بالنبي صلى الله عليه وسلم. فلما كان مساء الليلة التي

فتحها في صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعطين الراية...
 غداً رجلاً يحبه الله ورسوله (أو قال: يحب الله ورسوله) يفتح الله عليه.
 فإذا نحن بعليٍّ، وما نرجوه، فقالوا: هذا عليٌّ. فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففتح الله عليه، "بينما أنا والنبي صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقينا رجلاً عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولكي أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت"، "كنا مع عمر بن مكة والمدينة. فقرأنا الهلال. وكنت رجلاً حديد البصر، فرأيت. وليس أحد يزعم أنه رآه غيري. قال: فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستقل على فراشي. ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس. يقول: هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله. قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجعلوا في برٍّ بعضهم على بعض. فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدت ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً. قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ قال: ما أنتم بأسمع

لما أقول منهم. غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليّ شيئاً"، "بئس الطعام طعام الوليمة يُدعى إليه الأغنياء ويُترك المساكين. فمن لم يأت الدعوة، فقد عصى الله ورسوله"، "يا عائشة، إني ذاك لك أمراً، فلا عليك أن لا تُجَلِّي فيه حتى تستأمري أبويك. ثم قرأ عليّ الآية: "يا أيها النبي قل لأزواجك... (حتى بلغ: أجزا عظيمًا". قالت عائشة: قد علم، والله، أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه. قالت: فقلت: أوفي هذا أسأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قال معمر: فأخبرني أيوب أن عائشة قالت: لا تخبرنساءك أنني اخترتك. فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله أرسلني مبلغاً ولم يرسلني متعتاً"، "من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟"، "الله ورسوله مولى من لا مولى له"، "من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً. ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً"، "عن عمر أن رجلاً كان يلقب: حمّاراً، وكان يهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم العُكَّة من السمن والعُكَّة من العسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أعط هذا ثمن متاعه. فما يزيد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتسم ويأمر به فيُعطى. فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد شرب الخمر، فقال رجل: اللهم عنه! ما أكثر ما يُؤتى

به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دَعُوهُ، فإنه يحب الله ورسوله، "من أحب عليا فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغض عليا فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله..." إلخ.

وهناك من يرى أن رابعة هي رائدة الحب الإلهي، إذ كان التصوف قبلها، كما يقولون، قائما على الرجاء في الجنة والخوف من النار، إلى أن ظهرت على المسرح الصوفي رابعة العدوية فانتقل التصوف معها من الرجاء والخوف إلى الحب، الذي كانت أول من استعمل لفظه بعدما كان المتصوفة السابقون يتحدثون عن الشوق أو العشق مثلا، والذي أصبح كل همها معه هو مشاهدة حقيقة الله العلية واجتلاء طلعة جماله القدسية دون طمع في جنته أو خوف من ناره، وإن كانت قد بدأت أولا بنفس الطريقة التي كان عليها المتصوفة الذي سبقوها. أما من جاؤوا بعدها فصاروا يستعملون مثلها لفظ "الحب" و"الحبة" (انظر د. محمد مصطفى حلمي/ الحب الإلهي في التصوف الإسلامي/ دار القلم/ سلسلة المكتبة الثقافية/ العدد ٢٤/ أول نوفمبر ١٩٦٠م/ ٨٢ وما بعدها). وأكد طه عبد الباقي سرور أنه حيثما وجه الباحث وجهه في آثار رابعة رأى رسالة المحبة ومدرستها، وأن رابعة قد علّمت الناس أن الحياة محبة: محبة للناس جميعا، ومحبة للكون بكل ما فيه وبكل ما اشتمل عليه لأنه من صنع الله، ومحبة للقضاء والقدر لأنهما من أمر

الكريم الحبيب، كما علمتهم أن عبادة الله جل جلاله أساسها الحب، مقمية بذلك صلة العبد بربه على أقوم نهج تعبدى، نهج الشوق والأنس والرضا (انظر كتابه: "رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام/ ٣٢).

وتقول مادة "Rabia al Adawiyy" فى النسخة الفرنسية من موسوعة "الويكيبيديا": "ربما كانت رابعة أول صوت كبير فى عالم التصوف: Rabia est peut-être la première grande voix du New soufisme". وفى المادة المخصصة لرابعة العدوية فى " World Encyclopedia: موسوعة العالم الجديد"، وعنوانها: "Basri, Rabia" نقرأ أنها تمثل الريادة فى ميدان الحب الإلهى وأن ما تركه لنا فريد الدين العطار الصوفى الفارسى المشهور من أشعار وفلسفة تقف على أكتافها (هكذا نصًّا)، وأن ثقتها فى الله وفى رحمته كانت بلا حدود حتى إنها كانت تعتمد عليه وحده فى تدبير طعامها وجبة بوجبة، وأن الثناء الرفيع الذى حظيت به من الرجال والنساء على السواء هو برهان على قيمة ما خلفته من تراث يأخذ بيد المريدين للسير فى نفس الطريق الذى كانت تسير فيه، طريق الحب الحميم الذى كان يربطها بالله جل وعلا. وهما هى ذى الفقرة التى قمت بتلخيصها آنفاً من المادة المذكورة، أسوقها كما هى فى أصلها الإنجليزى:

"Her pioneering of love-mysticism in Islam produced a rich legacy. The poetry and philosophy of Farid ad-Din Attar, among that of others, stands on her shoulders. It is

primarily from his work that what little biographical information we have has survived. However, lack of details of her life is compensated by the abundance of stories of her piety and total trust in God to provide for her every meal. Her love of God and her confidence in God's mercy was absolute; since God provided for "those who insult Him" He would surely "provide for those who love Him" as well. The high praise that Rabia attracts from Muslim men as well as from Muslim women testifies to the value of her legacy as a guide for others to realize the same intimacy with God that she enjoyed. The fact is that details of her life have not survived while her reputation for piety has means that her achievements do not overshadow her devotion to God. Not only did she not teach at a prestigious institution or establish one but exactly where she did teach remains obscure. Nonetheless her legacy impacted significantly on religious life and thought".

وبعد فإن النصوص التي تحمل اسم رابعة تحدث عن حب الله فعلا، لكننا لا نستطيع أن نعرف على وجه اليقين أقالت رابعة هذا الكلام أم لا كما أوضحنا آنفاً. أما دعوى الأستاذ طه عبد الباقي سرور بأنها كانت من خلال هذا الحب تحب كل شيء في الكون فغير صحيح، إذ رأيناها مثلاً تستغرب أن يتعلق أب بابنه فيقبله، وكأن حب العبد لربه يتناقض مع حبه لأي شخص أو شيء آخر في الكون. بل لقد رأيناها تعلن في منتهى

الصراحة والوضوح أنها مشغولة بحبها لله عن رسوله عليه الصلاة والسلام. وعلى هذا فما قاله الأستاذ سرور فيما يتعلق بهذه النقطة هو كلام يقتصر إلى أساس سليم.

وأما ريادتها للحب الإلهي فتحتاج إلى التيقن من أنها هي فعلا صاحبة هذه الأشعار والأثار التي تناول هذا المعنى، وهو ما لا يمكننا القيام به على نحو قاطع. وسواء كانت هي أو غيرها صاحبة هذه النصوص فلا شك أن منطلق ذلك هو قوله تعالى: "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ" (البقرة/ ١٦٥)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (المائدة/ ٥٤). إلا أنني لاحظت مع هذا أن القرآن في موضوع الحب بين الله وعباده المؤمنين به إنما يركز في المقام الأول، لا على حب المؤمنين لله، بل على حب الله لهم: للمحسنين والمقسطين والمتوكلين والتوايين والمتطهرين وأمثالهم من طوائف المؤمنين، ذلك الحب الذي تكرر في القرآن مرارا كثارا. وهذا أمر عجيب لا تخفى دلالاته على أحد. قال تعالى: "وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (البقرة/ ١٩٥)، "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" (البقرة/ ٢٢٢)، "بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (آل عمران/ ٧٦)، "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران/ ١٣٤)، "وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" (آل عمران/

(١٤٦)، "فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران/ ١٥٩)، "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (المائدة/ ١٣)، "وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة/ ٤٢)، "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (المائدة/ ٩٣)، "فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (التوبة/ ٤)، "فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (التوبة/ ٧)، "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ" (التوبة/ ١٠٨)، "فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الحجرات/ ٩)، "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة/ ٨)، "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ" (الصف/ ٤). فالله يبدأ عباده بالحب، ويشجعهم على بذل الجهد والإخلاص لدينهم وقيمهم، ولا يعذبهم أو يتركهم في بوادي الحيرة والعذاب لا يدرون أهو يبادلهم الحب أم لا، متصورين أنه يحتجب عنهم رغم ما يبذلونه في مرضاته من سهر وقيام وصوم وحرمان، وكأنه سبحانه يتلذذ بتعذيبهم مع أن القرآن واضح تمام الوضوح في

هذه النقطة، إذ يقول عز وجل لعباده: "مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَّنْتُمْ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا" (النساء / ١٤٧) .

أما رابعة أو من تحدثوا باسمها فيقلبون الأمر رأساً على عقب، إذ يحاولون العلاقة بين العبد والرب إلى سلسلة من الخوف والحيرة والعذاب . ولقد بلغ الإسلام الغاية التي ليس بعدها غاية في مجال العقوبة الدينية بمثل ذلك الحديث الشريف الذي يرويه عمر قاتلاً إن "رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب: حمّاراً، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فَأَتَيْ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فُجِّلِدَ، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ! ما أكثر ما يُؤْتَى به ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله" . فانظر كيف أن الرجل لم يكن يكثر من الصلاة ولا الصيام ولا الصدقات، بل كان يدمن الخمر، وكان يُجلد فيها كثيراً حتى ضاق بعض الصحابة به فلعنوه، لكن الرسول كان له رأى آخر مختلف تماماً، ألا وهو أن هذا الرجل رغم كل شيء كان يحب الله ورسوله . أرايت كيف أن المسألة سلسلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أقصى حد، وصعبة عند رابعة أو من نطق باسمها، وكيف يتعلق اهتمام الرسول عليه السلام في المقام الأول بالشعور القلبي والنية؟ ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف أن الرجل، وإن ضعف أمام غواية الشراب، لم يكن مجترئاً على محارم الله، بل

كان يعانى من ضعف فى هذه النقطة لا تواكبه رغبة فى العصيان . إنما هو العجز عن التماسك أمام إغراء الخمر . أما قلبه فصاف خالص لحب الله ، فكانت المشكلة فى إرادته ، التى لم تكن على مستوى مشاعره . إنه يحب الله ، لكنه للأسف لا يستطيع الثبات أمام الخمر .

وفى "عين القضاة" للهمداني أنه "خطبها عبد الواحد بن زيد مع علو شأنه ، فهجرته أياما حتى شفع إليها إخوانه . فلما دخل عليها قالت له : يا شهوانى ، اطلب شهوانية مثلك ! " . فمن الواضح ، كما سبق بيانه ، أنه لم يكن لها مآرب فى الرجال ، وهو ما يمكن فهمه وتقديره ، لكن كيف فاتها أنها إن كانت لا ترغب فى الرجال فهذا أمر شاذ لا يقاس عليه وأن الطبيعى هو أن يفكر كل من الجنسين فى الجنس الآخر ؟ ألم تقرأ قوله تعالى يمتن على عباده بما يفيد أن هذه نعمة من النعم : "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ" (الروم / ٢١) ؟ ألا تعرف الحديث النبوى التالى : "جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم . فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : أئِن نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطُرُ . وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ :

أَنْتُمْ الَّذِينَ قَلْتُمْ كَذًا وَكَذَا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمُ لَهُ، لَكُنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"؟ أو هذا الحديث: "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنْهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ"؟ أو ذاك الحديث: "ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُم: الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعِفَّافَ"؟ أَلَمْ تَسْمَعْ بِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَأَمَاتَهُ فزَوِّجُوهُ. إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيزٌ"؟ أَلَمْ يَلْغِهَا الْحَدِيثُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الرَّسُولُ لِلْمُسْلِمِ: "إِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لَزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ"؟ أَلَمْ يَصْلُهَا مَا قَالَهُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ مِنْ أَنَّهُ "لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْلِي إِلَّا عَشْرَةُ أَيَّامٍ، وَأَعْلَمُ أَنِّي أَمُوتُ فِي آخِرِهَا يَوْمًا، وَلِي طَوَّلُ النِّكَاحِ فِيهِنَّ، لَتَزَوَّجْتُ مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ"؟ ثُمَّ كَيْفَ يَجْهَلُ مِثْلُهَا أَهْمِيَّةُ أَمْرٍ كَهَذَا تَكَرَّرَ الْمَنْزُومُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ إِنْ كَانَ قَدْ نَدَّ عَنْ عَقْلِهَا مَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْدَّ عَنْ عَقْلِ أَحَدٍ لِأَنَّهُ قَانُونُ كَوْنِي يَخْضَعُ لَهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ؟ أَلَيْسَ كُلُّ الْأَحْيَاءِ يَتَزَاوَجُونَ؟ مَاذَا أَقُولُ؟ بَلْ يَخْضَعُ لَهُ الْجَمَادُ كَذَلِكَ. أَلَيْسَتْ الذَّرَّةُ مَكُونَةٌ هِيَ أَيْضًا مِنْ سَالِبٍ وَمَوْجِبٍ؟ وَمَنْ ثُمَّ فَمَاذَا فِي الشَّهْوَةِ؟ هَلْ هِيَ تَقْدَرُ الْأُمُورَ أَفْضَلَ مِنْ رَبِّ الْكَوْنِ؟ أَمْ مَاذَا؟ ثُمَّ مِنْ أَيْنَ أَتَتْ هِيَ نَفْسُهَا؟ أَلَيْسَتْ مِنْ زَوَاجِ آبِهَا بِأَمَّا؟ أَمْ هُنَاكَ طَرِيقٌ آخَرٌ يَأْتِي بِهِ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى الْوُجُودِ أَفْضَلَ

من طريق الزواج؟ أليست الشهوة هي السبب في استمرار الحياة؟ على أننى لا أظن صحة هذه الحكاية، وبخاصة أن كل الحكايات التى تدور حول رابعة تصورها بصورة ليس من شأنها أن تجذب الرجال إليها: لا من جهة شكلها ولا من جهة ملابسها ولا من جهة تصرفاتها ولا من جهة أسلوب حياتها ولا من جهة فهمها للدين والعبادة. وهذا الذى قلته هنا أقوله أيضا تعقيبا على الحكاية التالية، إذ خطبها محمد بن سليمان الهاشمي أمير البصرة على مائة ألف، وقال: لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أحملها إليك. فكتبت إليه: ما يَسْرَتْنِي أَنْك لى عبد وأن كل مالك لى وأنتك شغلتنى عن الله طرفة عين.

ويذكر الزمخشري (وهو من أهل القرنين: ٥ - ٦ هـ) فى "ربيع الأبرار ونصوص الأخبار" أنه قد "اجتمعت عند رابعة عدّة من الفقهاء والزهاد فذمّوا الدنيا، وهى ساكنة. فلما فرغوا قالت لهم: مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ: إما بمحمد وإما بدم. فإن كانت الدنيا فى قلوبكم لاشيء فلم تذكرن لاشيء؟". وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت: إني لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟ فكان هذا جوابها على قوله لها: سليني حاجتك. وهتف رجل من العباد فى مجلس رابعة: اللهم ارض عني. قالت رابعة: لو رَضِيتَ عن الله لَرَضِيَ عَنْكَ. قال: وكيف أَرْضَى عن الله؟ قالت: يوم تُسَرُّ بالنعمة سرورك بالنعمة لأن كليهما من عند الله.

وأنا معها فى ردها هذا على جماعة العباد والزهاد المجتبعين عندها،
 إذ ما من واحد من البشر يمكن أن ينسى الدنيا . كيف، وهى مغروسة
 بكلايب من حديد فى أعماق نفوسنا جميعا؟ كل المطلوب من فضلاء البشر
 ألا يلهيهم حب الدنيا عن القيام بواجبهم نحو ربهم ودينهم وأمتهم وإخوانهم فى
 الإنسانية ولا عن مراعاة الحلال والحرام . فإذا قاموا بذلك الواجب فهنيئاً لهم
 طيبات الحياة . وإلا فلمن خلق الله طيباتها؟ لكنى لا أوافقها على قولها:
 "إنى لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟"، إذ
 لم الاستحياء؟ ومن؟ من رب العالمين؟ وهل يستحي المخلوق أن يطلب من
 الخالق شيئاً من الدنيا؟ فليكيف إذن عن التنفس، فهو من طيبات الدنيا .
 وليكيف إذن عن الطعام والشراب والنوم والمشي بل عن الوجود ذاته . وإذا لم
 يطلب الإنسان من الله ما يحتاجه من دنياه، فمن يطلب؟ أم تراه يقول إننى لا
 أمارس شيئاً من أمورها؟ لكن هل من يقول هذا يكون صادقاً فى دعواه؟ أم
 هو مجرد كلام، والسلام؟ ولا ننس ما أكرره هنا دائماً من أننا لا ندرى أقالت
 رابعة هذا أم لا . ذلك أنه ليس هناك دليل على أنه كلامها فعلاً كما شرحتُ
 قبلاً .

ويرى د . عبد الرحمن بدوى أن نظرة رابعة إلى نفسها وأعمالها تنبئ
 عن تواضع شديد، وأنها كانت لا تطمئن إلى قبول الله توبتها أو أعمالها،
 واقفاً فى هذا السياق عند قولها: استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق

فيه . وهو يعقب قائلا إن "الصوفى الحق . . . هو ذلك الذى يعزف عن الرضا لأنه ينطوى على فكرة سلبية خالصة، فتراه دائما فى خوف على أعماله . وهذا ما أكدته رابعة حين قيل لها: أَعَمَلْتَ عملا تَرَيْنَ أَنْ يُقْبَلَ منك؟ فقالت: إن كان فُخِوْفِي أَنْ يُرَدَّ عَلَىَّ . والواقع أنه إذا كانت قد صدرت عنها هذه العبارات فعلا أو نسبت إليها فقط، فقد صدر عنها أو نسب إليها أيضا تلك العبارات التى أوردتها قبل قليل وتتسم بالخشونة والتنقص من الآخرين وشيء من الغرور كما وضحت، وهى أكثر وأبرز من العبارتين الأخريين اللتين استشهد بهما د . بدوى .

ومما سبق يَهَيِّأُ لى أن رابعة، أو فلنقل: الصورة التى رُسِمَتْ لرابعة، لم تكن تعرف الابتسام، أما الضحك فهو أمر لا يخطر لها ولا فى المنام . ولا أظنها فى الواقع إلا كانت تبتسم وتضحك مع هذا، إلا أن من صوروها لنا كانوا حرصاء على أن يقدموها متجهممة لا ترحم أحدا فى ردها عليه ولا يعجبها العجب فى عبادتهم وزهدهم وخوفهم من ربهم . وللأسف فإن كثيرا من المتدينين يظن أن الشخصية المتدينة لا بد أن تكون جافة خشنة لا تعرف البشاشة كى يُعْجَبَ بها الناس ويقدروها . وللأسف أيضا فإن كثيرا من الجماهير ترى هذا الرأى . وكانت الثمرة هى تلك الصورة الجافة الجهممة التى وصلتنا لتلك السيدة العابدة . إلا أننى لا بد أن أضيف إلى ما سبق أنها، فيما يخيل إلى، لم تكن تكثر من الابتسام ولا من الضحك كما نفعل نحن

المتدينين العاديين، إذ نبسم ونضحك ونأكل ونشرب أفضل ما نستطيع من الطعام والشراب، ونحرص على أن نبرز للناس فى ملابس أنيقة بقدر الإمكان، ونصلى ونصوم ونزكى ونحج، وإن كنا لا ندرى أمقبولة عبادتنا أم لا، ولكننا نستمر فى أدائها مع هذا كله راجين القبول فضلا من الله ونعمة، ونخطئ أحيانا ونصيب أحيانا، وتلدعنا ضمائرنا أحيانا وتغفو أحيانا، وأملنا فى الله طول الوقت كبير، وإلا فقدنا عقولنا وأصابنا يأس وغم، إذ نجد أننا مهما حاولنا تجنب الخطأ نقع فيه رغم أنوفنا . فلولا ثقتنا فى الله ورحمته وكرمه وعفوه وغفرانه ولطفه وبره ما استقامت حياتنا . وفى النهاية ألم تسمع رابعة بقول الرسول: "رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً وَسَاعَةً" ؟ ألم يصلها نبأ حديث حنظلة الذى يقول فيه: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوعظنا فذكر النار . قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكتُ الصبيان، ولاعبت المرأة . قال: فخرجتُ فلقيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر . فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، ناقق حنظلة ! فقال: مه ! فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل . فقال: يا حنظلة، ساعة وساعة . ولو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق" .

أما الكرامات، أو بالأحرى: المعجزات، التى ينسبونها إلى رابعة فكثيرة، وهى لا تقنع أحدا يتمتع بشيء من العقل والفهم، فباب المعجزات

معلق أمام غير الأنبياء . وأنا لا أقبل التصديق بوقوع أية معجزة ما لم تذكر فى القرآن . وعلى هذا فقول فريد الدين العطار فى "تذكرة الأولياء" إنها كانت تقوم الليل ذات مرة فى بيت سيدها أيام كانت لا تزال أمةً، وكانت تدعو الله أن يعتقها من هذا السيد القظ القاسى حتى تستطيع التفرغ له عز وجل وتعبده كما تحب، فنظر سيدها من خصاص باب حجرتها فسمعها وهى تبتهل إلى الله، وفوق رأسها قنديل معلق فى الهواء دون سلسلة تربطه بالسقف، ونوره يسطع فى أرجاء البيت كله، فوقع فى نفسه أنها فتاة مباركة، فما إن طلع الصباح حتى أعتقها وأطلق سراحها .

ومما ذكره فريد العطار، ولا أدرى كيف كان هو وأمثاله يفكرون أو كيف يخترعون هذه الخرافات المضحكة أو يصدقونها على الأقل، أنها كانت تخرج فى أحد الأعوام على حمار، فنفق الحمار، فقال رفقائها بالقفلة إنهم سيحملون متاعها على دوابهم، إلا أنها رفضت ذلك قائلة إنها لم تعتمد عليهم حين قررت الحج، بل على الله وحده، فليرحلوا إذن ولا يشغلوا أنفسهم بها . ثم شرعت تناجى ربها قائلة: أهكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين؟ وما كادت تدعو الله بذلك حتى نهض الحمار حيًّا كما كان، فوضعت عليه متاعها ولحقت بالقفلة .

وروى العطار أيضا أن الكعبة لم تنتظر حتى تقدم إليها رابعة فانتقلت من مكانها وذهبت إليها حيث هى . ولهذا لم يجدها إبراهيم بن أدهم حين

وصل مكة رغم أنه كان قد أنفق فى تلك الحجة أربعين عاما ماشيا على قدميه يصلى ركعتين كلما مشى خطوة. فما كان من رابعة إلا أن قررت أن تذهب العام التالى بنفسها إلى الكعبة بدلا من أن تأتيها هى. ولما جاء الموسم توجهت ناحية الصحراء وأخذت تقلب على أضلاعها على الأرض حتى بلغت الكعبة!

وروى العطار كذلك أن الحسن البصرى رأى رابعة جالسة على شاطئ الفرات فألقى على الماء سجادته ووقف عليها وهو يقول: يا رابعة، تعالى لنصلى ركعتين على الماء. فقالت: يا سيدى، أكل همك أن تظهر أمور هذه الدنيا لأهل الآخرة؟ أظهر لنا شيئا لا يستطيع جمهور الناس أن يفعلوه. قالت هذا، وألقت سجادتها فى الهواء وصعدت عليها وصاحت: يا حسن، نحن هنا فى مكان آمن وأبعد عن عيون الناس... إلى آخر هذه الحوادث التى يشغف بها الأطفال والعجائز. فإذا كانت هذه الأمور صحيحة فلماذا لم تظهر لها كرامة تأتيها بالطعام الشهى والمسكن النظيف الواسع والملبس الرقيق بدلا من الحياة الجشبة الخالية من المتعة التى كانت تقاسيها؟ أليس ذلك أفضل ألف مرة من القنديل الذى كان يتأرجح فوق رأسها معلقا فى الهواء دون سلسلة بلا أية جدوى؟ ألم يقل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: "أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع،

والجار الصالح، والمركب الهنيء . وأربع من الشقاء: المرأة السوء، والجار
السوء، والمركب السوء، والمسكن السوء" ؟

والآن إلى ما خلفته لنا رابعة من نصوص شعرية وثنية . والملاحظ أن
النصوص الأدبية التي وصلت إلينا منسوبة إلى رابعة قليلة جداً، وهأنذا
أسوقها كما وجدت في المظان المختلفة التي تتحدث عن هذه العابدة
المتصوفة: فأما الشعر فما هو ذا:

وَأُجِئْتُ جَسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي	إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدَّثِي
وَحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أُنَيْسِي	فَالْجَسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ

* * *

وَمَا لِسَوَاهٍ فِي قَلْبِي نَصِيبُ	حَبِيبٌ لَيْسَ يَعْدِلُهُ حَبِيبُ
وَلَكِنْ عَنْ فُؤَادِي مَا يَغِيبُ	حَبِيبٌ غَابَ عَنِ بَصْرِي وَشَخْصِي

* * *

أَلْزَادُ أَبْكِي أَمْ لَطُولُ مَسَافَتِي ؟	وَزَادِي قَلِيلٌ مَا أَرَاهُ مَبْلَغِي
فَأَيْنَ رَجَائِي فِيكَ ؟ أَيْنَ مَخَافَتِي ؟	أَتَحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى ؟

* * *

وَحُبُّكَ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لَذَاكَ	أَحْبَبْتُكَ حَبِيبٌ، حُبُّ الْهَوَى
فَشَغَلَنِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ	فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى
فَكَشَفْتُكَ لِي الْحُبُّ حَتَّى أَرَاكَ	وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقالت حين خطبها الحسن البصري معذرة:

راحتي يا إخوتي في خلوتي	وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً	وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه	فهو محرابي إليه قبلي
إن أمت وجداً وما ثم رضى	وا عنائي في الورى! وا شقوتي!
يا طبيب القلب يحيا دائماً	نشأتي منك وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي	منك وصلاً، فهو أقصى مُنيّتي

وهذه الأشعار القليلة جدا تبعث على أن تتساءل: ترى هل هذا كل ما تركت رابعة وراءها من شعر؟ لا أظن ذلك إن كانت فعلاً صاحبة تلك المقطوعات، وبخاصة أن الجاحظ، وهو أقرب من كتبوا عنها إلى عصرها، لم يذكر أنها كتبت شعراً، بل هو فى الواقع لم يذكر عنها كلها شيئاً يشفى الغليل. الشئ الثانى الذى يلفت النظر فى هذه النصوص هو أنها ليست بذات قيمة فنية تذكر، لكن ما فيها من حرارة التعلق بالله هو الذى يمنحها شيئاً من القيمة، وبالذات تلك الأبيات التى تبدئ بقولها: "أحبك حبين"، لارتباطها فى ذاكرتنا بصوت أم كلثوم، إذ من المستحيل أن يتناسى الإنسان صدى غنائها لهذه الأبيات فى نفسه حين يبدأ قراءتها، ومن ثم فصوت أم كلثوم مع اللحن الرائع الذى وُضع للأغنية يعطيانها قيمة أكبر. وإذا كان بعض

المتصوفة قد فسروا هذين الحبين وفرقوا بينهما على طريقتهم حسبما رأينا فيما مضى، فإننى بدورى قد أستطيع أن أشرح هذه الأبيات لو نظرنا إليها على أنها شعر فى حبيب بشرى. ويكون المعنى أنها أحبت حبيبها أولا ذلك الحب القدرى الذى ليس للمحب فيه حيلة. لكنها عرفت أيضا إلى جانب هذا أنه حبيب جدير بكل حب، وهذا هو الحب الثانى الذى أشارت له بقولها:

وأما الذى أنت أهل له	فكشفك لى الحُجُبَ حتى أراكا
----------------------	-----------------------------

بمعنى أنه لما تكشفت لها حقيقة الحبيب أحبته اقتناعا، فكان حبها هذه المرة حب المعاينة، إذ كثيرا ما يقع الواحد منا فى حب فتاة أو امرأة دون أن يفكر حينئذ فى خلالها وشخصيتها، بل يحبها لأن هذا هو قدره، فهو لا يستطيع أن يسألها حتى لو تبين له أنها غير جديرة به أو أنها لن تسعده. لكن إذا أحب امرأة بهذه الطريقة ثم تبين له أنها جديرة بحبه وأنها سوف تسعده، بل أسعدته فعلا، فإن حبه لها فى هذه الحالة هو حبه لمن هى أهل لذلك الحب. وهذا شرح تقريبي لأننى لا أجروء على أن أدخل إلى قدس الحب الإلهى. إننى أحب الله، لكن دون تعقيد، وأعرف له عظمتة وجلاله، إلا أننى فى ذات الوقت لا أقطع عن القيام بواجباتى فى الحياة من تدريس وقراءة وكتابة وسعى على معاشى أنا وأسرتى ومشاهدة التلفاز أو سماع المذياع أحيانا وتنزه ومشى يومى من أجل لياقتى الصحية، ولا أجد فى

حبي لأفراد أسرتي أو أصدقائي أو طلابي أو زملائي مثلاً ما يتعارض مع هذا الحب . كما أني لم أفكر يوماً أن أحلل حبي له سبحانه أو أن أكتب عنه، فضلاً عن أني لست شاعراً، بل أحبه فقط . والطريف أن عبارة "يا طبيب القلب" التي وردت في أحد الأشعار المنسوبة لرابعة هي مطلع أغنية تغنيها ليلي مراد، ولكن لطبيب من البشر كان يعالجها ثم تعلقت به وتزوجته، وليس للطبيب الكبير الذي منه كل شفاء . وربما كان هذا المطلع اقتباساً من أبيات رابعة، أو فنقل من باب الاحتياط: الأبيات المنسوبة إلى رابعة.

أما المقطوعة التي تبدأ بقولها:

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعُدتى وعِادى
------------------------	----------------------

فهى نظم لا روح فيه ولا حرارة ولا فكرة مدهشة ولا خاطر يلفت النظر، علاوة على أن وصفها لله بأنه "مُنَى القلب" هو مما لا يصلح لله سبحانه، إذ المنية هى شىء قد يتحقق أو لا يتحقق . وذلك، فى دينا الحب، يتوقف على إرادة الطرف الآخر، الذى قد يكرهنا حتى لو أعطيناه كل كيانتنا، إذ من الممكن ألا يبادلنا حباً بحب . أما الله فإنه لا يفعل ذلك، فحبه لا نهاية له، ومن ثم يمكن أن يحب كل البشر دون أن ينقص ذلك من نصيب أى منهم من الحب شيئاً بخلاف حب المرأة مثلاً للرجال، فهى لا تستطيع أن تحب إلا واحداً لأن قلبها لا يتسع إلا لواحد فحسب، علاوة على أنها قد تكره من يحبها، وهو ما لا يُتَصَوَّر فى حق الله عز وعلا . من هنا

فإنى أرى تلك العبارة مما يزرى بهذه الأبيات الرديئة أصلا لما يغلب عليها من
تقريرية وما تخلو منه من روح الشعر وصوره ودقته.

ورغم حكمى على فن هذه الأشعار التى بين أيدينا بأنها ليست بذات
قيمة كبيرة فإن قولها، أو القول المنسوب إليها:

أُحرقني بالنار يا غاية المنى؟	فأين رجائي فيك؟ أين مخافتي؟
-------------------------------	-----------------------------

هو مما يعجبني كثيرا، إذ أراه يعبر خير تعبير عما أعتقد فى قلبى
وعقلى وضميرى من أن الله عظيم الكرم والرحمة، وأننى إن أتيت به بالعمل
القليل فأملئ أنه سبحانه سوف يتغاضى عن قلته وضعفه، وهو ما أعتمد
عليه فى مواصلة مسيرة حياتى دون إحباط. فنحن عبيده، ونحن ضعفاء،
ونحن خطأون، ونحن من ثم نطلع إلى غفرانه وكرمه. وإذا لم يكرمنا هو فمن
يا ترى يُكرم؟ كذلك فتركيب الكلام فى قولها أو القول المنسوب إليها التالى:

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا
----------------------------	---------------------------

تركيب ممتع، إذ الشطرة الثانية تعاكس الشطرة الأولى فى ترتيب
عناصر الجملة، لأن الجملة فى الشطرة الأولى قد رُبِّتْ على أن يحىء المبتدأ
أولا، فمتعلق المبتدأ ثانيا، فالخبر ثالثا وأخيرا، أما فى الشطرة الثانية فجاء
الخبر أولا، ثم المبتدأ ثانيا، فمتعلق المبتدأ ثالثا. فكأننا أمام شخص وصورته
المعكوسة فى المرآة، وفى هذا العكس ما فيه من السرور بالمفاجأة التى لم
يكن القارئ أو السامع يتوقعها.

كذلك يعجبني قولها تعبيراً عن الله جل وعلا: "حبيب قلبي" بما فيه من بساطة وعفوية ودفاء وكأنها تتحدث عن حبيب قلبها من بنى الإنسان وليس عن رب العزة والجلال. والله عند ظن عبده به، فهو يبادل كل من يحبه حبا مثله، لا بل أكبر منه، حبا يليق به سبحانه لا حبا يليق بنا نحن. وكنت قرأت ذات مرة أن أحد أجواد المسلمين قصده رجل يأمل في عطائه، فأعطاه ما لا كثيرا لم يكن المستعطى يتوقعه أو يحلم به، وهو ما أثار دهشة من حوله، فقالوا له إنه كان يكفيه القليل من هذا المال، ومن ثم كان ينبغي أن يعطيه على قدر ما يستحق ويتوقع. فما كان من الرجل الجواد إلا أن أجابهم بأنه لا يعطى الناس على قدر استحقاقهم، بل على قدره هو. فكان هذا من أجل الردود التي سمعتها في حياتي.

وأما النشر فقد أوردنا بعضه خلال الروايات التي سقناها في هذا الفصل، وهو عبارة عن نصوص قصيرة علقنا عليها بما نرجو أن يكون قد أبان عن وجهة نظرنا فيها. وهناك أيضا النص التالى الموجود فى "مصارع العشاق" للسراج القارى، وهو من رواية مسمع بن عاصم. قال: "قالت لي رابعة العدوية: اعتلت علة قطعني عن التهجّد وقيام الليل، فمكثت أياما أقرأ حزبي إذا ارتفع النهار لما يُذكر فيه أنه يعدل قيام الليل. قالت: ثم رزقني الله عز وجل العافية، فاعتادني فترة في عقب العلة. وكنت قد سكنت إلى قراءة حزبي بالنهار، فانقطع عني قيام الليل. قالت: فبينما أنا ذات ليلة راقدة

أُرِيتُ فِي مَنَامِي كَأَنِّي رُفِعْتُ إِلَى رَوْضَةِ خَضِرَاءَ ذَاتِ قُصُورٍ وَنَبْتٍ حَسَنٍ .
فَبَيْنَا أَنَا أَجُولُ فِيهَا أَتَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهَا إِذَا أَنَا بِطَائِرٍ أَخْضَرَ ، وَجَارِيَةٍ تَطَارِدُهُ
كَأَنَّهَا تَرِيدُ أَخْذَهُ ، قَالَتْ : فَشَغَلَنِي حُسْنُهَا عَنْ حُسْنِهِ ، فَقُلْتُ : مَا تَرِيدِينَ
مِنْهُ ؟ دَعِيهِ ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ طَائِرًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ . قَالَتْ : بَلَى . ثُمَّ أَخَذْتُ
بِيَدِي فَدَارَتُ بِي فِي تِلْكَ الرَّوْضَةِ حَتَّى اتَّهَتُ بِي إِلَى بَابِ قَصْرِ فِيهَا ،
فَاسْتَقْتَحْتُ ، فَفُتِحَ لَهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : اقْتَحُوا لِي بَيْتَ الْمُقَةِ . قَالَتْ : فَفُتِحَ لَهَا بَابٌ
شَاعَ مِنْهُ شِعَاعٌ اسْتَنَارَ مِنْ ضَوْءِ نُورِهِ مَا بَيْنَ يَدَيَّ وَمَا خَلْفِي ، وَقَالَتْ لِي :
ادْخُلِي . فَدَخَلْتُ إِلَى بَيْتٍ يَحَارُ فِيهِ الْبَصَرُ تَلَأَلُّوا وَحَسَنًا مَا أَعْرَفَ لَهُ فِي
الدُّنْيَا شَبِيهَا أَشَبَّهُهُ بِهِ . فَبَيْنَا نَحْنُ نَجُولُ فِيهِ إِذْ رُفِعَ لَنَا بَابٌ يُنْفَذُ مِنْهُ إِلَى
بَسْتَانٍ ، فَأَهْوَتْ نَحْوَهُ وَأَنَا مَعَهَا ، فَتَلَقَّانَا فِيهِ وَصَفَاءُ كَأَنَّ وَجُوهَهُمُ اللَّوْلُؤُ ،
بِأَيْدِيهِمُ الْجَمَامِرُ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : أَيْنَ تَرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نَرِيدُ فَلَانًا ، قَتَلَ فِي الْبَحْرِ
شَهِيدًا . قَالَتْ : أَفَلَا تَجْمُرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ ؟ قَالُوا : قَدْ كَانَ لَهَا فِي ذَلِكَ حِظٌّ
فَتَرَكَهُ . قَالَتْ : فَأَرْسَلْتُ يَدَهَا مِنْ يَدَيَّ ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَيَّ فَقَالَتْ :

صَلَاتُكَ نَوْرٌ ، وَالْعِبَادُ رُقُودٌ	وَنَوْمُكَ ضِدٌّ لِلصَّلَاةِ عَنِيدٌ
وَعَمْرُكَ غَنَمٌ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلَةٌ	يَسِيرُ وَيَفْنَى دَائِمًا وَيَبِيدُ

ثُمَّ غَابَتْ مِنْ بَيْنِ عَيْنِي ، وَاسْتَيْقَظْتُ حِينَ تَبَدَّى الْفَجْرُ . فَوَاللَّهِ مَا
ذَكَرْتُهَا فَتَوَهَّمْتُهَا إِلَّا طَاشَ عَقْلِي ، وَأَنْكَرْتُ نَفْسِي . قَالَ : ثُمَّ سَقَطَتْ رَابِعَةً
مَغْشِيَا عَلَيْهَا " .

ولا ريب أن هذه قطعة أدبية بديعة، وإن كنت لا أدري أهى من بُنَيَات عقل رابعة أم من إضافات المتأخرين إليها . إلا أن القطعة رغم هذا تفيض بالخيال الرائق الجميل وتجوس بنا داخل الجنة وكأنها مرشد سياحي يطلعنا على معالم المدينة وما فيها من ألوان الإبداع المعماري والفنى ويقودنا خلال الشوارع الفسيحة المشرقة المفعمة بالحياة . وهى فى الواقع تعبير عن تطلعات البشر المرهقين من أثقال الدنيا ومنغصاتها إلى الراحة الشاملة الأبدية حيث يتحقق للإنسان كل ما يطمح بصره وقلبه إليه، ويرتاح الراحة التى ليس بعدها ألم ولا تنغيص، ويتقلب على راحتته فى النعيم المقيم . وتبدى الجنة فى القطعة الجميلة وكأننا إزاء قصر مترف تحيط به الرياض الخضر التى تخلق فى فضائها الطيور البديعة ذات الريش الرائع والنغم العذب، وتصاحبنا الجوارى اللاتى يقمن على راحتنا يأخذن بأيدينا ويحجن على استفساراتنا ويوفرن لنا كل ضروب البهجة والمسرة .

وفى "شرح حال الأولياء" لعز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسى نقلا عن "رابعة العدوية شهيدة الحب الإلهى" للدكتور عبد الرحمن بدوى (ص ١٧٢-١٧٣): "ليس للمحب وحبيبه بُيْن، وإنما هو نطقٌ عن شوق، ووصفٌ عن ذوق. فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف. وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب، وبوجوده دائب، وبشهوده ذاهب، وبصَحْوِكَ منه سكران، وبفراغِكَ له ملآن، وبسرورك به ولهان؟ فالهيبة

تخرس اللسان عن الإخبار، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار. فما ثم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة. والحجة بدولتها الصارمة، في القلوب حاكمة". ولا أظن مثل هذا النص يتسق مع ثقافة رابعة ولا شخصيتها أبداً، بله أن يتسق مع عصر رابعة أسلوباً أو فكراً. وهو مملوء بالسجع والمعانى التفريعية الدقيقة، علاوة على ما فيه من مصطلحات صوفية لم تكن معروفة آنذاك، مثل "الأغيار" و"الصحو" و"السُّكر" و"الذوق".

وأورد الشيخ الحريفيش في "الروض الرائق في المواعظ والرقائق" لرابعة العدوية هذين الابتهالين البديعين اللذين يقعان موقع السحر في القلوب، وينزلان كالبلسم على الأرواح، ويحملاننا إلى آفاق علوية تغادر بنا هذه الأرض بعض الوقت: "إلهي، غارت النجوم، ونامت العيون، وغفل الغافلون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب مجيبه، وهذا مقامي بين يديك"، "إلهي، هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر. فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهناً أم رددتها عليّ فأغزى؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني. وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك".

الحلاج

هو الحسين بن منصور، وكُتِبَتْهُ أَبُو مَغِيثَ (أَوْ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ)، وَلَقَبَهُ
الحلاج. وَنَشَأَ بِوَاسِطَ (أَوْ تُسْتَر)، وَقَدِمَ بَغْدَادَ حَيْثُ اخْتَلَطَ بِالصُّوفِيَّةِ،
وَمِنْهُمْ الْجَنِيدُ وَأَبُو الْحُسَيْنِ النَّوْرِيُّ وَعَمْرُو الْمَكِّي. وَقَدْ حَجَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،
وَسَاحَ فِي الْبِلَادِ فَذَهَبَ إِلَى خِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْهِنْدِ. وَكَانَ يَلْبَسُ
أَحْيَانًا زِيَّ الصُّوفِيَّةِ، وَأَحْيَانًا زِيَّ الْجُنْدِ. وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مَا بَيْنَ مُثْنٍ عَلَيْهِ
وَعَلَى دِينِهِ وَتَقْوَاهُ، وَمَشَكَّكَ فِيهِ مُتَمِّمٌ لَهُ بِالشَّعْبِذَةِ وَالْحَيْلِ وَالْخِدَاعِ. وَكَانَ
يَدَّعِي حُلُولَ اللَّهِ فِيهِ، وَأَثَرَتْ عَنْهُ أَقْوَالٌ يَتَحَدَّثُ فِيهَا عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ بِوصفِهَا
شَيْئًا وَاحِدًا. كَذَلِكَ قِيلَ إِنَّهُ دَعَا إِلَى إِسْقَاطِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ وَالِاسْتِعَاضَةِ عَنْهَا
بِالدُّورَانِ حَوْلَ حَجْرَةِ طَاهِرَةٍ فِي الْبَيْتِ وَالْقِيَامِ بِبَعْضِ أَعْمَالِ الْخَيْرِ تَجَاهَ
الْفُقَرَاءِ، كِاطْعَانِهِمْ وَتَوَزِيعِ الْأَمْوَالِ عَلَيْهِمْ.

وَيَحْكِي عَنْهُ مَنْ لَهُمْ اعْتِقَادٌ فِيهِ أَشْيَاءٌ لَا تَقْبَلُهَا عَقْلِيَّتُنَا الْإِسْلَامِيَّةُ
الْمُسْتَتِيرَةُ الَّتِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ نَظَّمَ الْكَوْنَ عَلَى قَوَائِنٍ صَارِمَةٍ، وَأَنَّهُ إِذَا
كَانَ هُنَاكَ خَرَقَ لِهَذِهِ الْقَوَائِنِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى التَّصَدِيقِ بِهَا إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ
الْإِلَهِيِّ. مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ إِنَّهُ كَانَ يَمْدُ يَدَهُ فِي الْهَوَاءِ ثُمَّ يَسْتَرْدُهَا وَقَدْ امْتَلَأَتْ
بِالدَّرَاهِمِ، وَكَانَ يَسْمِيهَا "دِرَاهِمَ الْقُدْرَةِ". كَمَا رَوَى أَنَّهُ أَحْيَا عِدَدًا مِنَ الطَّيْرِ،
وَأَنَّهُ كَانَ يَأْتِي بِالْفَاكِهِةِ فِي غَيْرِ إِبَانِهَا، وَيَقْرَأُ مَا فِي نَفْسِ النَّاسِ. أَمَّا مَنْ كَانَ
رَأْيُهُمْ فِيهِ سَيِّئًا فَقَدْ كَانُوا يَعْزُونَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَعَلَّمَهُ فِي الْهِنْدِ مِنَ السَّحَرِ
وَالشَّعْوَذَاتِ، وَإِلَى الْحَيْلِ الَّتِي كَانَ يُعِدُّهَا سَلَفًا وَيَمُوهُ بِهَا عَلَى السَّذْجِ.

وقد حُكِيَ عن واحد من هؤلاء الأخيرين أن الحلاج لما قال له: "تؤمن بي حتى أبعث إليك بعصفورة تطرح من ذرقتها وزن حبة على كذا منّا من نحاس فيصير ذهباً؟" رد عليه متهمكاً: "بل أنت تؤمن بي حتى أبعث إليك بفيل يستلقي فتصير قوائمه في السماء . فإذا أردت أن تخفيه أخفيه في إحدى عينيك؟"، وأن الحلاج قد بُهِت عندئذ وأفحم.

كما ذكر واحد آخر منهم أن الحلاج لما أرسل إليه يدعوهُ إلى الإيمان به ومتابعته على ما يقول قال للرسول: "هذه المعجزات التي يُظهِرها قد تأتي فيها الحيل، ولكن أنا رجل غزل، ولا لذة لي أكبر من النساء وخلوتي بهن. وأنا مبتلى بالصلع، ومبتلى بالخضاب لستر المشيب. فإن جعل لي شعراً وردّ لحيتي سوداء بلا خضاب آمنتُ بما يدعوني إليه كأننا ما كان: إن شاء قلت إنه باب الإمام، وإن شاء: الإمام، وإن شاء قلت إنه النبي، وإن شاء قلت إنه الله!" وأن الحلاج لما سمع جوابه يُس منه وانصرف عنه.

وقد حُكِيتُ حكايات عن زهده وعبادته لا أظن الإسلام يستسيغها، فقد قالوا مثلاً إنه لما كان في مكة مكث سنة في صحن المسجد الحرام لا يبرح موضعه إلا للطهارة أو الطواف، غير مبال بالشمس أو المطر. وكان إفطاره على ماء وأربع قضمات من رغيف. وقد عاب بعضهم عليه تعذيبه هذا لنفسه وتنبأ له بأن الله سوف يبتليه بلاء لا يطيقه.

وكانت نهاية الحلاج أن سُجِنَ في عهد المقتدر بالله ثماني سنوات غير مضيق عليه، حتى إنه كان مسموحاً للناس أن يزوروه ويسمعوه يأخذوا عنه. ثم حوكم على ما نسب إليه من ادعاء النبوة والألوهية وقوله بسقوط الحج إلى مكة. وشهدت عليه زوجة ابنه بأنها كانت نائمة على السطح ذات ليلة، وكان معها ابنته، ففوجئت به يغشاها. فلما هبت مذعورة مستنكرة ذكر لها أنه إنما جاء ليوقطها لصلاة الفجر. كما اتهمته أمام القضاة الذين كانوا يحاكمونه بأنه أمرها صبيحة ذلك اليوم، وهي نازلة من السطح وكان هو في أسفل الدَرَج، أن تسجد له فرفضت. وانتهت المحاكمة بأن ضرب ألف سوط وقُطعت أطرافه وصُلب وأُحرقت جثته وعُرضت على الناس عدة أيام على الجسر ببغداد، وكان ذلك سنة ٣٠٩ هـ.

والغريب أن بعض أتباعه قد زعموا أن الذي قُتل وصُلب ليس هو الحلاج بل عدوه، أُلقي عليه شبهة فظنه الناس الحلاج. كما ادعى بعضهم أنهم رأوه بعد القتل راكباً حماراً في طريق النهروان، وأنه قال لهم: لعلكم مثل هؤلاء البقر الذين ظنوا أنني أنا المقتول والمضروب (انظر في حياة الحلاج وشخصيته "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ ٨ / ١١٢-١٤١، و"تكملة تاريخ الطبري" للهمداني/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار سويدان/ بيروت/ مجلد ١١ من تاريخ الطبري/ ٧٩-٨٩، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان/ تحقيق د. إحسان عباس/ دار

صادر/ بيروت/ ٢/ ١٤٠-١٤٦، و"الفخري في الآداب السلطانية" لابن الطُّقْطُقَا/ دار صادر/ بيروت/ ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م/ ٢٦٠-٢٦٢، و"دائرة المعارف" للبستاني/ مجلد ٧/ مادة "الحلاج"، و"تاريخ الشعوب الإسلامية" لكارل بروكلمان/ ترجمة أبو العلا عفيفي/ لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة/ ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م/ ٨٥-٨٦، و"ظهر الإسلام" للدكتور أحمد أمين/ ط ٤/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٦م/ ٢/ ٦٩-٧٦، و"شخصيات قلقة في الإسلام" للدكتور عبد الرحمن بدوي/ ط ٢/ وكالة المطبوعات/ الكويت/ ١٩٧٨م/ ٥٩-٩١ حيث يجد القارئ ترجمة لبحث ماسينيون المسمى: "المنحنى الشخصي لحياة الحلاج شهيد الصوفية في الإسلام"، و"العصر العباسي الثاني" للدكتور شوقي ضيف/ ط ٢/ دار المعارف بمصر/ ٤٧٧-٤٨٢، و"ديوان الحلاج"/ صنعة د. كامل مصطفى الشبيبي/ ط ٢/ دار آفاق عربية/ بغداد/ ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م/ ١٥-٢٢).

وقد جمع د. كامل مصطفى الشبيبي ديوان الحلاج، ويضم شعراً مقطوعاً بنسبته إلى الشاعر، ويبلغ نحو خمسمائة بيت، وشعراً آخر يُنسب إليه وإلى غيره، وعدد أبياته مائتان وأربعة وثلاثون. ومعظم أشعار الحلاج عبارة عن مقطوعات، والقليل منه قصائد، وهي في الغالب ليست بالطويلة. ويدور شعره بوجه عام حول مشاعره تجاه الله سبحانه وعلاقته به عز

وجل . وأحياناً ما يتناول بعض الأفكار الخاصة بالعلاقة بينه سبحانه وبين عباده من البشر . وبعض مقطوعاته عبارة عن أَلغاز شعرية . ويقل في شعره الوعظ إلى حد كبير . ومن هذا اللون الأخير قوله:

إلى كم أنت في بحر الخطايا	تبارز من يراك ولا تراه
وسمْتُكَ سَمْتُ ذِي وَرَعٍ وَدِينٍ	وفعلُكَ فعلٌ متَّبِعٍ هَوَاهُ؟
فيا من بات يخلو بالمعاصي	وعينُ الله شاهدةٌ تراه
أَظْمَعُ أن تنال العفو ممن	عصيتَ وأنت لم تطلب رضاهُ؟
أَتَفْرَحُ بالذنوب وبالخطايا	وتنساه ولا أحدٌ سواه؟
قُبِ قبل الممات وقبل يومٍ	يلاقِي العبدُ ما كسبت يداهُ

وكذلك هذا البيتان:

يا جاهلاً مسلك طرق الهدى	فما على الحق له موقفُ
خَلَّ طريق الجَهْل، واعدل إلى	مولى له الأعمال تُستأنفُ

وهو نظم، كما ترى، لا يستحق من الناحية الفنية أن نقف حياله، وأحسن منه وأدفاً بالمشاعر والصور التشخيصية قوله:

دنيا تخادعني كأنـ	ي لستُ أعرف حالها
حَظَرَ الإلهُ حرامها	وأنا اجتبتُ حلالها
مَدَّتْ إلي يمينها	فرددتها وشمالها
ورأتها محتاجة	فوهبتُ جملةً لها

ومتى عرفتُ وصالها حتى أخاف مَلاها؟
على أنه مما يلفت النظر أن الحلاج، الذي قال هذا، هو نفسه الذي
يقول في موضع آخر:

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال، أيها الرائي؟
ألقاه في اليم مكتوفاً، وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء!
وهو يخالف ما سبق كل المخالفة، إذ إن البيتين الأخيرين يقرران
الجبر على نحو لا يحتمل تأويلاً، على حين أن البيتين السابقين والمقطوعة التي
قبلهما تقرّع المقصرين وتستحثهم على استفراغ كل جهدهم في عمل
الطاعات والبعد عن المعاصي والخطايا، مما يفيد إيمان الشاعر بحرية الإرادة
الإنسانية واستطاعة العبد الفعل والتترك.

وينتهي الشاعر أيضاً من طريق أخرى إلى أنه لا معنى لمعاقبة
الخطيء على ما يرتكب من شر، إذ إنه يرى نفسه والله شيئاً واحداً،
وذلك عن طريق عقيدة الحلول، التي عبر عنها في أشعاره كثيرة. ومن ثم
فإن الخطيئة التي يرتكبها إنما تقع في ذات الوقت (أستغفر الله) منه سبحانه
أيضاً، يقول مستنكراً:

أنا أنت بلا شك	فسبحانك سبحاني!
وتوحيدك توحيدي	وعصيانك عصياني
وإسقاطك إسقاطي	وغفرانك غفراني

ولم أَجْلِدْ يا رَبِّ إذا قيل: هو الزاني؟
وأغلب الظن أن هذا التناقض يرجع إلى أن الحلاج قال الشعر
الذي يوحى بإيمانه بجرية الإرادة الإنسانية أولاً، ثم غامت على عقله غمامة
الاعتقاد بالجبر، ثم انتهى به المطاف إلى ادعاء الحلول والاتحاد مع الله
سبحانه. وأغلب الظن أن الحلاج لم يجرؤ على هذا الزعم دفعة واحدة، بل
وصل إليه على درجات. فقد كان يقف أولاً موقف الحب الخاضع
المستكين:

إذا دهمتك خيول البَعَا	د ونادى الإيَّاسُ بقطع الرجا
فخذ في شمالك تُرْسُ الخَضُو	ع، وشُدَّ اليمين بسيف البُكَاءِ
ونَفْسُكَ! نفسك! كن خائفاً	على حذرٍ من كمين الجفأ
فإن جاءك الهجر في ظلمة	فسرِّ في مشاعل نور الصفا
وقل للحبيب: ترى ذلتي	فجُدْ لي بعفوك قبل اللقا
فوالحُبِّ لا تنثني راجعاً	عن الحبِّ إلا بعوض المنى

وهي أبيات تمتلئ، كما ترى، بالصورة الطريفة التي لا ترد عادةً في
مثل هذا السياق، إذ تبرز أدوات الحرب وأسلحتها في مواقف التذلل
والانكسار، والمفروض أنها للهجوم والاقتحام والعدوان. لكم هي غريبة
"خيول البعاد"، و"ترس الخضوع"، و"سيف البكاء"، و"كمين الجفأ"! إن
الشاعر هنا يقرن بين المتناقضين. وهو في هذا كمن يجمع بين الماء والنار في

إناء واحد . ولعل الأبيات التالية لا تبعد في روحها ومنحهاها عن الأبيات
السالفة:

نواله منك عجبُ	الصَّبُّ، رَبِّ، محبُّ
وُبُعده عنك قربُ	عذابه فيك عذبُ
بل أنت منها أحبُّ	وأنت عندي كروحي
وأنت للقلب قلبُ	وأنت للعين عينُ
لَمَّا تحبُّ أحبُّ	حسبي من الحب أني

ومثلها قوله:

فاستارت، فما لها من غروبُ	طلعتُ شمسُ من أحبُّ بليلٍ
ل، وشمس القلوب ليس تغيبُ	إن شمس النهار تغرب بالليـ
إشتياقاً إلى لقاء الحبيبُ	من أحبَّ الحبيبَ طار إليه

وقوله وقد صرح فيه باسم "الله" سبحانه على شكل تهجئة

لحروفه: الألف فاللام فاللام فالهاء:

وتلاشت بها همومي وفكري	أحرفُ أربعُ بها هام قلبي
ولامٌ على الملامة تجري	ألفُ تألفُ الخلائق بالصفح،
ثم هاءُ بها أهيمُ وأدري	ثم لامٌ زيادةٌ في المعاني

وهو في تعبيره عن هذا الحب قد يلجأ إلى عبارات الغزل البشري:

نسَمَاتِ الرِّيحِ، قولي للرَّشَا: لم يزدني الوَرْدُ إلا عطشاً

لي حبيبٌ حُبُّه وَسَطُ الحشا إن يشأُ يمشي على خدي مشى
 روحه روعي، وروحي روحه إن يشأُ شَتُّ، وإن شَتُّ يشأُ
 فالحبيب "رَشَأٌ"، والحب على استعداد أن يفرش له "خده" ليطأه
 ويمشي عليه. وفي الأبيات التالية نراه يختتمها بالتصريح باستعداده أن يفديه
 بنفسه من كل سوء، وكأنه يخاطب حبيبًا من البشر يمكن أن يلحقه أذى:
 ما زلت أجري في مجار الهوى يرفعني الهوى وأنحطُ
 فتارة يرفعني مَوْجُهَا وتارة أُمُوى وأنغطُ
 حتى إذا صيرني في الهوى إلى مكان ماله شطُ
 ناديت: يا من لم أبخُ باسمه ولم أخنه في الهوى قَطُ
 تقيك نفسي السوء من حاكمٍ ما كان هذا بيننا الشرطُ
 وإننا لتساءل: وأي شرط كان بينهما؟ هل يمكن أن يشترط
 العبد على مولاه شرطاً؟ ألا إن هذا لعجيب. ويهيج الوجد بالحلاج
 فيصرخ ألماً، ويتلوى من تباريح الحب:

أنتم ملكتم فؤادي فهمت في كل وادي
 ردّوا علي فؤادي فقد عَدِمْتُ رِقادي
 أنا غريب وحييد بكم يطول انفرادي

* * *

وما وجدت لقلبي راحة أبداً وكيف ذاك، وقد هَيَّئْتُ للكدرِ؟

لقد ركبت على التغير . وا عجباً
 كأنني بين أمواج تقلبني
 الحزن في مهجتي، والنار في كبدي
 ممن يريد النجاة في المسلك الخطر
 مقلّباً بين إصعادٍ ومنحدرٍ
 والدمع يشهد لي، فاستشهدوا بصري

* * *

إذا ذكرتكَ كاد الشوق يتلفني
 وصار كلّي قلوباً فيك واعيةً
 فإن نطقْتُ فكلّي فيك ألسنةً
 وغفلتي عنك أحزانٌ وأوجاعٌ
 للسُّقم فيها وللالام إسراعٌ
 وإن سمعتُ فكلّي فيك أسمعٌ

* * *

أنا سقيمٌ عليل
 أجري حُشاشة نفسي
 أنا حبيسٌ، فقل لي:
 حتى يظاهر روحي
 طوبى لعَيْنٍ محبٍ
 وليس في القلب واللـ
 فداوني بدواك
 في سُفنٍ بحر رضاك
 متى يكون الفكّاك؟
 ما مضى من جفاك
 حبوتها من رُؤاك
 ببّ موضعٍ لسواك

إنه كل شيء في حياته، فهو لا يبصر سواه ولا يسمع إلا إياه.
 وليس في قلبه، كما قال وكما يعيد في البيتين التاليين، مكان لكائن حاشاه:
 مكانك من قلبي هو القلب كله
 فليس لشيء فيه غيرك موضع
 وحطّك روحي بين جلدي وأعظمي
 فكيف تراني، إن فقدتُك، أصنع؟

وهو يقول إن الهجر بالنسبة له ولأمثاله هو الموت، والوصال هو
البعث. ومع ذلك فهم يموتون من الحب. كيف ذلك؟ لا أدري:

والله لو حلف العشاق أنهم مو موتى من الحب أو قتلى لما حنثوا
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا، وإن عاد وصل بعده بعثوا
ترى المحبين صرعى في ديارهمو كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وهو يعلن شوقه وتوقه لهذا الحب المميت، الذي يعود فيقول إن
روحه قد أبقت منه، ليعود ثانية فيؤكد أنه لو نجح في هذا الإباق وفطم
كبده عن هذا الحب لذاب واحترق. ألا إنه لأمرٌ محيرٌ أشد التحير:

أنا الذي نفسه تشوقه لحتفه عنوة وقد علقته
أنا الذي في الهموم مهجته تصيح من وحشة وقد غرقت
أنا حزينٌ معذبٌ قلقٌ رُوحِي من أسر حبها أبقت
كيف بقائي، وقد رمى كبدي بأسهم من لحاظه رشقت؟
لو لفطم تعرضت كبدي ذابت بحر الهموم واحتترقت
باحت بما في الضمير يكتمه دموع بث بسرّه نظقت
من هنا فلا عجب أن نجده يؤكد أن ما يلاقيه الحب من عذاب

الهُوى هو أحلى من النعيم:

قضى عليه الهوى ألا يذوق كرى وبات مكتحلا بالصّاب لم يتم
يقول للعين: جودي بالدموع، فإن تبكي بجِدٍّ، وإلا فلنجد بدم

فمن شروط الهوى أن الحب يرى
بؤس الهوى أبداً أحلى من النعم
كذلك لا عجب أن نراه لا يدري بعد الهجر من أمر نفسه شيئاً:

أرسلت تسأل عني: كيف كنت، وما
لقيت بعدك من هم ومن حزن
لا كنت إن كنت أدري كيف كنت، ولا
لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن

* * *

لا كنت إن كنت أدري
كيف السبيل إليك
أفنيته عن جميعي
فصرت أبكي عليك
وثمة بيت يشير فيه إلى أن ما حدث له كان من جرّاء بطره في
الحب:

قد كنت في نعمة الهوى بطراً
فأدركنت عقوبة البطر
لكنه يعود فيدعي أن الله قد أوحى إليه بأنه أدناه إليه واصطفاه،
وخلع عليه خلعة الأمان:

خاطبني الحق من جناني
فكان علمي على لساني
قرّني منه بعد بعد
وخصني الله واصطفاني
وبعد ذلك صار يظن نفسه كموسى عليه السلام، فالله يتجلى له ليكلمه،
وهو يخرّ غائباً عن الوعي:

عقد النبوة مصباح من النور
معلق الوحي في مشكاة تأمور
بالله ينفخ نفخ الروح في خلدي
لخاطري نفخ إسرافيل في الصور

إِذَا تَجَلَّى لِرُوحِي أَنْ يُكَلِّمَنِي رَأَيْتُ فِي غَيْبَتِي مُوسَى عَلَى الطُّورِ
 ورغم أن البيت الأول يغشيه الغموض فالبيتان الثاني والثالث واضحان
 الدلالة بما فيه الكفاية لما نحن فيه . ولا شك أن القارئ قد تنبه لوصف
 الشاعر ربه سبحانه وتعالى بـ "روحي" ، وهو ما سيفصل القول فيه ويلج
 عليه ويؤكد في مواضع أخرى من شعره كما سنرى بعد قليل . وقد عاد
 الحلاج فشبه نفسه ثانية بموسى عليه السلام، ولكن دون أن يشير إلى
 الصعق والغياب عن الوعي . بالعكس إنه يصور نفسه واقفا على الطور في
 قلب النور:

يَا غَافِلًا لَجْهَالَةٍ عَنْ شَانِي	هَلَا عَرَفْتَ حَقِيقَتِي وَبَيَانِي
فَبَادَتِي لِلَّهِ سِتَّةُ أَحْرَفٍ	مِنْ بَيْنِهَا حَرْفَانِ مَعْجُومَانِ
حَرْفَانِ أَصْلِيٍّ وَآخَرُ شَكْلُهُ	فِي الْعُجْمِ مَنْسُوبٌ إِلَى إِيْمَانِي
فَإِذَا بَدَأَ رَأْسُ الْحُرُوفِ أَمَامَهَا	حَرْفٌ يَقُومُ مَقَامَ حَرْفٍ ثَانِ
أَبْصَرْتَنِي بِمَكَانِ مُوسَى قَائِمًا	فِي النُّورِ فَوْقَ الطُّورِ حِينَ تَرَانِي

وهو يقصد بهذه الحروف معنى "الاتحاد"، الذي لم يشأ، فيما يبدو،
 أن يعلنه صريحا واضحا آنذاك . وكانت الخطوة الثانية، فيما يبدو، زعمه
 الذي تعبر عنه الآيات التالية من أنه تمر عليه أحوال يظن فيها أنه هو والله
 شيء واحد:

عَجِبْتُ مِنْكَ وَمَنْنِي يَا مُنْيَةَ الْمُتَمَنِّي

أَدَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّكَ أُنِّي
وَعَبْتُ فِي الْوَجْدِ حَتَّى أَفْتَيْتَنِي بِكَ عَنِّي
على أن هذا الفناء في الله، حسب زعمه، لم يكن دائما، بل كانت

تعقبه فترات من الانفصال والافتراق:

قَدْ تَحَقَّقْتُكَ فِي سِـ رِّي فَنَاجَاكَ لِسَانِي
فَاجْتَمَعْنَا لِمَعَانِ وَافْتَرَقْنَا لِمَعَانِ
إِنْ يَكُنْ غَيِّكَ التَّغَى ظِيمٌ عَنِ لَحْظِ عَيَانِي
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الْوَجْدَ دُ مِنْ الْأَحْشَاءِ دَانِي

وفي المقطوعة التالية نراه يدعو سبحانه أن يمحو المسافة الفاصلة

بينهما حتى يكونا شيئا واحدا على الدوام:

أَنْتَ أَمْ أَنَا هَذَا فِي الْهَيْنِ؟ حَاشَاكَ حَاشَاكَ مِنْ إِثْبَاتِ اثْنَيْنِ
هُوَ يَتَى لَكَ فِي لَائِيَّتِي أَبَدًا كُلِّي عَلَى الْكُلِّ تَلَيْسُ بَوَجْهَيْنِ
فَأَيْنَ ذَاتُكَ عَنِّي حَيْثُ كُنْتُ أَرَى؟ فَقَدْ تَبَيَّنَ ذَاتِي حَيْثُ لَا أُنِّي
فَأَيْنَ وَجْهُكَ مَقْصُودًا بِنَاطِرَتِي فِي بَاطِنِ الْقَلْبِ أَمْ فِي نَاطِرِ الْعَيْنِ؟
بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي يُنَازِعُنِي فَارْفَعْ بِلُطْفِكَ إِنِّي مِنَ الْبَيْنِ

وإن كنت لا أفهم كيف تواتيه نفسه على أن يقول عن الله، الذي

يزعم أنه قد اتحد معه وأصبحا شيئا واحدا، إنه وإياه قد "امتتحا في

العالم المالحق". إن هذه هلوسة، بل أخشى أن تكون ما هو أسوأ من ذلك بكثير. وقد مضى بعد ذلك في ترديد هذا الزعم الخطير:

مُزَجَّتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزَّجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
فَإِذَا مَا شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ

* * *

أَنَا مِنْ أَهْوَى، وَمِنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَّلْنَا بَدَنًا
نَحْنُ، مُذْ كَمَا عَلَى عَهْدِ الْهَوَى، تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ بِنَا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا
أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ قِصَّتِنَا، لَوْ تَرَانَا لَمْ تَفَرِّقْ بَيْنَنَا
رُوحَهُ رُوحِي، وَرُوحِي رُوحَهُ مَنْ رَأَى رُوحِينَ حَلَّتْ بَدَنًا؟
وَاتَّهَى الْأَمْرُ بِأَنْ قَالَ بِكُلِّ تَبَجُّحٍ وَغُرُورٍ:

أَنَا أَنْتَ بِلَا شَكِّ فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَتَوْحِيدُكَ تَوْحِيدِي وَعَصِيَانُكَ عَصِيَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَغَفْرَانُكَ غَفْرَانِي
وَلَمْ أَجْلِدْ يَارَبِّ إِذَا قِيلَ، وَهُوَ الزَّانِي؟

وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ يَكْشِفُ عَنِ الْمُرَادِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ اللَّفَةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي لَهَا الْحَلَاज. إِنَّهُ يَرِيدُ التَّقْلِيلَ مِنْ قِيُودِ الدِّينِ، لَا بِالنِّسْبَةِ

للواجبات فقط، بل أيضاً بالنسبة للآثام، التي مثَّل لها بالزنا . ويسمى الصوفية مثل هذا الكلام "شطحا" . وهم يعرفون "الشطح" بأنه "كلام يترجمه اللسان عن وَجْدٍ يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى"، وأنه "عبارة مستغرَبة في وصف وَجْدٍ فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته" (السراج/ اللمع/ تحقيق ألن نيكلسون/ ليدن/ ١٩٤١م / ٣٤٦، ٣٧٥) . ويشرح د . عبد الرحمن بدوي ذلك قائلا: "الشطح إذن تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة في حضرة الألوهية، فتدرك أن الله هي، وهي هو" (د . عبد الرحمن بدوي/ شطحات الصوفية/ ط٣/ وكالة المطبوعات/ الكويت/ ١٩٧٨م / ١ / ١٠) . وهذه دعوى خطيرة غير معقولة، وأرى أن الأفضل تعريف "الشطح" بأنه "الزعم الزائف من قِبَل شخص ما مجلول الله فيه . وأساس هذا الادعاء هو الدجل أو الاضطراب الفكري أو النفسي" . ولم تكن هذه الشطحات الحلولية الحلاجية مقصورة على الشعر، فقد ذكر تلميذه إبراهيم الحلواني أنه سمعه يدعو بعد الصلاة ذات مرة بكلام جاء فيه: "يا هو أنا، وأنا هو، لا فرق بين إنِّي وهُوَيْتِكَ إلا الحدوث والقَدَم"، ثم التفت إليه ضاحكاً وقال له: "أما ترى أن ربي ضرب قَدَمه في حدوثي حتى استهلك حدوثي في قَدَمه فلم يبق له إلا صفة القديم ونطقي في تلك الصفة؟ والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القَدَم ينكرون عليَّ ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي" (أخلاق

الحلاج/ جمع وتحقيق لويس ماسينيون/ ١٩٥٧م/ ٢٠). والعجيب أن بروكلمان يرجع رفض علماء الدين لهذه المزاعم الحلاجية السخيفة إلى خطورتها على "النظام الاجتماعي المتهافت" على حد تعبيره (بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية/ ٢٣٨). ولا أدري، ولست إخال أدري، ما العلاقة بين ادعاءات الحلاج هذه والنظام الاجتماعي للدولة العباسية في عصره.

وأحسب أن هذا النص الشعري الأخير قد يعضد الاتهام الذي شهدت به زوجة ابنه أمام القضاة حين محاكمة الشاعر، إذ قالت إنها لم تشعر، وهي نائمة فوق سطح البيت، إلا والحلاج قد غشيها، فهبت مذعورة تسأله عما يريد، وكانت نائمة إلى جوار ابنته، فهذا روعها قائلاً إنه إنما جاء ليوقظها للصلاة (انظر "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي/ ٨/ ١٣٥، وأحمد أمين/ ظهر الإسلام/ ٢/ ٧١-٧٢). ولقد كان الأولى به، لو كان صادقاً، أن يناديها هي وابنته من بعيد، أو أن يوقظ ابنته أولاً وتوقظ هي بدورها زوجة الابن. ألم يكن هذا هو التصرف المنطقي السليم؟ ولعله من أجل ذلك قد كرر القول في أشعاره بأنه يقول أشياء لا

يعلم بها اللوح والقلم، ويجهلها فلا يسجلها الكرام الكاتبون:

شيءٌ بقلبي، وفيه منك أسماءٌ	لا النور يدري به، كلا، ولا الظلمُ
ونور وجهك سرٌّ حين أشهده	هذا هو الجود والإحسان والكرمُ

فخذ حَديثي، حَبِّي. أنت تعلمه لا اللوح يعلمه حقاً ولا القلم

* * *

قلوب العاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون
والسنة بأسرار تناجي تغيب عن الكرام الكاتبين
وما دام الكرام الكاتبون يفوتهم ما يقول فلا حساب إذن، لأن
الحساب إنما يكون على وفق صحائف الأعمال.

ثم أراد الحلاج أن يفلسف زعم "الحلول" فذكر "الناسوت
واللاهوت"، ظناً منه أنه يمكنه أن يبهر العقول بمثل هذه المصطلحات الغريبة
على العقل والضمير المسلم. قال يدعى أن الناسوت (أي الصورة الإنسانية)
واللاهوت هما وجهان لحقيقة واحدة. أي أن الإنسان والله شيء واحد:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الأكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وإن كنت لا أفهم كيف "يلحظ الحاجب الحاجب"، فاللحظ إنما
يكون بالعين لا بالحاجب. ومما ورد فيه من شعره أيضاً لفظاً "الناسوت"
و"اللاهوت" قوله:

دخلت بناسوتي ليدك على الخلق ولولاك، لاهوتي، خرجت من الصدق

بيد أن دعوى "الحلول" ليست هي الدعوى الوحيدة المستشعة
في شعر الحلاج. لنسمعه يقول:

كفرتُ بدين الله، والكفر واجب عليّ، وعند المسلمين قبيحٌ
وهذا البيت الواضح العبارة والدلالة يحاول البعض أن يلويه عن
حقيقة معناه، زاعماً أن المقصود به شيء آخر، وأن "الكفر" هنا يعني
"التغطية". أي أن الحلاج يغطي معتقده القائم على أن حقيقة الأديان كلها
واحدة، ولا يباح به لعلوه على أفهام الناس (انظر تأويل هذا البيت في
"ديوان الحلاج" / صنعة د. مصطفى كامل الشيبني / ٣٩ / هامش ١). ولقد
فات من أول البيت على هذا النحو العجيب أن "كفر" بمعنى "غطى" لا
تأخذ "الباء"، إذ يقال: "كفر الفلاح الحب" لا "كفر الفلاح بالحب". إنما
الذي يأخذ "الباء" هو "الكفر" الذي يناقض "الإيمان"، أي كفر الإنكار لا
كفر "التغطية". كذلك لو كان "الكفر" في بيت الحلاج المزعج هو
"التغطية"، فلماذا خص المسلمين وحدهم، مع أن أهل كل دين لا يقبلون
دعوى الحلاج بتساوي الأديان كلها، ويرَوْن أن دينهم وحده هو الدين
الصحيح؟

ومن شناعاته أيضاً قوله:

ركبتُ البحر، وانكسر السفينة	ألا أبلغ أحبائي بأني
ولا البطحاً أريد ولا المدينة	على دين الصليب يكون موتي

الذي ينبغي لتحريفه عن معناه الخالي من أي لبس بعض الصوفية فيدعون أن "مراده أنه يموت على دين نفسه، فإنه هو الصليب. وكأنه قال: "أنا أموت على دين الإسلام"، وأشار إلى أنه يموت مصلوباً". قال بذلك أبو العباس المرسي (ديوان الحلاج/ ٨٥/ هامش ٢، ود. عبد الرحمن بدوي/ شخصيات قلقة في الإسلام/ ٦٩/ هامش ١، ود. شوقي ضيف/ العصر العباسي الثاني/ ٤٨٢). وهو كلام غير مفهوم ولا متماسك، وحتى لو سلمنا جدلاً بهذا التأويل الذي يرفضه العقل واللغة، فماذا نفعل بـ"البطحا والمدينة" هاتين، ومغزى ذكرهما هنا واضح تمام الوضوح، إذ الشاعر أيضاً يتبرأ من مكة (البطحاء) والمدينة؟

ومن أغاز الحلاج الشعرية (وهي قائمة على تهجي حروف الكلمة التي يُلغز بها) قوله عن "الله" سبحانه وتعالى:

أحرفُ أربعُ بها هام قلبي	وتلاشت بها همومي وفكري
ألفُ تألفُ الخلائقَ بالصفِّ	ح، ولأم على الملامة تجري
ثم لأم زيادة في المعاني	ثم هاءُ بها أهيم وأدري

وكذلك هذه الأبيات عن "التوحيد":

ثلاثة أحرف لا عجم فيها	ومعجومان واقتطع الكلام
فمعجموم يشاكل واجديه	ومتروك يُصدقهُ الأنعام
وباقى الحرف مرموزٌ معنًى	فلا سَفَرٌ هناك ولا مُقام

ثم هذه المقطوعة التي يُلغز فيها عن "الاتحاد":

يا غافلاً لجهالة عن شاني	هلاً عرفتَ حقيقتي وبياني؟
فعبادتي لله ستة أحرف	من بينها حرفان معجومان:
حرفان: أصلي، وآخر شكلة	في العُجْم منسوبٌ إلى إيماني
فإذا بدا رأس الحروف أمامها	حرفٌ يقوم مقام حرفٍ ثاني
أبصرتني بـمكان موسى قائماً	في النور فوق الطور حين تراني

فإذا أتينا إلى السمات الفنية لشعر الحلاج فإننا نلاحظ الآتي:

أولاً: تكثر في هذا الشعر ألفاظ "الوهم"، و"السر والأسرار"، و"الحق"، و"الوجد"، و"السُّكر"، و"الحُب"، و"الحبيب"، و"اللقاء"، و"العشق"، و"الشوق" و"النار"، و"الضنى"، و"السقام" و"العذاب"، و"الروح"، و"الكل"، و"البعض والتبعض"، و"القلب"، و"البحر والبحار"، و"الخوف"، و"القتل"، و"الموت"، و"الهجر"، و"الجفا"، و"مولاي". وكلها، كما ترى، ألفاظ الصوفية، وإن كان بعضها يجري على ألسنة العشاق أيضاً، وأخذها منهم المتصوفة كما هو معروف:

ونفسك! نفسك! كن خائفاً	على حذرٍ من كمين الجفا
فإن جاءك الهجر في ظلمة	فسر في مشاعل نور الصفا
وقل للحبيب: ترى ذلتي	فجد لي بعفوك قبل اللقا

* * *

العشق في أزل الأزال من قَدَمٍ فيه به منه يبدو فيه إبداءُ
العشق لا حَدَثٌ إذ كان هُوَ صفةً من الصفات لَمَنْ قتلاه أحياءُ

* * *

كذا الحقائق: نار الشوق ملتهب عن الحقيقة إن باتوا وإن ناؤوا

* * *

ليبك لبيك يا سري ونجواني لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي
يا كل كلي، يا سمعي، يا بصري يا جملي وتباعيضي وأجزائي

...

حي لولاي أضناني وأسقمي فكيف أشكو إلى مولاي مولائي؟
كأنني غرق تبذروا نامله تعوُّثًا، وهُوَ في بحر من الماءِ

...

إن كنتَ بالغيب عن عيني محتجبًا فالقلب يرعاك في الإبعاد والنائي

* * *

عذابه فيك عذبٌ ويُعْدهُ عنك قُرْبُ

...

وأنتَ للعَيْنِ عَيْنٌ وأنتَ للقلبِ قلبٌ
حسبي من الحب أني لَمَّا تحبُّ أحبُّ

* * *

كُتِبْتُ، ولم أُكْتَبْ إليك، وإنما
وذلك أن الروح لا فرق بينها
كُتِبْتُ إلى روحي بغير كتاب
وبين محبيها بفصل خطاب

* * *

والعلم علما ن: مطبوعٌ ومكتسبٌ
وخُضْتُ بحراً، ولم ترسبْ به قدمي
لأن روحي قديماً فيه قد عطشتُ
والبحر بجران: مركوبٌ ومرهوبٌ
خاضتهُ روحي، وقلبي منه مرعوبٌ
والجسم ما مَسَّه من قبلُ تركيبُ

* * *

من أحب الحبيب طار إليه
إشتياقاً إلى لقاء الحبيب

* * *

اقتلونني يا ثقاتي
ومماتني في حياتي
سمتُ روحي حياتي
فأقتلونني واحرقوني
تجدوا سرَّ حبيبي
إن في قلبي حياتي
وحياتي في مماتي
في الرسوم الباليات
بعضامي الفانيات
في طوايا الباقيات

* * *

لي حبيبٌ أزور في الخلوات
هو أدنى من الضمير إلى الوه
حاضرٌ غائبٌ عن اللحظات
سم وأخفي من لائح الخطرات

* * *

وغياب عني حفيظ قلبي عرفتُ سري، فأين أنت؟
أنت حياتي وسر قلبي فحيثما كنتُ كنتَ أنت

* * *

والله لو حلف العشاق أنهممو مَوْتِي من الحب أو قَتَلِي لما حنثوا
قوم إذا هُجِرُوا من بعدما وُصِلوا ماتوا، وإنْ عادَ وُصِّلَ بعده بُعِثوا

* * *

واني، وإنْ أُهْجِرْتُ، فالهجر صاحبي وكيف يصح الهجر، والحبُّ واحدٌ؟

* * *

قد تصبرتُ، وهل يصـ بـر قلبي عن فؤادي؟
مازجتُ رُوحك رُوحِي في دُنُوِّي وبِعَادِي

* * *

لأنوار نور النور في الخلق أنوارُ وللسر في سر المسرّين أسرارُ

* * *

يا موضع الناظر من ناظري ويا مكان السر من خاطري
يا جملة الكل التي كلها أحبُّ من بعضي ومن سائري

...

يسْري وما يدري، وأسراره تسْري كلمح البارق النائر
كسرعة الوهم لمن وهمُّه على دقيق الغامض الغائر

في لُجٍّ بِحَرِّ الْفِكْرِ تَجْرِي بِهِ لَطَائِفُ مَنْ قُدْرَةُ الْقَادِرِ
إِذَا سَكَنَ الْحَقُّ السَّرِيرَةَ ضَوْعَفَتْ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ لِأَهْلِ الْبَصَائِرِ:
فَحَالُ يُبِيدُ السَّرَّ عَنْ كُفِّهِ وَصَفِهِ وَيَحْضُرُهُ لِلْوَجْدِ فِي حَالٍ حَائِرِ
وَحَالُ بِهِ زُمْتُ ذُرًّا السَّرِّ فَانْتَشَتْ إِلَى مَنْظَرٍ أَفْنَاهُ عَنْ كُلِّ نَاضِرِ

* * *

وَأَطْيَبُ الْحَبِّ مَا نَمَّ الْحَدِيثُ بِهِ كَالنَّارِ لَا تَأْتِ نَفْعًا وَهِيَ فِي الْحَجَرِ

* * *

فَأَنْتَ فِي سَرٍّ غَيْبٍ هَمِّي أَخْفَى مِنَ الْوَهْمِ فِي ضَمِيرِي

* * *

لَا الْوَجْدُ يَدْرِكُ غَيْرَ رَسْمٍ دَائِرٍ وَالْوَجْدُ يَدُثِّرُ حِينَ يَبْدُو الْمَنْظَرُ

* * *

كَفَاكَ أَنَّ السُّكْرَ أَوْجَدَ كَرِبَتِي فَكَيْفَ بِمَجَالِ السُّكْرِ، وَالسُّكْرُ أَجْدَرُ؟
فَحَالَاكَ فِي حَالَانِ: صَحْوٌ وَسُكْرٌ فَلَا زِلْتُ فِي حَالِي: أَصْحَوْتُ وَأَسْكُرُ

* * *

سَرَائِرُ سِرِّي تَرْجِمَانٌ إِلَى سِرِّي إِذَا مَا التَقَى سِرِّي وَسِرُّكَ فِي السَّرِّ
وَمَا أَمْرُ سَرِّ السَّرِّ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَهْمِي بِسَرِّ السَّرِّ مِنْهُ إِلَى سِرِّي

* * *

لَوْ شِئْتُ كَشَفْتُ أَسْرَارِي بِأَسْرَارِي وَجِئْتُ بِالْوَجْدِ فِي سِرِّي وَاضْمَارِي
لَكِنْ أَغَارَ عَلَى مَوْلَايَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُهُ إِلَّا بِانْكَارِ

...

ما لاح نورك لي يومًا لا تُبتهُ
إلا تنكرت منه أي إنكارٍ

* * *

وطينٌ ثم نارٌ ثم نورٌ
وبردٌ ثم ظلٌ ثم شمسٌ

....

وسُكرٌ ثم صحوٌ ثم شوقٌ
وقربٌ ثم وصلٌ ثم أنسٌ

.....

لأن الخلق خدام الأمانى
وحق الحق في التقديس قدسٌ

* * *

حويتُ كُلِّي كلِّك يا قدسي
تكاشفني حتى كأنك في نفسي

* * *

همُّو أهل سرٍّ، وللأسرار قد خلَقوا
لا يصبرون على من كان فحاشًا

* * *

لي حبيبٌ حُبُّه وسَط الحشا
إن يشأ يمشي على خدي مَشَى
روحه روحي، وروحي روحه
إن يشأ شَتَّ، وإن شَتَّ يشا

* * *

عجبتُ لكلي كيف يحملُه بعضي
ومن ثقل بعضي ليس تحملي أَرْضِي

* * *

ما زلت أجري في مجار الهوى
يرفعني الموج وأنحطُ

	*	*	*
وَصَارَ كُلِّي قَلُوبًا فِيكَ وَاعِيَةً			
فَإِنْ نَطَقْتُ فَكُلِّي فِيكَ أَلْسِنَةً			
	*	*	*
لَمَّا اجْتَبَانِي وَأَدْنَانِي وَشَرَّفَنِي			
لَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ جَارِحَةٌ			
	*	*	*
جُبِلْتُ رُوحَكَ فِي رُوحِي كَمَا			
يُجْبَلُ الْعَنْبَرُ بِالْمِسْكِ الْقَتَقُ			
	*	*	*
فَأَنَا الْحَقُّ حَقٌّ لِلْحَقِّ حَقٌّ			
لَابَسْتُ ذَاتَهُ، فَمَا ثَمَّ فَرْقُ			
	*	*	*
بَاحَتْ بِمَا فِي الضَّمِيرِ يَكْتُمُهُ			
دَمُوعٌ بَثَّ بِسَرِّهِ نَطَقَتْ			
	*	*	*
اتَّحَدَ الْمَعْشُوقُ بِالْعَاشِقِ			
ابْتَسَمَ الْمَوْمُوقُ لِلْوَامِقِ			
	*	*	*
أَنَا سَقِيمٌ عَلِيلٌ			
أُجْرِي حُشَاةَ نَفْسِي			
فَدَاؤُنِي بِدَوَاكِ			
فِي سُنْفَنٍ بِحَرِّ رِضَاكِ			
	*	*	*

أيا مولاي، دعوة مستجير بقربك في بَعَادِكَ والتسلي

* * *

هيكلي الجسم، نُورِي الصِّمِيمُ صَمَدِي الروح ديانٌ عليمٌ
عاد بالروح إلى أربابها فَبَقِيَ الهيكل في التُّرْبِ رَمِيمٌ

* * *

أشار لحظي بعين علم بخالصٍ من خفيٍّ وهَمِ
ولأنّح لاح في ضَميري أدقّ من فهمٍ وهَمِ هَمِي
فخضتُ في لُجٍّ بحرٍ فكري في مركبٍ في رياحٍ عزمي

...

قد وسم الحب منه قلبي بمِسمِ الشوق أيَّ وسمِ

* * *

شيءٌ بقلبي، وفيه منك أسماءُ لا النورُ يدري به، كلا، ولا الظلمُ
ونور وجهك سرٌّ حينَ أشْهَدُهُ هذا هو الجودُ والإحسانُ والكرمُ

* * *

روحه روعي، وروحي روحه مَنْ رَأَى روحين حَلَّتْ بدنا؟

* * *

مالي بغيرك أنْسُ إذ كنتَ خوفي وأمني

* * *

لم يبق بيني وبين الحق تبياني ولا دليلٌ بآياتٍ وبرهانٍ

* * *

هذا تجلّي طلوع الحق: نائرة قد أزهرت في تلايلها بسلطانٍ
لا يعرف الحق إلا من يعرفه لا يعرف القديمي المحدثُ الفاني

* * *

قد تحقّقتك في سـ قري فناجياك لسانِي

...

فلقد صيرك الوجـ د من الأحشاء داني

* * *

إذا كان نعت الحق للحق بيننا فما باله في الناس يخفى مكانه؟

* * *

خاطبني الحق من جناني فكان علمي على لساني

* * *

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبْتُ البحر، وانكسر السفينه

* * *

إنّ كتابي يا أنا عن فرط سُقمٍ وضنِّي

وعن فؤادٍ هائمٍ وعن سَقامٍ وعنّا

...

أُتْلِفْتُ فِيهِ مَهْجَتِي وَصَارَ شَوْقِي دَيْدَنًا

...

مَالِي رُمِيتُ بِالضُنَى وَبِالْصَّدُودِ وَالْوَنَا؟

* * *

نُورُكَ الْمُبْصِرُ حَقًّا لَعِيَانِي لَعِيَانِي

...

أَنَا فِي الْحُبِّ قَتِيلٌ وَمَعَ الْأَحْبَابِ فَانِي

* * *

قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا عَيُونٌ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ

وَالسَّنَةُ بِأَسْرَارٍ تَنَاجِي تَغِيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ

...

وَتَرْتَعُ فِي رِيَاضِ الْقُدْسِ طَوْرًا وَتَشْرَبُ مِنْ بَحَارِ الْعَارِفِينَ

* * *

يَا سِرَّ سِرِّ يَدِقِّ حَتَّى يَخْفِي عَلَى وَهْمِ كُلِّ حَيٍّ

* * *

وَعِصَاصُ فِي أُحْجُرٍ غِزَارٍ تَقْضِي بِالْخَاطِرِ الْوَحْيَ

...

مِنْ حَارٍ فِي دَهْشَةِ التَّلَاقِي أَبْصَرْتَهُ مَيِّتًا كَحَيٍّ

وأحياناً ما يستخدم الحلاج الظرف (والضمير والاسم الموصول)
على أنه اسم جنس:

فليس للأَيْن منك أَيْنٌ وليس أَيْنٌ بحيث أنت
أنت الذي حزت كل أَيْنٍ بنحو "الأَيْن". فأين أنت؟
.....

وَجُرْتُ حَدَّ الدنوّ حتى لم يعلم الأَيْنُ أَيْنُ أنت

* * *

فأين ذاتك عني حيث كنت أرى؟ فقد تبين ذاتي حيث لأَينِي

* * *

بيني وبينك إِنِّي يَنازعني فارفع بلطفك إِنِّي من البَيْنِ

* * *

وإن رُمْتُ فوقاً أنت في الفوق فوقه وإن رُمْتُ تحَّـا أنت كل
مكانٍ

* * *

فلم جرى ذَا يَا أَنَا بحقِّ حَقِّ الأَمْنَا؟
منك دعاني ما دعا فجئته بلا أَنَا

* * *

ناديت: "يا من"، لم أبح باسمه ولم أخنه في الهوى قطُّ

بـ صري

* * *

* * *

* * *

لأنوار نور النور في الخلق أنوارٌ وللسر في سر المُسرِّين أسرارٌ

* * *

وما أُمِرُ سر السر مني، وإنما أهِيم سر السر منه إلى سري
وما أُمِر الأمر مني، وإنما أُمِرَت بأمر الأمر لما قضى أمري
وما أُمِر صبر الصبر مني، وإنما أُمِرَت بصبر الصبر إذ عَزَّي صبري

* * *

لأن الخلق خُدام الأمانِي وَحَقُّ الحقِّ في التقديس قُدُسُ

* * *

حَوِيْتُ بِكُلِّي كُلَّ كَلِّك يا قدسي تَكَشَفَنِي حَتَّى كَأَنَّكَ فِي نَفْسِي

* * *

هذا وجودٌ وَجودِ الواجدين بني التجانس: أصحابي وخلائي

له

* * *

فَإِنْ رُمْتُ شَرْقًا أَنْتَ فِي الشَّرْقِ شَرْقُهُ وَإِنْ رُمْتُ غَرْبًا أَنْتَ نَضَبُ عَيْيَانِي

...

وَأَنْتَ مَحَلُّ الْكُلِّ بَلْ "لَا مَحَلَّهُ" وَأَنْتَ بِكُلِّ الْكُلِّ لَيْسَ بِفَانِي

* * *

بَيَانُ بَيَانِ الْحَقِّ أَنْتَ بَيَانُهُ وَكُلُّ بَيَانٍ أَنْتَ فِيهِ لِسَانُهُ

...

تشير بحق الحق، والحق ناطقٌ وكل لسان قد أتكأ وأنه

* * *

مواصلتي بالصدود، لَمَّا بحق حق الصدود صِلني

* * *

وعن نَحول ساقني طوعًا إلى فَنَّا الفَنَّا
فَلَمْ جَرى ذَا يَا أَنَا بحق حق الأَمْنَا؟

...

فأوصلوا الوصل له بهجر هجر القُرْنَا

* * *

قد قام بعضي ببعض بعضي وهام كلي بكل كلي

* * *

يَا سِرَّ سِرِّ يَدُ حَتَّى يخفي على وهم كل حَيٍّ
كما يتكرر عنده كون الشيء هو نفسه وتقيضه في ذات الوقت:

إِنِّي ...

أعمى بصير، وإنِّي أبلهٌ فَطَنٌ ولي كلامٌ، إذا ما شئت، مقلوبٌ

* * *

وكل كتاب صادر منك وارد إليك بلا ردّ الجواب جوابي

* * *

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

* * *

ولدت أمي أباهما إن ذا من عجباتي

* * *

حاضر غائب، قريب بعيد وهو لم تحوه رسوم الصفات

* * *

والبعد لي منك قرب والقرب لي منك بعد

* * *

واتصل الوصل بافتراق فصار في غيبتني حضوري

* * *

روحه روحي، وروحي روحه من رأى روحين حلت بدنا

* * *

ما لي بغيرك أنس إذ كنت خوفي وأمني

* * *

زعمت أني فئت عني فكيف لي بالدنو مني؟

ومما تكرر عنده أيضاً دخول عدد من حروف الجر المتتالية على
نفس الضمير مما يجعل المعنى أحياناً عسر الفهم، وبحس الإنسان في أحيان
أخرى أن الأمر مجرد بهلوانية لفظية من الشاعر:

العشق في أزل الآزال من قَدَمٍ فيه به منه يبدو فيه إبداءُ

...

صفاته منه فيه غير مُحدثةٍ ومُحدث الشيء ما مبداه أشياءُ

* * *

قالوا: تداو به منه، فقلت لهم: يا قوم، هل يتداوى الداء بالداء؟

* * *

يا وِج رُوحِي من رُوحِي، فوا أسفاً عليّ مني، فإني أصل بـلـوائي

* * *

كأباً له منه عنه إليـ هـ يترجم عن غيب علم الستارهـ

* * *

كان الدليل له منه به وله حقاً وجدنا به علماً بتبيانـ

* * *

هَمِّي به وَلَهُ عَلَيْكَ يا مَنْ إشارتنا إِلَيْكَ

* * *

فيك معنى يدعو النفوس إليـ ودليلٌ يدلُّ منك عليكـا

ويكثر في شعر الحلاج زيادة الهمزة وحذفها أو تسهيلها:
والسلام بالآلف المعطوف مؤتلف كلاهما واحدٌ في السبق معنائ

* * *

ذلوا بغير اقتدار عندما ولَّهوا إن الأعزّا إذا اشتاقوا أذلاءً

* * *

ليبك لبيك يا سري ونجوائ لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي

* * *

أدعوك، بل أنت تدعوني إليك، فهل ناديتُ إياك أم ناديتُ إيائي؟

* * *

يا كل كلي، وكل الكل ملتبسٌ وكل كلك ملبوس بمعنائي

* * *

حي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائي؟

* * *

يا وِج رُوحِي من رُوحِي! فوا أسفا عليَّ مني! فإني أصل بلوائي

* * *

يا غاية السُّؤل والمأمول، يا سكنى يا عيش رُوحِي، يا ديني ودنيائي

* * *

حقيقة الحق تستيرُ صارخة: بالنبا خيرُ

* * *

لقد ركبْتُ على التغير، واعجبا ممن يريد النجا في المسلك الخطر!

* * *

نعم الإعانة رمزًا في خفا لطفٍ في بارق لاح فيها من علا خلله
والحال يرمقني طورًا وأرقه إن شا فيغشى على الإخوان من قلله

* * *

هذا تجلّى طلوع الحق: نائرة قد أزهرت في تلاكيها بسلطان

* * *

يا غافلا لجهالة عن شاني هلا عرفت حقيقتي وبياني؟

* * *

وتحققك، فاصنع كل ما شئت بشاني

* * *

وعن نحول ساقني طوعًا إلى فنا الفنا

* * *

فلَمْ جرى ذا يا أنا بحق حق الأمناء؟

* * *

فأوصلوا الوصل له بهجر هجر القرناء

وقريب من هذا قطعة لهمزة الوصل ووصله لهمزة القطع . وهو، وإن
كان من الضرورات الشعرية، فإنه ليس حسنًا . كما أنه يدل على ضعف
الشاعر في النظم إذا كثّر كما هو الحال هنا . وهذه أمثلة على ذلك:

وفي التفرق إثنان إذا اجتمعَا بالافتراق هما عبدٌ ومولاءُ

* * *

والدهر يومان: مذموم وممدّح والناس إثنان: ممنوحٌ ومسلوبٌ

* * *

في محو إسمي ورسم جسمي سألتُ عني فقلتُ: أنت

* * *

من بعد ما حضر السجان، واجه — سمع الأعوان، واخت إسمي صاحبُ الخبرِ

* * *

يا طالما غبنا عَن أشباح النظرُ بنقطة يحكي ضياؤها القمرُ

* * *

وغاب عني شهود ذاتي بالقرب حتى نسيتُ إسمي

* * *

لا يستدل على الباري بصنعه رأيتُمو حدثًا يَني عَن إزمان؟

* * *

هذي عبارة أهل الإنفراد به ذوي المعارف في سرٍّ وإعلانِ

* * *

أأنت أم أنا هذا في إلهين؟ حاشاك حاشاك من إثبات إثنين

* * *

رقيباني مني شاهدان لحبه وإثنان مني شاهدان تراني
ومن الضرورات الشعرية في شعره أيضاً تسكينه ميم "لم"
الإستفهامية:

قل لي، فديتك، يا سمعي ويا بصري لم ذي اللجاجة في بُعدي وإقصائي؟

* * *

ولم أجلد يا رب إذا قيل: هو الزاني؟

* * *

فلم جرى ذا يا أنا بحق حق الأمناء؟

ومن سمات شعر الحلاج كذلك الأخطاء اللغوية. فمن ذلك قوله:
كذا الحقائق: نار الشوق ملتهب عن الحقيقة إن بانوا وإن ناؤوا
حيث ذكر "ملتهب"، وحقها التأنيث، إذ هي خبر "نار"، وهي
مؤنثة. وقوله:

إنني شيخ كبير في علو الدرجات

يقصد "الدرجات". وقوله:

وأطيب الحب ما تم الحديث به كالنار لا تأت نفعا وهي في الحجر

إذ حذف حرف العلة من الفعل "تأت"، مع أنه مرفوع لا مجزوم، وإن كان له مع ذلك توجيه. وقوله:

مَنْ سَارَرُوهُ فَأَبْدَى كُلَّ مَا سَتَرُوا وَلَمْ يُرَاعِ اتِّصَالاً كَانَ غَشَّاشَا
بفك إدغام الفعل "سار"، والواجب هنا إبقاؤه على ما هو عليه دون فك. وقوله:

عَادَ بِالرُّوحِ إِلَى أَرْبَابِهَا فَبَقِيَ الْهَيْكَلُ فِي التَّرْبِ رَمِيمٌ
والمفروض نصب "رميم" على الحالية. وقوله:

رُوحَهُ رُوحِي، وَرُوحِي رُوحَهُ مِنْ رَأْيِ رُوحَيْنِ حَلَّتْ بَدَنَا؟
والصواب "حَلَّتَا"، لأن الضمير فيها يعود على "روحين"، وهي مثني كما هو بين. وقوله:

الصحيح: "الأربع عشرة". وقوله:

يَا هَلَالًا بَدَا لِأَرْبَعِ عَشْرِ فَثَمَانٍ وَأَرْبَعٍ وَاثْنَانِ
فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الْوَجْهَ دُ مِنْ الْأَحْشَاءِ دَانِي
برفع "داني"، وهو خطأ صحته "دانيا"، لأنها مفعول ثانٍ لـ"صَيَّرَ". وقوله:

عَجِبْتَ أَنِّي أَمُوتُ شَوْقًا وَأَنْتِ يَا بَعْدِي تَعْدِنِي
بتسكين دال "تعد"، والصواب ضمها على رفع الفعل، وإن كان لها توجيه كما قلنا قبلاً. وقوله:

وانظر ترى عجائباً تحار فيها الفطناً
وصوابه "الفطن" على الرفع، لأنها فاعل.

والى جانب الأخطاء اللغوية وقع الحلاج في بعض الأخطاء
العروضية، إذا ارتكب مثلاً "الإقواء" في حرف الروي في البيت التالي،
حيث أتى به مكسوراً على حين أن حرف الروي في سائر القصيدة مفتوح:
ويحشر أعداءه عاجلاً من الجن والإنس في حر ناره

كما اضطرُّ إلى حذف التشديد من حرف الروي في البيت الأول
من المقطوعة التالية كي يتمشى مع نظيره في البيتين الثاني والثالث:
تفكرت في الأديان جدَّ محققٌ فالفيتها أصلاً له شُعبٌ جمًا
فلا تطلبن للمرء ديناً، فإنه يصدّ عن الأصل الوثيق، وإنما
يطالبه أصل يعبر عنده جميع المعالي والمعاني ليفهما
وقد اضطرَّ، من أجل إقامة القافية في البيت التالي، إلى أن يكسر
ياء المتكلم حتى يتمشى مع سائر القوافي، وهو ما أخذه عليه أبو العلاء
المعري كما هو مذكور في هامش ١/ ص ٩٥ من "ديوان الحلاج":
يا جملة الكل، لست غيري فما اعتذاري إذن إليّ
وكثيراً ما يغمض المعنى عنده، وذلك أمر متوقع، إذ هو يحاول
معالجة موضوعات هي غاية في الشائكية والتعقيد. وهذه شواهد على ما
نقول:

العشق في أزل الآزال من قدّم فيه به منه يبدو فيه إبداء

* * *

ولدت أمي أباهـا إن ذا من عجبـاتي
فبناتي، بعد أن كـ فـنـ بنـاتي، أخواتي
ليس من فعل زمان لا ولا فعل الزنا

* * *

سرّ السرائر مطويّ بإثبات من جانب الأفق من نور بطيات
فكيف، وكيف معروف بظاهره؟ فالغيب باطنه للذات بالذات

* * *

لأنوار نور النور في الخلق أنوار وللسر في سرّ المُسرّين أسرار
وللكون في الأكوان كونٌ مكوّن يكنّ له قلبي ويهدي ويختار

* * *

يا طالما غبنا عن اشباح النظر بنقطة يحكي ضياؤها القمر
من سمسّم وشيرج وأحرف وياسمين في جبين قد سطر
فامشوا ونمشي ونرى أشخاصكم وأتمولاً ترونأ يا دُبر

* * *

وللحق في الخلق حقٌ حقيق بحق إذا حقّ حقّ الزياره

...

فَكُلُّ بَكْلٍ، جَمِيعُ الْجَمِيعِ مِنْ الْكُلِّ بِالْكُلِّ حَرْفُ نَهَارِهِ
 هُوَ الطِّينُ وَالنَّارُ وَالنُّورُ إِذْ يَعُودُ الْجَوَابُ بِعَقْبِ الْعِبَارَةِ
 وَقَدْ لَاحِظْتُ وَرُودَ بَعْضِ الْأَفَاطِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي شَعْرِهِ، وَهِيَ الْأَفَاطُ
 "النَّاسُوتُ وَاللَّاهُوتُ"، وَ"امْتِزَاجُ الْخَمْرِ بِالْمَاءِ"، وَ"الرَّبُّ"، وَ"الصَّلِيبُ"،
 وَ"الْأَبُّ"، وَ"تَرْهَبِينَ":

سَبِّحَانَ مَنْ أَظْهَرَ نَاسُوتَهُ سِرَّ سَنَا لَاهُوتِهِ الثَّاقِبِ

* * *

إِنِّي يَتِيمٌ، وَلِي أَبُّ الْوَذْبِ قَلْبِي لَغِيْبَتِهِ، مَا عَشْتُ، مَكْرُوبُ

* * *

مُزِجَتْ رُوحُكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزَّجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ

* * *

وَالرَّبُّ بَيْنَهُمَا فِي كُلِّ مَنْقَلَبٍ مُحَلٌّ حَالَاتِهِمْ فِي كُلِّ سَاعَاتِ

* * *

دَخَلْتُ بِنَاسُوتِي لَدَيْكَ عَلَى الْخَلْقِ وَلَوْلَاكَ، لَاهُوتِي، خَرَجْتُ عَنْ الصَّدَقِ

* * *

عَلَى دِينِ الصَّلِيبِ يَكُونُ مَوْتِي وَلَا الْبَطْحَا أُرِيدُ وَلَا الْمَدِينَةَ

* * *

إِلَى مَتَى أَبْقَى أَنَا كَعَابِدٍ تَرْهَبُنَا؟

ومما لوحظ أيضاً في شعره قَسَمَهُ بـ "وحرمة كذا" و"بحق كذا":
ملكت، وحرمة الخلوات، قلباً لعبت به، وقرب به القرار

* * *

وحرمة الود الذي لم يكن يطمع في إفساده الدهر
* * *

مواصل بالصدود، لَمَّا بحق حق الصدود صِلني
* * *

فلم جرى ذاي أنا بحق حق الأُمنا؟
وله غرام أحياناً بتهجي الحروف الأبجدية:

واللام بالآلف المعطوف مؤتلفٌ كلاهما واحد في السبق معناء
* * *

بواو الوصال، ودال الدلال وحاء الحياء، وطاء الطهارة
وواو الوفاء، وصاد الصفاء ولامٌ وهاءٌ لُعْمَرٌ مُدَارُهُ
على سرّ مكنون وجَدَ الفؤا د، وخاء الخفاء، وشين الإشارة
* * *

وإنه لَمَعَ الخلق الذي لهمو في الميم والعين والتقديس معناء
* * *

فالميم يُفْتَحُ أعلاه وأسفله والعين يُفْتَحُ أقصاه وأدناه

ومن ذلك ما أوردناه له قبلا من الغاز، فيرجع إليها . وهو أحيانا
ما يستخدم صيغا لفظية غريبة:

إن كنت بالغيب عن عيني محتجبا فالقلب يركاك في الإبعاد والنائي

* * *

إنني ارتقيت إلى طود بلا قدم له فراق على قلبي مصاعيب

* * *

وإني، وإن أهجرت، فالهجر صاحبي وكيف يصح الهجر، والحب واحد؟

* * *

يسري وما يدري، وأسراره تسري كلمح البارق النائر

* * *

فكل بکل، جميع الجميع من الكل بالكل حرف نهاره

* * *

وهو هو بدء البدء وهو هو دهر دهور الدهاره

* * *

هذا تجلي طلوع الحق: نائرة قد أزهت فلا تلالها بسلطان

* * *

فإن تشك فدبر قول صاحبكم حتى يقول بنفي الشك: هذا هو

* * *

فأنت عند الخصام عذري وفي ظمائي فأنت ربي

وفي نهاية المطاف أترك القارئ مع القصيدة التالية للحلاج، حيث يستمتع بانسياب الأنغام العذبة الحزينة، وهي من أحسن شعر الحلاج، بل لعلها أحسنه، رغم ما في بعض أبياتها من غموض وبهلوانية:

اقتلونني يا ثقاتي	إن في قلبي حياتي
ومماتي في حياتي	وحياتي في مماتي
أنا عندي: محو ذاتي	من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي	من قبيح السيئات
سممتُ روعي حياتي	في الرسوم الباليات
فأقتلوني واحرقوني	بعظامي الفانيات
ثم مُرُّوا برفاتي	في القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبي	في طوايا الباقيات
إنني شيخ كبيرٌ	في علو الدارجات
ثم إنني صرت طفلاً	في حجور المرضعات
ساكناً في لحد قبر	في أراضٍ سَبَخات
ولدت أمي أباهاً!	إن ذا من عجباتي
فبناتي، بعد أن كـ	من بناتي، أخواتي
ليس من فعل زمان	لا ولا فعل الزناة
فاجمع الأجزاء جمعاً	من رسوم تيرات

من هواءٍ ثم نارٍ
 فازرع الكل بأرضٍ
 وتغاهدُها بسقيٍ
 من جوار ساقياتٍ
 فإذا أتممت سبْعاً
 أنبت كل نباتٍ
 ثم من ماء فُراتٍ
 ترْبها تُربُّ مَوَاتٍ
 من كؤوسِ دائراتٍ
 وسواقٍ جارياتٍ
 أنبت كل نباتٍ

ثم مع هذه المقطوعة الشجية:

وما وجدتُ لقلبي راحة أبداً
 لقد ركبتُ على التغرير . واعجباً
 كأنني بين أمواج تقلبني
 الحزن في مهجتي، والنار في كبدي
 وأخيراً مع هذين البيتين:

لست بالتوحيد ألهو
 كيف أسهو؟ كيف ألهو
 غير أني عنه أسهو
 وصحيحٌ أني هُو؟

ابن الفارض

ابن الفارض (٥٧٦ - ٦٣٢هـ / ١١٨١ - ١٢٣٥م) هو عمر بن علي بن مرشد الحموي، المعروف بـ "سلطان العاشقين". ولد بمصر في بيت علم وورع، ولما شبَّ اشتغل بفقهِ الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر، ثم سلك طريق الصوفية ومال إلى الزهد. رحل إلى مكة، واعتزل في وادٍ بعيد عنها، وفي عزلته تلك نظم معظم أشعاره في الحب الإلهي. ثم عاد إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا. وقد اختلف الناس في شأنه كاختلافهم في ابن عربي ومن ذهب مذهبه. وقال عنه الذهبي: "سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية". وقال ابن خلكان: "سمعت أنه كان رجلاً صالحاً كثير الخير، جاور بمكة. وكان حسن الصحبة محمود العشرة". وله ديوان شعر مطبوع، وشرحه كثيرون منهم عبد الغني النابلسي وحسن البوريني. وكانت وفاته بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم. و"الفارض" لقب أبيه، وهو الذي يكتب الفروض للنساء بين يدي الحُكَّام (انظر ترجمته في "الموسوعة العربية العالمية").

وفى ترجمة ابن الفارض أشياء لا يمكن أن يعقلها عاقل، فضلاً عن أن يصدقها. وهى مروية على لسان ابنه أو سبطه: من ذلك مثلاً الزعم بأنه كانت تمر عليه الأيام العشرة أو نحوها وهو دهش غائب عمن حوله لا يحس بهم ولا يسمعهم أو يراهم، وقد شخص بصره إلى الأمام، أو نام كالميت وتغطى، وأنه كان يصوم عن الطعام والشراب أربعين يوماً متتالية، وأنه ذات مرة اشتت نفسه أكل الهريسة فعاقبها بإضافة عشرة أيام أخرى إلى صومه،

فتمت خمسين يوماً، وأنه قابل في المسجد يوماً رجلاً بقالاً لا يحسن كيف يتوضأ، فلما نبهه إلى الطريقة الصحيحة للوضوء نصحه الرجل أن يذهب إلى مكة ويمجاور بها حتى يفتح الله عليه هناك، ولم يكن الوقت وقت خروج الحجيج، فأشار الرجل ناحية مكة قائلاً: ها هي ذى مكة أمامك. فنظر ابن الفارض فرآها فعلاً قبالتها، وظلت قبالتها لا تغيب عن عينيه طوال السفر للحجاز إلى أن وصل إليها. ثم لما بلغ مكة لم يسكنها ولم يمجاور في الحرم الشريف، بل أقام بوادٍ كان بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المُجِدِّ، وكان يأتي من هذا الوادى كل يوم وليلة ويصلى في المسجد الحرام الصلوات الخمس ومعه سبع عظيم الخلقه يصحبه في ذهابه وإيابه وينتخ له كما ينتخ الجمل قائلاً: يا سيدى، اركب! لكنه لم يركبه قط. ولما فكر بعض مشايخ الحرم أن يُعِدّوا له ركوبة تكون عنده في البرية ظهر لهم السبع عند الباب ورأوه وسمعوه يقول له: يا سيدى، اركب! فعندئذ استغفروا الله واعتذروا إليه... إلى آخر هذه الهلوسات السخيفة التى لا أدرى كيف يصدقها بعض الناس ويتصور أنها برهان على ولاية الرجل (انظر مقدمة شرح ديوان ابن الفارض للبورينى والنابلسى/ المطبعة العامرية الشرفية/ ١٣٠٦هـ / ١ / ٥، ٧، ١٠).

والحق أن هذا كله ليس سوى ترهات وأضاليل ما أنزل الله بها من سلطان، لا تجوز إلا على العامة الجهلاء. وإن العقل ليتساءل: كيف يتسوق نومه عشرة أيام أو أكثر دون أن يصلى رغم وجوب الصلاة خمس مرات على

المسلم يومياً ؟ قد يقال إنه قد سقط عنه التكليف أثناء هذا . لكن فات من يمكن أن يردوا بهذا الجواب أن القلم، وإن كان يسقط عن النائم حتى يستيقظ، فإن ابن الفارض لم يكن فى الحقيقة نائماً، إذ النوم لا يستمر عشرة أيام فما فوقها . ولنفترض انه كان نائماً، فكيف سمحت نفس ابنه وأهله أن يتركوه دون إيقاظ حتى يؤدى فرض ربه ؟ ألا يرى القارئ أن الأمر كله مريب ؟ إننا نعرف كلنا أن شيئاً من هذا لم يقع للنبي عليه السلام، وهو الذى كان ينزل عليه الوحي من السماء من عند ربه، فكيف يقع لابن الفارض ؟ وأين الشهود الآخرون المحايدون على ما يورده بعض أفراد أسرته عنه من هذه الروايات الشاذة التى لا يعقلها عاقل ؟

ومن جهة أخرى لم يا ترى ذهب الرجل إلى مكة ما دام لم يسكنها بل مضى إلى البادية مستعيضاً بها عن البلد الحرام ؟ لقد كان ولا يزال فى مصر، والحمد لله، بادية لا تكاد تنتهى، إذ هى تشغل من مساحة مصر ستة وتسعين فى المائة، ولا أظنها كانت تضيق بابن الفارض لو أراد أن يتخذها مقاماً له، وهى تسع من الحبايب ألفا بل مليوناً بل ملايين . وما دام بإمكانه الانتقال إلى مكة فى غمضة عين من مسافة عشرة أيام للراكب المجد، ومعه فوق البيعة سبع يحرسه لا أدري تماًداً، لقد كان بإمكانه إذن أن ينتقل وقتما يشاء من مصر إلى الحجاز فى نفس الغمضة من العين فيصلى ويتحى براحته ثم يعود إلى المحروسة آمناً مطمئناً دون أن يحرمها من طلعه البهية وبركه

الروحانية! ثم من كان يأتيه بالطعام والشراب، وهو فى صحبة الوحش فى ذلك الوادى؟ أترأه السبع أيضا؟ ولكن هل السباع تحضر الطعام والشراب للناس؟ ثم ما الداعى إلى مصاحبة السبع له إذا لم يكن يركبه؟ وهل السباع تصلح للركوب أصلا؟ كذلك أين كان يسكن؟ ومن كان يخلق له شعره ويقص أظافره ويغسل ملابسه؟ وكيف كان يتغلب على عدم وجود زوجة معه؟ أليس إنسانا له حاجات طبيعية؟ أم تراه فوق الطبيعة البشرية؟ لكن النبى لم يكن كذلك، بل كان بشرا، وإن كان مع بشرته نبيا. أما ابن الفارض فهذا الكلام يضعه فوق ذلك المستوى بكثير، وهو ما لا نفهمه ولا تقبله عقولنا. ثم هل يمكن إنسانا، أى إنسان، أن يعيش مع الوحوش طوال خمسة عشر عاما، سواء المسالم منه كالغزلان وحُمُر الوحش أو الضارّ المؤذى كالذئاب والأسود والضباع والثعالب وأبناء آوى والثعابين والحيات والعقارب... وهلم جرا؟ بل كيف كان يطوى مسافة الأيام العشرة للراكب الجّد فى دقائق يا ترى؟ هل كانت خطوته تسع بحيث تغطى مائة كيلو متر فى المرة؟ أم هل كانت الأرض نفسها تُزوى تحت أقدامه؟ وأيا ما يكن الأمر كيف لم يلاحظ الناس هذا أو ذاك وهو يمر بهم فى البادية وفى الحضر فى طريقه إلى المسجد الحرام على هذا النحو الخارق؟ وكيف لم يفكر هو فى الكتابة عن هذه التجربة المثيرة التى لم يمر بها بشر من قبل فيسدى لنا جميلا ما كنا لننساه له أبدا؟ بل لماذا أثر صحبة الوحش على صحبة الناس؟ وكيف لعالم أن يستغنى عن الكتب

والعلماء طوال خمسة عشر عاما ؟ إن ثمرة ذلك لهى الجهل الشامل !
وبالمناسبة فقد اتهمه عضد الدين الإيجى، على ما نقله البقاعى لنا فى كتابه: "تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى"، بأنه كان يتناول الحشيش وأن ذلك قد أثر على عقله وتفكيره، إذ اتهم البقاعى ابن عربى بأنه "كان كذابا حشاشا كأوغاد الأوباش، فقد صح عن صاحب كتاب "المواقف" عضد الملة والدين، أعلى الله درجته فى عليين، أنه لما سئل عن كتاب "الفقوحات" لصاحب "الفصوص" حين وصل هنالك قال: أقتطعون من مغربي يابس المزاج مجرّ مكة ويأكل الحشيش شيئا غير ذلك ؟ وقد تبعه، أي ابن عربى، فى ذلك ابنُ الفارض حيث يقول: "أمرني النبي صلى الله عليه وسلم بتسمية التائبة: "نَظْمُ السُّلُوكِ"، إذ لا يخفى على العاقل أن ذلك من الخيالات المتناقضة الحاصلة من الحشيش، إذ عندهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى، فإذا الكل هو الله لا غير، فلا نبى ولا رسول ولا مرسل إليه. ولا خفاء فى امتناع النوم على الواجب وفى امتناع افتقار الواجب إلى أن يأمره النبى بشيء فى المنام. لكن لما كان لكل ساقطة لاقطة ترى طائفة من الجهال ذلت أعناقهم لها خاضعين أفرادا وأزواجا". وبالإضافة إلى ذلك ففى مقدمة شرح الديوان نقلا عن الابن ما يدل على أن الأب كان يرقص ويتواجد حتى يسيل العرق الغزير منه ويسقط فى اضطراب عظيم إذا كان هناك ما يبعث على الفرح حتى لو كان أمرا تافها . وهذا هو النص بحرفه: "رأيت الشيخ

رضى الله عنه نهض ورقص طويلا وتواجد وجدا عظيما، وتحدّر منه عرق غزير حتى سال تحت قدميه وخر إلى الأرض، واضطرب اضطرابا عظيما، ولم يكن عنده غيرى، ثم سكن حاله وسجد لله تعالى، فسأله عن سبب ذلك، فقال: يا ولدى، فتح الله علىّ بمعنى فى بيت لم يفتح علىّ بمثله، وهو:

وعلى تقنن واصفيه بحسنه	يفنى الزمان، وفيه ما لم يُوصف
------------------------	-------------------------------

ويقول د. محمد مصطفى حلمى (فى كتابه: "ابن الفارض والحب الإلهى" / ط ٢ / دار المعارف / ١٩٨٥م / ٦٧ - ٦٨): "وقد أمعن ابن الفارض فى الوجد وأسرف فى خضوعه له وتأثره به إلى حد بعيد، فهو لم يقنع بما كان يتفق له من المؤثرات الخارجية والداخلية التى تحرك انفعاله وتثير وجدّه، بل كان من عادته أن يخلق الجو الذى يلزم عن وجوده الانفعال والوجد، ويهيئ المناسبة النفسية التى من شأنها أن تجعله فى حضرة من يحب، وتشعره بالفناء عن نفسه والاتحاد بمحبوبه. وليس أدل على هذا مما يحدثنا به ابن حجر العسقلانى من أنه كان لابن الفارض بمدينة البهنسا بصعيد مصر بيت يقيم فيه طائفة من الجوارى والمغنيات الضاربات على الدفوف والشبّابات، وأن الشاعر كان يقصد إلى هذا البيت حيث يلقي نفسه فى غمرة من غمرات السماع الذى ينشأ عنه الرقص بما يلازمه من حركة واضطراب، ويتولد منه الوجد بما يستتبعه من دهش وغيبة. وهنالك فى هذا البيت وبين هاتيك الجوارى كان يقضى صاحبنا لبانة نفسه من الوجد ثم يعود إلى

القاهرة. ولعلنا إذا التمسنا للرقص الناشئ عن السماع تفسيراً نفسياً وتحليلاً
 يمكننا من تفهم هذه الحال وما يعرض فيها من ظواهر نفسية لم نوفق إلى خير
 مما يقدمه ابن الفارض نفسه في هذه الأبيات التي يصور فيها حاله عند
 السماع، وقد شهد محبوبته واتحد معها . فاسمع إليه حيث يقول:

وَيُحْضِرُنِي فِي الْجَمْعِ مَنْ بِاسْمِهَا شَدَا فَيْنَحُو سَمَاءَ التَّفْخِ رُوحِي وَمُظْهِرِي الـ	فَأَنْشُدُهَا عِنْدَ السَّمَاعِ بِجُمْلَتِي مُسَوًى بِهَا يَخْنُو لَأَتَرَابَ تُرْبَتِي
فَمَنْنِي مَجْذُوبٌ إِلَيْهَا وَجَاذِبٌ وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ نَفْسِي تَذَكَّرَتْ	إِلَيْهِ، وَنَزَعُ النَّزْعِ فِي كُلِّ جَذْبَةٍ حَقِيقَتِهَا مِنْ نَفْسِهَا حِينَ أُوحَتْ
فَحَنَنْتُ لَتَجْرِيدِ الْخَطَابِ بِرِزْخِ الـ	تَرَابٍ، وَكُلُّ أَخَذٍ بِأَزْمَتِي

وهذا هو نص ما قاله ابن حجر في ذلك الموضوع، وهو موجود في
 ترجمة ابن الفارض في المجلد الرابع من "لسان الميزان": "رأيت في كتاب
 "التوحيد" للشيخ عبد القادر القوسي، قال: حكى لي الشيخ عبد العزيز بن
 عبد الغني المنوفي، قال: كنت بجامعة مصر، وابن الفارض في الجامع، وعليه
 حلقة، فقام شاب من عنده وجاء إلى عندي، وقال: جرى لي مع هذا الشيخ
 حكاية عجيبة، يعني ابن الفارض، قال: دفع إلى دراهم وقال: اشتري لنا بها
 شيئاً للأكل. فاشتريت، ومشينا إلى الساحل فنزلنا في مركب حتى طلع
 البهنسا، فطرق باباً، فنزل شخص فقال: بسم الله. وطلع الشيخ، وطلعتُ
 معه، فإذا بنسوة في أيديهن الدفوف والشبابات وهن يغنين له، فرقص الشيخ
 إلى أن انتهى وفرغ، ونزلنا وسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقي في نفسي.

فلما كان هذه الساعة جاءه الشخص الذي فتح له الباب فقال له: يا سيدي،
فلانة ماتت. وذكر واحدة من أولئك الجواري، فقال: اطلبوا الدلال. وقال:
اشتر لي جارية تغني بدلكها. ثم أمسك أذني فقال: لا تُشكر على الفقراء".

فإذا انتقلنا إلى مضمون أشعار ابن الفارض فالملاحظ أن غالب الغزل
فيها هو ذلك النوع من الغزل الذي يوجهه الشعراء إلى محبوباتهم. ويرى
الدكاترة زكي مبارك أن كل ما قاله من شعر قبل أن يتجه اتجاهها صوفيا هو
في الغزل الحسي لا في الحب الإلهي، وأنه ليس هناك دليل على أنه يتحدث
عن الذات الإلهية، اللهم إلا ما يقوله المتصوفة (انظر كتابه: "التصوف في
الأدب والأخلاق" / ١ / مطبعة الرسالة / ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م / ٢٩١). وهب
أن ما قاله الصوفية صحيح، فالسؤال هو: هل يليق بنا أن نخاطب الله أو
تحدث عنه على أنه امرأة، بله أن نسميها فنقول: ليلي، أو سعاد، أو سلمى
مثلا؟ إن شيئا من هذا لم يُسمع عن أحد من الصحابة، ولا أظنه كان يمكن
أن يخطر لهم على بال. ذلك أن المشركين حين كانوا يقولون إن الملائكة بنات
الله كان القرآن ينزل مسفها عقولهم وأقوالهم تسفيها. قال تعالى: "أَفَأَصْفَاكُمْ
رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا" (الإسراء/
٤٠)، "فَاسْتَفْتَهُمُ الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكَهُمْ لَيَقُولُونَ * وَكَدَّ اللَّهُ لَهُمْ لَكَادِبُونَ *
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ

لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" (الصافات/ ١٤٩-
 ١٥٧)، "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا
 يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
 ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ
 مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ
 سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف/ ١٥- ١٩). فإذا كان الأمر كذلك
 فيما يخص الملائكة، فما بالناس حين يتعلق برب العزة سبحانه وتعالى؟ وأنا
 لا أتكلم هنا عن الحرام والحلال، بل أتكلم عما يليق وما لا يليق، ويقىنى أن
 ذلك لا يليق بناتا .

وفوق هذا فإنه يعين الأماكن التى كان يلتقى فيها حبيبته ويصل بينه
 وبينها الود والتفاهم قبل أن يحل الهجر، إذ نسمعه يذكر الحجاز والغضا
 والغور وقديد وينبع ومر الظهران وثنيات اللوى والتنعيم وغيرها من الأماكن
 التى تقع فى بلاد العرب:

يا رَاكِبَ الْوَحْنَاءِ، وَقَيْتَ الرَّدَى وَسَلَكْتَ نَعْمَانَ الْأَرَاكِ فَعُجْ إِلَى فَبَأَيْمَنِ الْعَلَمَيْنِ مِنْ شَرْقِيهِ وَإِذَا وَصَلْتَ إِلَى ثَنِيَاتِ اللَّوَى وَاقِرِ السَّلَامِ أَهْيَلَهُ عَنِّي، وَقُلْ:	إِنْ جُبْتُ حَزْنًا أَوْ طَوَيْتَ بَطَاحًا وَادِ هُنَاكَ عَهْدَتَهُ قِيَا حَا عَرَجٍ وَأَمْ أَرَيْنَهُ الْفَوَاحَا فَانْشُدْ فَوَادًا بِالْأَبْيُطْحِ طَا حَا غَادَرْتُهُ لَجَنَابِكُمْ مُلْتَاحَا
---	--

يا ساكني نجد، أما من رحمة هلا بعثتم للمشوق تحية يخيا بها من كان يحسب هجركم		لأسير ألف لا يريد سراحا؟ في طي صافية الرياح رواحا؟ مرحًا، ويعتد المراح مزاحا
*	*	*
احفظ فؤادك إن مررت بحاجر فالقلب فيه واجب من جائز وعلى الكتيب الفرد حي دونه الـ		فطباؤه منها الطبي بحاجر إن ينبج كان مخاطرًا بالخاطر آساد صرعى من عيون جاذر

كما يتكلم عن الرسول الذي كان يسفر بينه وبين حبيبته، والعذول الذي يحاول أن يفسد ما بينهما وما إلى هذا مما لا يتصور وقوعه إلا في حب الرجل للمرأة، إذ إن علاقتنا بالله لا تحتاج بل لا تتحمل مثل هؤلاء الوسطاء: الخيرين منهم والشريرين أجمعين كما هو واضح. وفوق ذلك فهو يعد حبه لها ضلالا لا رشاد فيه:

عمرُك الله إن مررت بوادي وبلغت الخيام فأبلغ سلامي وتلطّف واذكر لهم بعض ما بي		ينبع فالدّهينا فبدّر فغادي عن حفاظ غريب ذاك النادي من غرام ما إن له من نقاد
*	*	*
يا عاذل المشتاق جهلا بالذي أتعبت نفسك في نصيحة من يرى		يلقى مليا، لا بلغت نجاحا ألا يرى الإقبال والإفلاحا

* وَحَكَتُ فِظَاظَةً قَلْبِهِ الْفَوْلَاذَا شُغِلَ بِهِ وَجَدًا أَبَى اسْتَقَاذَا قَبْلَ السَّوَالِكِ الْمُسْكُ سَادَ وَشَادَى فِي كُلِّ جَارِحَةٍ بِهِ تَبَاذَا صَمْتُ الْخَوَاتِمِ لِلْخَنَاصِرِ آذَى وَاللَّيْلِ فَرَعًا مِنْهُ حَاذَى الْحَاذَا	*	* وَشَكَتُ بِضَاضَةٍ خَدَّهُ مِنْ وَرْدِهِ عَمَّ اشْتَعَالًا خَالَ وَجَنَّتَهُ أَخَا خَصِرُ اللَّمَى عَذْبُ الْمُقْبَلِ بُكْرَةً مِنْ فِيهِ، وَالْأَلْحَاطُ سُكْرِي، بَلْ أَرَى نَطَقَتْ مَنَاطِقُ خَصْرِهِ خَتْمًا إِذَا ... كَالْغُضَنِ قَدًّا، وَالصَّبَاحِ صَبَاحَةً
* لَمَّا رَأَهُ بُعِيدَ وَصْلِي هَاجِرِي: هَجُرُ الْحَدِيثِ وَلَا حَدِيثُ الْهَاجِرِ	*	* وَلَقَدْ أَقُولُ لِلْأَتَمِيِّ فِي حُبِّهِ عَنِّي إِلَيْكَ، فَلِي حَشَا لَمْ يَشْهََا
* إِنَّ الْمَلَامَ عَنِ الْهَوَى مُسْتَوْقِفِي فَإِذَا عَشِقْتَ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَتَفِ	*	* قُلْ لِلْعَذُولِ: أَطَلْتُ لَوْمِي طَامِعًا دَعُ عَنْكَ تَعْنِيفِي، وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى
* مَنْ رَشَادِي، وَكَذَاكَ الْعَشِيقُ غَيَّ صَمَمَ عَنْ عَذْلِهِ فِي أُذُنِي؟	*	* رَجَعَ الْأَاحِي عَلَيْكُمْ أَتْسَا أَبْعَيْنِيهِ عَمَى عَنْكُمْ كَمَا

ويزداد الأمر قلة لياقة حين تقرأ مثل قوله:

أَخَلَّتْ جِسْمِي نَحُولًا خَصَرُهَا إِنْ تَنَتَ فَقَضِيبٌ فِي نَقَا	منه حال، فهو أبهى حُلِّي مُثْمِرٌ بَدْرٌ دُجَى فَرَعٌ ظُمِي
---	--

أو هذا:

أَقْصِرْ، عَدْمَتِكَ، وَأَطْرِخْ مَنْ أَثَخَنْتَ	أَحْشَاءُ النَّجْلِ الْعُيُونُ جِرَاحَا
--	---

أو هذا:

عَوَّذْتُ حُبِّي بِرَبِّ الطُّورِ	مَنْ آفَةٌ مَا يَجْرِي مِنَ الْمَقْدُورِ
-----------------------------------	--

أو هذا:

وَلَقَدْ أَقُولُ لِلْأَمِيِّ فِي حُبِّهِ عَنِّي إِلَيْكَ، فَلِي حَشَا لَمْ يَنْتَهَا ...	لَمَّا رَأَى بُعِيدَ وَصْلِي هَاجِرِي: هَجُرُ الْحَدِيثِ وَلَا حَدِيثُ الْهَاجِرِ
وَيُودَّ طَرَفِي إِنْ ذُكِرْتَ بِمَجْلِسِ مُعَوِّدًا إِنْجَارَهُ مُتَوَعِّدًا	لَوْ عَادَ سَمْعًا مُصَغِّيًا لِمُسَامِرِي أَبْدًا، وَيَمْطَلْنِي بُوْعْدٍ نَادِرِ

أو هذا:

كَمْ زَارَنِي، وَالِدَجَى يَرِيدٌ مِنْ حَقِّ وَابْتَزَّ قَلْبِي قَسْرًا قُلْتُ مَظْلَمَةً: غَرَسْتُ بِاللَّحْظِ وَرْدًا فَوْقَ وَجْنَتِهِ فَإِنْ أَبِي فَالْأَقَا حِي مِنْهُ لِي عَوْضٌ إِنْ صَالَ صِلَ عَذَابِيهِ فَلَا حَرْجٌ	وَالزَّهْرُ تَبَسُّمٌ عَنْ وَجْهِ الَّذِي عَبَسَا يَا حَاكِمَ الْحَبِّ، هَذَا الْقَلْبُ لَمْ حُبَّسَا حَقٌّ لَطَرَفِي أَنْ يَجْنِي الَّذِي غَرَسَا مَنْ عَوْضَ الدَّرِّ عَنْ زَهْرٍ فَمَا بَجُسَا أَنْ يَجْنِ لَسْعَا وَإِنِّي أَجْنِي لَعَسَا
---	--

كم بات طوعٌ يدي، والوصل يجمعنا	في بُردَيْهِ التقي، لا نعرف الدنسا
--------------------------------	------------------------------------

أو هذا:

أوعِدوني أو عِدوني وامطلوا	حُكَمَ دين الحبّ. دَيْنُ الحبّ ليّ
----------------------------	------------------------------------

أو هذا:

تَه دَلالاً، فَأَنْتَ أَهْلُ لَذَاكَ وَلَكَ الْأَمْرُ، فاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ وَتَلَاْفِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَاْفِي ...	وَتَحَكَّمْ، فَالْحُسْنُ قَدْ أَعْطَاكَ فَعَلَيَّ الْجَمَالَ قَدْ وَلاَكَ بِكَ عَجَلٌ بِهِ. جُعِلْتُ فِدَاكَ عَنْكَ قُلْ لِي: عَنْ وَصْلِهِ مَنْ نَهَاكَ؟ فَإِلَى هِجْرِهِ تَرَى مِنْ دَعَاكَ؟ وَلِغَيْرِي بِالْوَدِّ مَنْ أَفْتَاكَ؟ أَحْسَنَ اللَّهُ فِي اصْطِبَارِي عَزَاكَ
--	--

أو هذا:

إِنْ كَانَ مَنْزِلِي فِي الْحَبِّ عِنْدَكُمْ أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ رُوحِي بِهَا زَمَنًا ...	مَا قَدْ رَأَيْتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي وَالْيَوْمَ أَحْسَبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ هَذَا الْحَمَامُ لَمَّا خَالَفْتُ لَوَامِي أَبْصَرْتُ خَلْفِي وَمَا طَالَعْتُ قُدَّامِي
--	---

أوهذا:

أهـواهـُ مهـفـهـفـاً ثـقـيـلـ الرـدـفـ ما أحـسـنـ واو صـدـغـهـ حـيـنـ بـدـتـ	كـالـبـدـر يـجـل حـسـنـهـ عـنـ وـصـفـ يا ربـ، عـسـى تـكـونـ واو العـطـفـ
---	---

أوهذا:

ما أطـيـبـ ما بـتـا معـاً في بُـردٍ حـتـى رـشـحـتـ مـن عـرقٍ وـجـنـتـهـ	إـذ لـاصـقَ خـدـهـ اعـتـنـاقـاً خـدـي لا زـال نـصـيـبي مـنـهـ مـاء الـوردـ
--	---

فنجـد أنه يتـحدـث عـن دلال حـبـيـبـته واستـمـاعـها للـعـذال وهـجـرها له بسبـبـهم، وعـن قـدهـا الـذـى يشـبـه الغـصـن، وعـن تشـبـيها دلالا وتـبـخـترا، وعـن خـصـرها النـاحـل الـذـى أنـحـله بـدوره فأحـاله شـبـحا لا يُـرى، وعـن أرـدافـها الثـقال وقوامـها المـهـفـف وسوالـفـها الـتى تشـبـه حـرف الواو وريـقـها البـارد وشـعـرها الفـاحـم، وعـن عـيـونـها التـجـل الـتى طـعـنته بـسـيـوفـها فـى أحـشـائه، وصـرعت بـها الأـسـود، وعـن خـلفـها الوـعد ومـطـلـها إنـجـاز ما مـنـته به، وعـن هـجـرها فـى الحـديث، وعـن البـرد الـواحد الـذـى كان يـلفـهما معـاً، وعـن النظـرات الـتى كان يـوجـهـها إلـيـها فيـحـمر خـداها، والأقـحـوان الـذـى كان يـجـنيه مـن فـيـها، وعـن اللـيالـى الـتى باتت فـيـها طـوع يـديـه. فـهل هـذا ممـا يـليـق إسـناده إلـى الله تـعالـى؟ وهـل يـصح أن يـقال لله: "نـه دلالاً"، وكأنـه سـبـحـانه يـتيـه ويتـدل؟ وعـلى مـن؟ عـلى عـبد مـن عـباده! وهـل الحـسن أو الجـمال وحده هـو الـذـى أشـغـف ابن الفـارض به؟ أليس هـو الخـالق الـرازق الـرحـمن الـرحـيم أيسـاً؟ أليس هـو الله رب

العالمين؟ وهل يليق أن يقول الواحد منا لله إنه قد ضيع أيامه في محبته هدرًا أو يتهمه جل وعلا بأنه لم يحفظ قلبه، ومن ثم لم يحسن هو صنعًا حين خالف لوامه، الذين عابوا عليه حبه له وتعلقه به؟ وهل هناك من يلومنا على تعلقنا بالله سبحانه؟ إن كان فذلك من القوم الكافرين. فهل كان لوأم ابن الفارض من الكافرين؟ ثم كيف يستعين ابن الفارض بالله وبالصبر الذي يلهمه الله إياه على صمود حبيبته عنه إذا كانت حبيبته هي الله نفسه؟ وهل ثم أحد يُفتي الله بشيء أو ينهيه عن شيء؟ وهل يصح أن يقال له عز شأنه: "جُعِلْتُ فداك" بما يفيد أنه سبحانه محتاج إلى أن يفديه أحد؟ ترى يفديه مِمَّاذا؟

ليس ذلك فقط، إذ نراه يصف الله في بعض شعره بأنه يتبدى في أشخاص النساء:

بمظهر حوّا قبل حكم النبوة من اللبس في أشكال حسن بدية وأونة تدعى بـ "عزة" عزّت	ففي النشأة الأولى تراءت لآدم وتظهر للعشاق في كل مظهر ففي مرة بُنِي، وأخرى بُنِيَّة
---	--

قد يقال إن هذا من باب ضرب المثل، لكن الواقع أنه ليس من هذا الباب، إذ إن ضرب المثل هو لون من التشبيه يتم اللجوء إليه لتقريب الأمر البعيد الذي لا يمكن تصوّره فيؤتى بالمثل للتوضيح، مع معرفة السامع والقارئ أنه مثل لا حقيقة. وهو ما لا يتحقق في هذا الغزل الغريب، إذ ليس في قول الواحد منا إنه يجب الله ما يصعب تصوّره ولا التعاطف معه أو الانفعال بل الانتشاء به. جاء في "أخبار أبي تمام" لأبي بكر الصولي: "حدثني محمد بن

يحيى بن أبي عباد قال، حدثني أبي قال، شهدت أبا تمام ينشد أحمد بن المعتصم قصيدته التي مدحه بها:

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ فَلَعَلَّ عَيْنُكَ أَنْ تُعِينَ بِمَائِهَا	تَقْضِي ذِمَامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ وَالدَّمَعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي
--	---

... فلما قال:

أُبَلِّتُ هَذَا الْمَجْدَ أَبْعَدَ غَايَةٍ إِقْدَامَ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ	فِيهِ وَأَكْرَمَ شِيْمَةٍ وَنَحَاسِ فِي حِلْمٍ أَحْنَفٍ فِي ذَكَاءِ إِيَّاسِ
---	---

قال له الكندي، وكان حاضرا، وأراد الطعن عليه: الأمير فوق من وصفت. فأطرق قليلا، ثم زاد في القصيدة بيتين لم يكونا فيها:

لَا تَشْكُرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِتُورِهِ	مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
---	--

قال: فعجبنا من سرعته وفطنته". فمن الواضح أن هذا مثل شبّه فيه أبو تمام شيئا بشيء. أما ابن الفارض فيتحدث عن حبه ومعاناته في ذلك الحب حديث الغزلين الذين يتجهون بغزلهم إلى نساء من البشر بحيث إنه إذا لم يُقَلِّ للقارئ إن هذا غزل في الذات الإلهية فلن يدرك هذا من تلقاء نفسه.

والدليل على ما أقول أن د. محمد مصطفى حلمي، المتخصص في التصوف الإسلامي والذي كتب عن ابن الفارض كتابين كاملين، يذكر أنه، حين قرأ شعر ابن الفارض للمرة الأولى في شبابه، كان ينظر إليه على أنه تصوير

أنيق لعاطفة الحب البشرية، وكان يأخذ شعره على أنه شعر غزلي كشعر غيره من الشعراء الغزليين . . . وظل هكذا إلى أن استمع، بعد أن دخل الجامعة، إلى محاضرة عامة للدكتور عبد الوهاب عزام يعرض فيها لشعر ابن الفارض وبعض الشعراء الصوفيين المسلمين الآخرين وضح فيها أن هذا الشعر ليس في الحب الإنساني بل في الحب الإلهي، فعاود عندئذ النظر إلى ابن الفارض وشعره، وأخذ يحقق ألفاظه ومعانيه، فتكشفت له خيوط صوفية باهتة شاحبة أول الأمر ثم زاهية واضحة فيما بعد (انظر كتابه: "ابن الفارض سلطان العاشقين" / سلسلة "أعلام العرب" / العدد ١٥ / ٥ - ٦) .

وقد انتهى الدكتور حلمي إلى أن المسؤول عن ذلك التجاوز الذي لاحظناه على شعر ابن الفارض وأخذناه عليه واستغربنا أشد الاستغراب صدوره عنه إن كان فعلا في الغزل الإلهي كما يزعم المتحمسون له، هو أذواق ابن الفارض ومواجهته، إذ "كان يعنى من الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية المعاني والدلالات التي تتفق مع ذوقه وتثير كوامن وجدته . وليس أدعى إلى إثارة هذا الوجد ولا أكثر ملاءمة لذلك الذوق من الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية التي شاعت في ديوان ابن الفارض من أوله إلى آخره شيوعا جعل من شعره غزلا، ومن ناظمه شاعرا غزلا، وأوهم الذين لم يذوقوا ذوقه ولم يعانون وجده بأنه شاعر كغيره من الشعراء الغزليين، وأن حبه إنساني كحب غيره من العذريين . والحقيقة أنه شاعر صوفي من أصحاب

الأذواق والمواجيد وأن شعره مهما أمعن فيه من اصطناع الألفاظ الغزلية الإنسانية فلن يكون إلا تعبيراً عن حب إلهي قد فاض به قلبه ووجدانه، فعبّر عنه لسانه وبيانه، فكان ديوانه، وكانت أناشيده وألحانه" (ص ٢٤٤ من كتابه: "ابن الفارض سلطان العاشقين"). ويذكرنا موقفه هذا موقف من يفسرون سفر "نشيد الإنشاد" تفسيراً روحانياً.

والحق أن هذا توجيه متهافت، إذ كيف يكون الحب لله بهذا التغمس والجرأة في الحديث عن ربه سبحانه، ثم يقال بعد ذلك إنه صاحب ذوق ووجد؟ ترى لو لم يكن صاحب ذوق ووجد، فإلى أية غاية من الإساءة كان سيصل؟ إن ما قاله في هذه القصائد هو مما يتعارض مع الذوق. ثم ما الذي تركه لنا نحن الذين حُرِّمنا أذواقه ومواجيده؟ أليس من المفارقة المزعجة أن يكون صاحب الذوق والوجد بهذا الغشم في الكلام عن الله، ونكون نحن المحرومين من الذوق والوجد أكثر تنبهاً لما يليق وما لا يليق مع الله؟ إن أقصى ما يمكن أن يقال في شعر ابن الفارض، إن صدّقنا أنه في الحب الإلهي، هو أن صاحبه قد جرى فيه على سنة التكلف الذي يوقع أصحابه في المآزق المحرجات. فلم يا ترى لجأ، في التعبير عن حبه لله، إلى كل هذا التصنع؟ ولم الإصرار على جعل التعبير عن الحب الإلهي غزلاً بشرياً؟

نعم لماذا كل هذا التقيُّه في موضوع إنما يفسده التقيُّه، إذ لا يكره الإسلام شيئاً قدر كراهيته التقيُّه طبقاً لما أخبرنا به رسول الله صلى الله

عليه وسلم، إذ قال: "إِنَّ مَنْ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ وَالتَّشَدُّقُونَ وَالتَّقِيهِقُونَ". وعن عائشة: "رَبَّمَا ضَرَّ التَّكَلُّفُ أَهْلَهُ". وإلى القارئ كذلك الحكاية التالية، التي أسوقها للتفككة أيضا، وهى عن أحد معارف سلمان الفارسي: "دَخَلْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي عَلَى سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَقَرَّبَ إِلَيْنَا خَبْزًا وَمِلْحًا فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا عَنِ التَّكَلُّفِ لَتَكَلَّفْتُ لَكُمْ. فَقَالَ صَاحِبِي: لَوْ كَانَ فِي مِلْحِنَا سَعْتَرٌ! فَبَعَثَ بِمَطْهَرَتِهِ إِلَى الْبَقَالِ فَرَهْنَهَا، فَجَاءَ بِسَعْتَرٍ فَالْتَقَاهُ فِيهِ. فَلَمَّا أَكَلْنَا قَالَ صَاحِبِي: الْحَمْدُ لِلَّهِ، الَّذِي قَنَعَنَا بِمَا رَزَقَنَا. فَقَالَ سَلْمَانُ: لَوْ قَنَعْتُ بِمَا رُزِقْتُ لَمْ تَكُنْ مَطْهَرَتِي مَرْهُونَةً عِنْدَ الْبَقَالِ".

ثم لو كان العشق الذى جعلوا ابن الفارض بسببه "سلطان العاشقين" هو عشق الله، أكان يقول الكلام التالى الذى ينضح غرورا وكبرا؟ هل الحب لله يمكن أن يخرج عن طوره ويتفاخر بأنه إمام فيه على هذا النحو؟ أليس التدين الحقيقى يدفع صاحبه دفعا إلى التواضع فى الحكم على نفسه؟ لنستمع:

فَأَهْلُ الْهَوَى جُنْدِي، وَحَكَمِي عَلَى الْكَلِّ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْ قَتَى سَامِعِ الْعَدْلِ وَمَنْ لَمْ يُفَقِّهْهُ الْهَوَى فَهُوَ فِي جَهْلِ	نَسِخْتُ بِحَبِّي آيَةَ الْعَشْقِ مِنْ قَبْلِي وَكُلُّ قَتَى يَهْوَى فَإِنِّي إِمَامُهُ وَلِي فِي الْهَوَى عِلْمٌ تَجَلَّ صِفَاتُهُ
--	---

ومع هذا فقد شُرح ديوان ابن الفارض على أنه أشعار فى الحب الإلهى لا فى حب بشرى عادى. كما وقف د. محمد مصطفى حلمى مثلاً هذا الموقف فرأى أن أشعار ابن الفارض على ما فيها من أشياء لا تتسق مع كونها فى الحب الإلهى هى رغم ذلك أشعار فى الحب الإلهى لا فى الحب البشرى (انظر فصل "الغزل فى شعر ابن الفارض" من كتابه: "ابن الفارض سلطان العاشقين"). ومثله بل أوغل منه فى ذلك د. شوقى ضيف، الذى فسر كل أشعار الغزل لدى ابن الفارض فى ضوء الحب الإلهى غير واجد أى شىء يمكن أن يؤخذ عليه فى استعمال الألفاظ والعبارات والصور التى يستعملها الشعراء الغزلون فى محبوباتهم من النساء أمثال ليلى وسعدى وعزة. بل إنه ليجد ما قاله ابن الفارض فى الخمر أمراً طبيعياً تماماً حتى إنه ليسمىها: الخمر الربانية. والعجيب أن الأستاذ الدكتور يركز على تأكيد ابن الفارض تمسكه الدائم بالكتاب والسنة. لكن هل تأكيد ابن الفارض هذا دليل على أنه كان فعلاً كذلك؟ إذن فأين فى الكتاب أو فى السنة أن العبد يمكن أن يفنى فى ربه أو يتحد به وأن يقول عن نفسه إنه حين يصلى فإنما يوجه صلاته لذاته وأنه هو قبلة ذاته فى صلاته... إلى آخر هذا الكلام الذى ليس له رأس ولا ذيل، ولا ندرى من أين يأتى به بعض المتصوفة؟ ومع هذا يختم د. ضيف كلامه عن ابن الفارض بأن تصوفه تصوف إسلامى خالص (انظر كتابه: "عصر الدول والإمارات - مصر" / دار المعارف/

١٩٩٠م/ ٣٥٧ - ٣٦١)، وهو ما أخالف أستاذي الفاضل فيه لأن النصوص التي أمامي تقول عكس ذلك كما بيّنتُ.

وأيا ما يكن الأمر فيها هو ذا أبو نواس مثلاً، وهو من هوإثما وفجورا معظم أدوار حياته، يتهل إلى ربه بكل بساطة مستغفرا تائباً مادحا واثقا في عفو الله وكرمه فيستولى منا على القلوب استيلاءً دون أن يلجأ إلى مثل تلك الأساليب المسيئة:

يا رب، إن عَظُمْتُ ذُنُوبِي كَثْرَةً إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ أَدْعُوكَ رَبِّ، كَمَا أَمَرْتُ، تَضَرَّعًا مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةً إِلَّا الرَّجَا	فلقد علمتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَغِيثُ الْمُجْرِمُ؟ فَإِذَا رَدَدْتُ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ؟ وجميلُ عَفْوَكَ ثمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ
--	--

الواقع أن د. محمد مصطفى حلمي يريدنا أن نتخلى عن فهمنا وعقولنا وما نراه بأعيننا ونسمعه بأذاننا ونعيه بأفئدتنا، ونصدق بما لا نقنع به! واعجباً! ولم كل هذا؟ لكي يبرئ صوفيًا من المؤاخذه. إذن فهو قد دخل الموضوع، وفي ذهنه فكرة مسبقة. أما أنا كاتب هذه السطور فقد أقبلت على الموضوع وأنا خالي الذهن تماماً، فقرأت شعر ابن الفارض، فبوغتُ بما عرضه هنا على القراء، فكانت لي تلك الوقفة. وأنا لست ضد الصوفية من ناحية المبدأ كما قلت من قبل، بل أنتقد ما أراه يستحق الانتقاد في كل الفرق والمذاهب لا في الصوفية وحدهم، وأعد نفسي مسلماً لا أتمى إلى أية جماعة أو مذهب أو حزب. وكتابي: "من الطبري إلى سيد قطب- دراسة

فى مناهج التفسير ومذاهبه" و"مسير التفسير- الضوابط والمناهج والاتجاهات" مثلاً يشهدان على هذا الذى أقول، وأقول معه دائماً إن ما أكتبه هو مجرد اجتهادات تصيب وتخطئ، إلا أننى مقتنع بصوابها مع ذلك، ولهذا أذعتها، ولولا الاقتناع ما نشرتها على الملأ.

ويذكرنا توجيه الدكتور محمد مصطفى حلمى، مع الفارق فى الدرجة، بتوجيه الشعرانى مثلاً لما كان يصدر عن بعض من ترجم لهم من صوفية عصره ممن يفسقون بالنساء والغلمان أمام الناس، أو يأتون من الأفعال كل شاذ غريب يدل على أنهم مخابيل، ويتلفظون من الكلام بكل ما هو بذىء جارج للحياء والذوق، إذ كان يمدحهم مع ذلك ويؤول كلامهم وأفعالهم بما لا يُخرجهم عن الولاية. وهذا مذهب بعض الناس ممن يسيرون على مبدأ "عنزة ولو طارت"! وتتخلص قصة تلك العنزة، ضمن ما قرأته عنها من تفسيرات، فى أن رجلين كانا يسيران معاً، وفجأة توقف أحدهما وأشار بيده نحو جسم أسود يقف على الأرض قائلاً لصاحبه: انظر لذلك الغراب. فقال الثانى: أيُّ غراب هداك الله؟ إنها عنزة! فاستهجن الأول ضعف بصر صاحبه وقال: إنه غراب. ألا ترى منقاره وذيله؟ ورد الثانى: أي ذيل ومنقار؟ ألا ترى قوائمه الأربع؟ فما كان من الأول إلا أن رمى حجراً تجاه الجسم الذى اختلفا عليه، فطار. فقال الثانى: لا تحاول معي. إنها عنزة ولو طارت! فصارت مثلاً ومبدأً عند كثير من الناس.

أما الدكتور زكي مبارك فله رأى آخر فى الأشعار التى يتجه فيها فعلا ابن الفارض إلى الذات الإلهية يعبر عن لواعج أشواقه إليها، وهو أن الصوفية لم يستطيعوا أن ينشئوا لأنفسهم لغة غزلية تختلف عن لغة الغزل البشرى. وسبب ذلك عنده أن "الحب الإلهى يغزو القلوب بعد أن تكون انطبعت على لغة العوام أصحاب الصبوات الحسية، فيمضى الشاعر إلى العالم الروحى ومعه من عالم المادة أدوات وأخيلة هى عُدته فى تصوير عالمه الجديد. ومثلهم فى ذلك مثل ابن الجهم حين غلبت عليه أخيلة البادية وهو يخاطب الخليفة فى بغداد". وابن الفارض فى حب الإلهى إنما كان يتكى على الأساليب والصيغ التى يصطنعها شعراء الحب البشرى من أمثال العباس بن الأحنف وابن زيدون (زكى مبارك/ التصوف فى الأدب والأخلاق / ١ / ٢٩٣).

وقد وقعت، وأنا أقرأ مادة "ابن الفارض" فى " Encyclopedia of Arabic Literature: موسوعة الأدب العربى"، على كلمة للمستشرق الإنجليزى نيكلسون يصف فيها أشعار ابن الفارض بأن معانيها الظاهرية والباطنية من التشابك والتضافر بحيث يمكن قراءتها باعتبارها قصائد غزلية أو تراويل صوفية: "Nicholson remarks that 'the outer and inner meanings are so interwoven that they may be read either as love poems or as mystical hymns"

ليس ذلك فحسب، بل هناك ما يسميه المتصوفة بـ"الخمر الإلهية"، تلك الخمر التي جعلها ابن الفارض، حسب التفسير الصوفي، محور قصيدته الميمية:

شربنا على ذكر الحبيب مُدَامَةً سَكَرْنَا بها من قبل أن يُخْلَقَ الْكَرُمُ
وقبل الدخول في تفاصيل القصيدة نسأل: هل يحق أن نقول بوجود
"خمر إلهية"؟ إنا، في دنيانا هذه، لا نعرف إلا خمرًا واحدة هي تلك الخمر
التي نهانا عنها الدين وحرّمها علينا تحريمًا قاطعًا، والتي يصفها القرآن المجيد
بأنها "رَجْسٌ من عمل الشيطان" حسبما نقرأ في النص التالي: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ منْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ
فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا
عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (المائدة/ ٩٠ - ٩٢)، فهي إذن خمر شيطانية،
وليست خمرًا إلهية. وفي هذه الخمر الشيطانية يقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم: "من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، وإن
مات دخل النار. فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له
صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار. فإن تاب تاب الله عليه، وإن
عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار.

فإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَةِ
الخبال يوم القيامة. قالوا: يا رسول الله، وما رَدْغَةُ الخبال؟ قال: عصارة أهل
النار". وقال عثمان رضى الله عنه: "اجتنبوا أم الخبائث فإنه كان رجل ممن
كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعَلَقَتْهُ امرأة فأرسلت إليه خادما: إنا ندعوك
لشهادة. فدخل، فطفقت كلما يدخل بابا أغلقتة دونه حتى إذا أفضى إلى
امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام وباطية فيها خمر، فقالت: إنا لم ندعك
لشهادة، ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام أو تقع عليّ أو تشرب كأسا من
الخمر. فإن أبيتَ صَحْتُ بك وفضحتك. قال: فلما رأى أنه لا بد له من
ذلك قال: اسقيني كأسا من الخمر. فسقته كأسا من الخمر، فقال: زيديني.
فلم تزل حتى وقع عليها، وقتلَ النَّفْس. فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع
إيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبدا، وليوشكن أحدهما يُخْرِج صاحبه".
هذا ما أعرفه، أما أن تكون هناك خمر أخرى تُنسب إلى الله فلا أدري في
الواقع كيف تكون، ولا أين نجدها. نعم هناك خمر أخرى في الجنة سيذوقها
المتقون، وهي خمر لذة للشاربين. لكنها لا تُسكر، فهي كما قال القرآن: "لا
فيها غَوْلٌ ولا هم عنها ينزفون"، وهو ما يتعارض مع قول ابن الفارض:
شربنا على ذكر الحبيب مُدَامَةً سَكَرْنَا بها من قبل أن يُخْلَقَ الْكَرَّمُ
ثم إن هذا، على أية حال، إنما سيكون في العالم الآخر لا في عالمنا
الحالي. وفوق ذلك لم يحدث قط أن استخدم كتاب الله أو حديث رسول الله

"السُّكْر" فى أية صورة بلاغية للإشارة إلى هذا الشعور الذى يحاول المتصوفة إقناعنا بأنه يحاظرهم حين يكونون تحت سلطان الحب الإلهى . بل إن الحب الإلهى لمن شأنه أن يوقظ النائم وينشط الكسلان ويردّ على السكران وعيه وصحوه لا العكس . كذلك لم يحدث للرسول أو أحد من أصحابه أى شىء مما يزعمه المتصوفة فى تلك الحالة . فكيف إذن نصدق ما يقوله المتصوفة فى هذا الشأن ؟ وكيف إذن بعد هذا كله تطاوع المتصوفة نفوسهم على نسبة الخمر إلى الله ، وهى فى الإسلام "أم الخبائث" ؟ وكيف استخدموها ، وهى أخبث شىء ، فى الدلالة على أظهر المعانى وأقدسها ؟ أوقد ضاقت الدنيا فى وجوههم فلم يجدوا إلا الخمر يتخذونها رمزا على الحب الإلهى ؟ لكأن المتصوفة مغرمون بالشذوذ والخروج على كل ما يليق فى تعبيرهم عما يقولون إنه الحب الإلهى ؟ ألا إن الأمر يحتاج إلى دراسة نفسية .

أمر آخر هو أن ابن الفارض ، بعد أن زعم أن كل المحبين الذين أتوا قبله أو سيأتون بعده هم "هو" فى الحقيقة ، وإن تعددت الأسماء واختلفت الأزمان والأماكن ، وكذلك بعد أن قال إن محبوبته هى نفسها محبوبات كل المحبين ظهرت فيهن رغم اختلاف الأسماء والأزمان والأماكن ، يقول إنه حين أحب محبوبته إنما أحب ذاته فى الحقيقة . فإذا قلنا بأن محبوبته التى يسميها مرة: ليلي ، ومرة: سعاد ، ومرة: سلمى . . . هى الذات الإلهية ، مما يصعب جدا أن نفسر الأبيات بغيره ، فمعنى ذلك أنه هو ومحبوبته شىء واحد :

وما زلتُ إياها، وإيايَ لم تزلْ	ولا فَرَقَ، بل ذاتي لذاتي أَحَبَّتْ
--------------------------------	-------------------------------------

والآن هل كان الرجل يقول بالاتحاد بالذات الإلهية؟ سوف أعطى فرصة الإجابة لعاشق ابن الفارض، وهو د. محمد مصطفى حلمي، الذي يقول إننا "سنبتين مع عاشقنا . . . أن الحب ما يرح يصفى نفسه شيئاً فشيئاً، ويظهر قلبه رويداً رويداً، حتى أشرقت جوانب باطنه بأنوار الجمال المطلق التي بها ينكشف المحبوب، وفيها يصبح الحب عين المحبوب، لا لأن الذاتين قد أصبحتا ذاتاً واحدة بعد أن كاتتا اثنتين، ولا لأنه لم يعد ثمة فَرَقٌ أو بَيْنٌ، وإنما لأن الحب أخذ نفسه بالرياضة والمجاهدة، وروّض نفسه على المكاشفة والمشاهدة، وصرف نفسه كلها عن كل شيء حتى خلص منها ومن كل شيء، وأفنى نفسه في محبوبته حتى فنى عن نفسه وعن كل شيء، فإذا هو يمسى ويصبح فلا خبر له من نفسه ولا من أي شيء، وإنما كل ما هنالك هو ذات محبوبته، التي استوعب جمالها وحبها كل حياته" (ص ١٨ - ١٩ من كتابه: "ابن الفارض سلطان العاشقين"). وإذا كان لا بد من تعليق على هذا التفسير المصوغ، ككل شيء يكتبه د. حلمي، بأسلوب عذب جميل مفعم بالأناقة والتوقيع الموسيقي يمكن أن يُغشى على بصر القارئ لو لم يكن يقظاً، فإنني أقول إن الدكتور حلمي كان في هذه السطور ملكياً أكثر من الملك، فابن الفارض قد قال بصريح العبارة:

وما زلتُ إياها وإيايَ لم تزلْ	ولا فَرَقَ، بل ذاتي لذاتي أَحَبَّتْ
-------------------------------	-------------------------------------

وهو ما يعنى أن الذاتين أصبحتا ذاتا واحدة، إذ ها هو ذا يقول بوضوح ما بعده وضوح، وصراحة لا تدانيها صراحة، إنه هو هـى لا فرق بينهما، وإنها هـى هو، وإنه حين أحبها إنما أحبت ذاته ذاته لا ذاتا أخرى. ولو كان تفسير الدكتور حلمى مستقيما لقال ابن الفارض إنه فنى عن ذاته ولم يعد يشعر بها بسبب هذا الفناء، وإن كنت لا أدري كيف يكون ذلك، ولكنه على أية حال أقل فى التجاوز من القول بالاتحاد، ومع ذلك فهو لم يقله، بل قال ما قلناه. ثم إن الدكتور، يرحمه الله، قد أقر بـ "أن الحب ما برح يصفى نفس ابن الفارض شيئا فشيئا، ويطهر قلبه رويدا رويدا، حتى أشرقت جوانب باطنه بأنوار الجمال المطلق التى بها ينكشف المحجوب، وفيها يصبح الحب عين المحبوب"، فهل لهذا معنى غير ما قلناه؟ أما محاولة الأستاذ الدكتور توجيه هذا الكلام الذى قاله هو نفسه لا أحد سواه إلى معنى آخر فهى محاولة غير مقنعة. وعلى أية حال فهذه هى الآيات التى ورد ذلك البيت فى سياقها، والكلام فيها عن قيس وكثير وجميل وحبائهم: ليلى وعزة وبشينة. أما الضمير المفرد المؤنث فى "لها" وأمثالها فيعود على حبيبته هو:

بدوت لها فى كل صَبٍّ مُتِمِّمٌ وَلَيْسُوا بِغَيْرِي فِي الْهَوَى لَتَقْدَمُ وما القومُ غيري في هواها، وإنما ففي مرّة قيساً، وأخرى كثيراً تجلّيتُ فيهم ظاهراً واختبئتُ با	بأيّ بديعٍ حُسْنُهُ وبأية عَلَيَّ لَسَبَقٍ فِي اللَّيَالِي الْقَدِيمَةِ ظَهَرْتُ لَهُمْ لِلْبَسِّ فِي كُلِّ هَيْئَةٍ وَأَوْنَةً أَبْدُو جَمِيلَ بُشِينَةٍ طَنّاً بِهِمْ، فاعْجَبْ لِكَشْفِ بُسْرَةٍ
--	---

وَهُنَّ وَهْمٌ لَا وَهْنٌ وَهَمَّ مَظَاهِرُ فَكُلُّ قَتَى حُبٌّ أَنَا هُوَ، وَهِيَ حُـ أَسَامِ بِهَا كُنْتُ الْمُسَمَّى حَقِيقَةً وَمَا زِلْتُ لِإِيَّاهَا، وَإِيَّايَ لَمْ تَزَلْ وَلَيْسَ مَعِيَ فِي الْمَلِكِ شَيْءٌ سِوَايَ، وَالـ وَهَذِي يَدِي، لَا إِنَّ نَفْسِي تَخَوَّفْتُ	لَنَا بِتَجَلِينَا مُجِبٌ وَنُضْرَةٌ سَبَّ كُلُّ قَتَى، وَالْكُلُّ أَسْمَاءُ لُبْسَةٍ وَكُنْتُ لِي الْبَادِي بِنَفْسٍ تَخَفْتُ وَلَا فَرَقَ، بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أَحَبَّتْ سَمْعِيَّةٌ لَمْ تَخْطُرْ عَلَى الْمَعِيَّةِ سِوَايَ، وَلَا غَيْرِي لِغَيْرِي تَرَجَّتْ
--	--

ثم لناخذ هذه الأبيات من تأنيته الصغرى، وهى تدور فى نفس المدار، وإن كانت متعشكة بعض الشيء:

وَمَا شَانَ هَذَا الشَّانَ مِنْكَ سِوَى السَّوَى كَذَا كُنْتُ حِينَا قَبْلَ أَنْ يُكْشَفَ الْغَطَا أَرْوَحُ بِفَقْدِ الشَّهَوْدِ مَوْلَفِي يُفَرِّقُنِي لَبِّي الزَّامًا بِمَحْضَرِي أَخَالَ حَضِيضِي الصَّخْوَ، وَالسَّكْرَ مَعْرِجِي فَلَمَّا جَلَوْتُ الْغَيْنَ عَنِّي اجْتَلَيْتَنِي وَمِنْ فَاقَتِي سُكْرًا غَنِيْتُ إِفَاقَةَ فَجَاهَدُ تَشَاهُدَ فَيْكَ مِنْكَ وَرَاءَ مَا فِنْ بَعْدَمَا جَاهَدْتُ شَاهِدْتُ مُشْهَدِي وَبِي مَوْقِفِي لَا بَلَّ إِلَيَّ تَوَجُّهِي فَلَا تَكُ مَفْتُونًا بِحُسْنِكَ مُعْجَبًا وَفَارِقُ ضَلَالِ الْفَرَقِ، فَالْجَمْعُ مُنْتَجِ	وَدَعَاؤُهُ حَقًّا عَنْكَ إِنْ تَمَحَّ تَبَّتْ مِنْ اللَّبْسِ لَا أَتُفَكُّ عَنْ ثَنَوِيَّةِ وَأَغْدُو بِوَجْدٍ بِالْوُجُودِ مُشْتِي وَيَجْمَعُنِي سَلْبِي اصْطِلَامًا بَغِيْبِي إِلَيْهَا، وَمَحْوِي مُنْتَهَى قَابِ سِدْرَتِي مُفِيْقًا، وَمَنْبِي الْعَيْنُ بِالْعَيْنِ قَرَّتْ لَدَى فَرَقِي الثَّانِي، فَجَمْعِي كَوَحْدَتِي وَصَفْتُ سُكُونًا عَنْ وَجُودِ سَكِينَةٍ وَهَادِي لِي إِيَّايَ بَلَّ بِي فُذْرَتِي كَذَاكَ صَلَاتِي لِي، وَمَنْبِي كَعْبَتِي بِنَفْسِكَ مَوْقُوفًا عَلَى لُبْسِ غَرَّةِ هُدَى فَرَقَةٍ بِالْإِتِّحَادِ تَحَدَّتْ
---	---

بَتَقْيِيدِهِ مَيْلًا لِرُخْرُفِ زِينَةٍ مُعَارِلُهُ بَلْ حُسْنُ كُلِّ مَلِيحَةٍ كَمَجْنُونٍ لَيْلَى أَوْ كَثِيرِ عَزَّةٍ بَصُورَةٍ حُسْنٍ لَاحٍ فِي حُسْنِ صُورَةٍ فَظَنُوا سِوَاهَا وَهِيَ فِيهَا تَجَلَّتْ	وَصَرَّحَ بِإِطْلَاقِ الْجَمَالِ وَلَا تَقُلْ فَكُلِّ مَلِيحٍ حُسْنُهُ مِنْ جَمَالِهَا بِهَا قَيْسُ لُبْنَى هَامَ بَلْ كُلِّ عَاشِقٍ فَكُلِّ صَبَا مِنْهُمْ إِلَى وَصْفِ لُبْسِهَا وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ بَدَتْ بِمَظَاهِيرِ وَتَظْهَرُ لِلْعُشَّاقِ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ فَفِي مَرَّةٍ لُبْنَى، وَأُخْرَى بُشَيْنَةَ وَلَسْنِ سِوَاهَا لَا وَلَا كُنْ غَيْرَهَا كَذَاكَ بِحُكْمِ الْإِتِّحَادِ بِحُسْنِهَا
--	---

ثم هذه الأبيات من التائية الكبرى:

وَيَشْهَدُنِي قَلْبِي أَمَامَ أُنْمَتِي ثَوْتُ فِي فَوَادِي وَهِيَ قِبَلَةُ قِبَلَتِي بِمَا تَمَّ مِنْ نُسْكَ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِي صَلَتْ حَقِيقَتُهُ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةٍ صَلَاتِي لَغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةٍ وَحَلُّ أَوَاخِي الْحُجْبِ فِي عَقْدِ بَيْعَتِي	يَرَاهَا إِمَامِي فِي صَلَاتِي نَاطِرِي وَلَا غُرُوْ أَنْ صَلَّى الْإِمَامُ إِلَيَّ أَنْ وَكُلُّ الْجِهَاتِ السَّتِّ نَحْوِي تَوَجَّهَتْ لَهَا صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أَقِيمُهَا كَلَانَا مُصَلِّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى وَمَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَى كَمِ أَوَاخِي السِّرِّهَا قَدْ هَتَكَهُ
--	---

* * *

وَأُنْهِيَ انْتِهَائِي فِي تَوَاضُعٍ رَفْعَتِي وَهَا أَنَا أَبْدِي فِي اتِّحَادِي مُبْدِي

ففي كُلِّ مَرْنِي أراها برؤية
هناك إياها بجولة خلوتي
وجود شهودي ماحياً غير مثبت
بشهادة الصحو من بعد سكرتي
وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت
وهيئتها، إذ واحد نحن، هيئتي
منادي أجابت من دعائي ولبت
قصصت حديثاً إنما هي قصت
وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
حجراك ولم يثبت لبعد تثبت
رُشمل بفرق الوصف غير مُشتت
بايناس ودي ما يؤدّي لوخشة
وأثبت صحو الجمع نحو التشتت
لنطق وإدارك وسمع وبطشة
وينطق مني السمع، واليد أصغت
وعيني سمع إن شدا القوم نُصت
يدي لي لسان في خطابي وخطبي
وعيني يد مبسوطة عند بسطتي
لساني في إصغائه سمع مُنصت
سجاد صفاتي أو بعكس القضية

جَلْتُ في تجلّيها الوجود لناظري
وأشهدت غيبي إذ بدت فوجدتني
وطاح وجودي في شهودي، ونبئت عن
وعانت ما شاهدت في نحو شاهدي
ففي الصحو بعد المصحو لم أك غيرها
فوصفي إذ لم تدع باثنين وصفها
فإن دُعيت كنت المُجيب، وإن أكن
وإن نطقت كنت المناجي. كذا إن
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا
فإن لم يجوز رؤية اثنين واحدا
ولما شعبت الصدع والتأمت فطو
ولم يبق ما بيني وبين توقي
تحققت أنا في الحقيقة واحد
وكلي لسان ناظر مسمع يد
فعيني ناجت، واللسان مُشاهد
وسمعي عين تجتلي كل ما بدا
ومني عن أيد لساني يد كما
كذلك يدي عين ترى كل ما بدا
وسمعي لسان في مخاطبتي. كذا
وللشم أحكام اطراد القياس في ات-

وما في عضوٍ خُصَّ من دون غيره
ومني على أفرادها كل ذرة
يُنَاجِي وَيُصْغِي عن شهودٍ مُصَرِّفٍ
فَأَتْلُو عُلُومَ الْعَالَمِينَ بِلَفْظَةٍ
وَأَسْمَعُ أَصْوَاتَ الدَّعَاةِ وَسَائِرِ اللَّـهِ
وَأُحْضِرُ مَا قَدْ عَزَّ لِلْبُعْدِ حَمْلُهُ
وَأُنْشِقُ أَرْوَاحَ الْجَنَانِ وَعَرَفَ مَا
وَأُسْتَعْرِضُ الْآفَاقَ نَحْوِي بِخَطَرَةٍ
وَأُشْبِاحُ مَنْ لَمْ تُبْقَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ
فَمَنْ قَالَ أَوْ مَنْ طَالَ أَوْ صَالَ إِنَّمَا
وما سارَ فوقَ الماءِ أَوْ طَارَ فِي الْهَوَا
وَعَنِّي مَنْ أُمِدَّدَتْهُ بِرَقِيقَةٍ
وَفِي سَاعَةٍ أَوْ دُونَ ذَلِكَ مَنْ تَلَا
وَمَنِّي لَوْ قَامَتْ بِمَيِّتٍ لَطِيفَةٌ
هِيَ النَّفْسُ إِنْ أَلْقَتْ هَوَاهَا تَضَاعَفَتْ
وَنَاهِيكَ جَمْعًا لَا يَفْرُقُ مَسَاحَتِي
بِذَلِكَ عَلَا الطُّوفَانُ نُوحٌ، وَقَدْ نَجَا
وَعَاظَ لَهُ مَا فَاضَ عَنْهُ اسْتِجَادَةٌ
وَسَارَ، وَمَتْنُ الرِّيحِ تَحْتَ بَسَاطِهِ،

بَتَّيْنِ وَصُفِّ مِثْلَ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ
جَوَامِعُ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ أُخِيتَ
بِمَجْمُوعِهِ فِي الْحَالِ عَنْ يَدِ قُدْرَةٍ
وَأَجَلُّو عَلَيَّ الْعَالَمِينَ بِالْحُظَّةِ
لَغَاتِ بَوَقْتٍ دُونَ مَقْدَارِ لَمْحَةٍ
وَلَمْ يَرْتَدِّ طَرْفِي إِلَى بَغْمُضَةٍ
يُصَافِحُ أَذْيَالَ الرِّيَّاحِ بِنَسْمَةٍ
وَأَخْتَرَقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِخُطْوَةٍ
لِجَمْعِي كَالْأَرْوَاحِ حَفَّتْ فَخَفَّتْ
يُمِيتُ بِإِمْدَادِي لَهُ بِرَقِيقَةٍ
أَوْ اقْتَحَمَ النَّيِّرَانَ إِلَّا بِهَمَّتِي
تَصَرَّفَ عَنْ مَجْمُوعِهِ فِي دَقِيقَةٍ
بِمَجْمُوعَةٍ جَمْعِي تَلَا أَلْفَ خَمَةِ
لَرَدَّتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَأُعِيدَتْ
قُوَاهَا وَأَعْطَتْ فَعْلَهَا كُلَّ ذَرَّةٍ
مَكَانَ مَقْيَسٍ أَوْ زَمَانٍ مُوقَّتٍ
بِهِ مَنْ نَجَا مِنْ قَوْمِهِ فِي السَّفِينَةِ
وَجَدَّ إِلَى الْجُودِيِّ بِهَا وَاسْتَقَرَّتْ
سُلَيْمَانُ بِالْجَيْشَيْنِ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ

وقبل ارتداد الطرف أُحْضِرَ مِنْ سَبَا
وَأَخْمَدَ إِبْرَاهِيمَ نَارَ عَدُوِّهِ
ولما دعا الأَطْيَارَ مِنْ كُلِّ شَاهِقٍ
لَهُ عَرْشُ بَلْقَيْسٍ بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ
وَعَنْ نُورِهِ عَادَتْ لَهُ رَوْضَ جَنَّةٍ
وقد ذُبِحَتْ جَاءَتْهُ غَيْرَ عَصِيَّةٍ

* * *

وأهل تلقى الروح باسمي دَعَا إِلَى
وَكُلُّهُمْ عَنْ سَبْقٍ مَعْنَايَ دَائِرُ
وَأَنِّي، وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ آدَمَ صُورَةً،
ونفسي على حَجَرِ التَّجَلِّي بِرُشْدِهَا
وفي المَهْدِ حَزْبِي "الأنبياء" وفي عَنَا
وقبل فصالي دون تَكْلِيفِ ظَاهِرِي
فَهُمْ وَالْأَلَى قَالُوا بِقَوْلِهِمْ عَلَى
فِيْمَنْ الدَّعَاةُ السَّابِقِينَ إِلَيَّ فِي
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْأَمْرَ عَنِّي خَارِجًا
ولولائي لَمْ يُوجَدْ وُجُودٌ، وَلَمْ يَكُنْ
فَلَا حَيٌّ إِلَّا مِنْ حَيَاتِي حَيَاتُهُ
وَلَا قَائِلٌ إِلَّا بِلَفْظِي مُحَدَّثُ
وَلَا مُنْصَتٌّ إِلَّا بِسَمْعِي سَامِعُ
وَلَا نَاطِقٌ غَيْرِي وَلَا نَاطِرٌ وَلَا
وفي عَالَمِ التَّرَكِيبِ فِي كُلِّ صُورَةٍ

سبيلي وَحَجُّوا الْمُلْحِدِينَ مُجَجَّتِي
بِدَائِرَتِي أَوْ وَارِدُ مِنْ شَرِيعَتِي
فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِأَبَوْتِي
تَجَلَّتْ وَفِي حَجَرِ التَّجَلِّي تَرَبَّتْ
صَرِي لَوْحِي الْحَفُوظُ وَالْفَتْحُ
سُورَتِي
خَتَمْتُ بِشَرْعِي الْمَوْضِحِي كُلَّ شَرْعَةٍ
صِرَاطِي لَمْ يَعْدُوا مَوَاطِئَ مَشْيَتِي
يَمِينِي، وَيُسْرُ الْأَحْقِينَ بَيْسَرَتِي
فَمَا سَادَ إِلَّا دَاخِلٌ فِي عُبُودَتِي
شُهُودٌ، وَلَمْ تَعْهَدْ عُهُودٌ بِذِمَّةٍ
وَطَوْعُ مُرَادِي كُلِّ نَفْسٍ مُرِيدَةٍ
وَلَا نَاطِرٌ إِلَّا بِنَاطِرِ مُقْلَتِي
وَلَا بَاطِشٌ إِلَّا بِأَزْلِي وَشِدَّتِي
سَمِيعٌ سِوَايَ مِنْ جَمِيعِ الْخَلِيقَةِ

وفي كل معنى لم تُبْنِه مظاهري
وفيما تراه الروح كشف فراسة
وفي رَحْمَتِ البسط كلِّي رَغْبَةٍ
وفي رَهَبَتِ القبض كلِّي هَيْبَةٍ
وفي الجمع بالوصفين كلِّي قُرْبَةٍ
وفي مُنتَهَى "في" لم أزل بي واجداً
وفي حيث "لا في" لم أزل في شامداً
فإن كنت مني فأنح جمعي، وأمنح فر
...
وجاء حديث في اتحادي ثابت

* * *

تسببت في التوحيد حتى وجدته
ووجدت في الأسباب حتى فقدتها
وجردت نفسي عنهما فتجردت
وغضت بحار الجمع بل خضتها على ان
لأسمع أفعالي بسمع بصيرة
فإن ناح في الأيك الهزار وغردت
وأطرب بالمرزار مصلحة على
وغنت من الأشعار ما رق فارتقت
وواسطة الأسباب إحدى أدلي
ورابطة التوحيد أجدى وسيلة
ولم تك يوماً قط غير وحيدة
ففرادي، فاستخرجت كل يتيمة
وأشهد أقوالي بعين سمعية
جواباً له الأطيبار في كل دوحة
مناسبة الأوتار من يد قينة
لسدرتها الأسرار في كل شذوة

تَنَزَّهْتُ فِي آثَارِ صُنْعِي مُنْزَهًا
فِي مَجْلَسِ الْأَذْكَارِ سَمْعُ مُطَالَعٍ
وَمَا عَقَدَ الزُّنَارَ حُكْمًا سِوَى يَدِي
وَإِنْ نَارَ بِالتَّنْزِيلِ مُحَرَّابٌ مَسْجِدٍ
وَأَسْفَارُ تَوْرَةِ الْكَلِيمِ لِقَوْمِهِ
وَإِنْ خَرَّ لِلْأَحْجَارِ فِي الْبَدِّ عَاكِفٌ
فَقَدْ عَبَدَ الدِّينَارَ مَعْنَى مُنْزَهٍ
وَقَدْ بَلَغَ الْإِنْذَارَ عَنِّي مَنْ بَغَى
وَمَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ مِنْ كُلِّ مَلَةٍ
وَمَا اخْتَارَ مَنْ لِلشَّمْسِ عَنْ غَرَّةٍ صَبَا
وَإِنْ عَبْدَ النَّارِ الْمَجُوسُ وَمَا انْطَفَتْ
فَمَا قَصَدُوا غَيْرِي وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ
رَأَوْا ضَوْءَ نَوْرِي مَرَّةً فَتَوَهَّمُوا
عَنِ الشُّرْكِ بِالْأَغْيَارِ جَمْعِي وَالْفَتَى
وَلِي حَانَةَ الْخَمَارِ عَيْنُ طَلِيعَةٍ
وَإِنْ حُلَّ بِالْإِقْرَارِ بِي فَهِيَ حَلَّتْ
فَمَا بَارَ بِالْإِنْجِيلِ هَيْكَلِ بَيْعَةٍ
يُنَاجِي بِهَا الْأَحْبَارُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ
فَلَا وَجْهَ لِلْإِنْكَارِ بِالْعَصْبِيَّةِ
عَنِ الْعَارِ بِالْإِشْرَاكِ بِالْوُثْنِيَّةِ
وَقَامَتْ بِي الْأَعْدَارُ فِي كُلِّ فَرْقَةٍ
وَمَا زَاغَتِ الْأَفْكَارُ مِنْ كُلِّ نَحْلَةٍ
وَإِشْرَاقُهَا مِنْ نُورِ إِسْفَارِ غُرَّتِي
كَمَا جَاءَ فِي الْإِخْبَارِ فِي أَلْفِ حِجَّةٍ
سِوَايَ وَإِنْ لَمْ يُظْهِرُوا عَقْدَ تَيْبَةٍ
هُ نَارًا فَضَلُّوا فِي الْهَدَى بِالْأَشْعَةِ

وفى المادة المخصصة لشاعرنا فى " L'Encyclopédie Universalis " نقرأ أن دوره فى تاريخ التصوف يتلخص فى أن التيار القائم على الاتحاد بالذات الإلهية قد ابتدأ به: " Quant au rôle d'Ibn al-Fāriḍ dans le développement du sufisme, on peut le résumer ainsi : « Avec lui prenait son départ la grande école des "ittihādīya, des partisans de l'union avec Dieu

وأخيراً، وليس آخراً، فإن المتحمسين لهذا الكلام من ابن الفارض وأمثاله من المتصوفة يشيرون في هذا السياق إلى حديث يزعمون أنه حديث قدسي يقول فيه رب العالمين: "كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق، فيه عرفوني". وقد ذكر العجلوني هذا الحديث في "كشف الخفاء" برقم ٢٠١٦ بلفظ "كنت كنزاً لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً فعرفتهم بي، فعرفوني". وفي لفظ: "تعرفت إليهم، فبي عرفوني". قال العجلوني: "المشهور على الألسن: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً، فبي عرفوني". وهو واقع كثيراً في كلام الصوفية. وهذا حديث موضوع مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم. قال العجلوني: قال ابن تيمية: ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُعرف له سندٌ صحيح ولا ضعيف. وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في "اللائي"، والسيوطي وغيرهم". ثم ما معنى أنه سبحانه كان كنزاً مخفياً؟ ترى مخفياً عن من؟ إنه لم يكن هناك إلا ذاته حسبما يقول الحديث، فهل يمكن أن يكون مخفياً عن نفسه؟ مستحيل، فالله يعلم كل شيء، علاوة على أن الإنسان المخلوق لا يخفى على نفسه، فما بالنا بالله جل في علاه؟ أم تراه كان مخفياً عن الخلق؟ ولكن هل كان هناك وقتٌ خلق أصلاً؟ إذن فليس صواباً أن يقال إنه كان مخفياً عنهم، لأنهم لا بد أن يوجدوا أولاً حتى يمكن أن يقال إنه مخفى عنهم. ثم هل كان الله بحاجة إلى أن يعرفه أحد؟ اليس هو الغنى

بذاته عن كل أحد وكل شيء؟ وإذا كان هو الذى خلق الخلق، الذين كان بحاجة إلى أن يعرفوه بعدما كان كالكنز المخفى كما يقول الحديث الموضوع، أفليس هذا دليلاً على ما أقول من أنه سبحانه وتعالى لم يكن بحاجة إليهم؟ ذلك أنه هو الذى خلقهم، والخالق لا يحتاج إلى من يخلقه. من هنا فإن كل ما يتعلق بهذا الموضوع متهافت أشد التهافت كما نرى. ثم إن المعرفة شيء، والحب شيء آخر، إذ ما أكثر من يعرف بوجود الله، لكنه لا يوحدّه أو يعبدّه، كمشركي العرب قبل البعثة، بله أن يحبه.

هذا من ناحية المضمون فى شعر ابن الفارض، فما الحكم عليه من الناحية الفنية؟ أولاً لا بد أن أقول إن فى كثير من شعر ابن الفارض حرارة وعدوبة، وفى نفس الوقت فيه بديعيات كثيرة، وكل من هذين الأمرين لا ينسجم مع الآخر عادةً. لكن هناك من الشعراء من يستطيع توفير ذلك الانسجام كما هو الحال مثلاً فى قصيدة ابن زيدون النونية التى لا أسوّى بها قصيدة أخرى فى نفس موضوعها فى أدبنا العربى، بل لا أتصور أن يكون لها نظير فى الآداب غير العربية، فقد استطاع ابن زيدون أن يبلغ فيها مستوى من السمو والشموخ والروعة لم يبلغه شاعر غزلى آخر. لكننى، فى غمرة التذاذى بشعر ابن الفارض، ما إن أتذكر ما يقال من أن هذا الشعر هو فى الحب الإلهى حتى تضعف لذتى وتفتّر حرارتى وحماستى. صحيح أننى لا أنسى أبداً هذا التفسير، إلا أنه يظل بعيداً عن سطح وعيى فلا يكون فى

مركز الانتباه، أما ما أنا بسبيله الآن فخاصٌ بانتقال ذلك الشعور من خلفيّة الوعى إلى صدّارته. وسمة أخرى من سمات شعر ابن الفارض هى تعشّكل العبارة أحيانا بسبب تعشّكل المعنى. ومن السهل على القارئ أن يلحظ ذلك فى أبيات الثائية المارة لتوها. وسبب هذا التعشّكل هو قوله بالاتحاد ورغبته فى التعبير عن هذا المعنى، ولكن بطريقة مداورة لا تقصد إلى المراد مباشرة عادةً حتى لا يأخذها عليه آخذ فتكون مشكلة، بل تلف وتدور مستخدمة الضمائر المختلفة متقاربة بل متلاصقة أحيانا على غير ما عهد الناس استخدام الضمائر فى لغة العرب. واستخدام الضمائر بهذا الشكل يحوج القارئ إلى أن يكون فى غاية التنبه، وإلا توجّب عليه أن يعيد قراءة الأبيات من جديد. ومع هذا فإن قول ابن الفارض بالاتحاد يظهر فى بعض الأحيان بما فيه الكفاية رغم كل شىء. وسمة ثالثة هى إكثاره من المصطلحات الصوفية من بسط وقبض ومحو وإثبات وفناء ووجود وافتراق وجمع وانفصال واتحاد. وقد مرت أمثلة على هذا فى النصوص التى أوردناها آنفا.

وهناك أيضا كثرة القوافى الداخلية:

وَأَحْسَرْتِي ضَاعَ الزَّمَانُ وَلَمْ أَفْزُ	مِنْكُمْ أَهْيَلُ مَوَدَّتِي بِلِقَاءِ
وَمَتَى يُؤَمِّلُ رَاحَةً مِنْ عُمْرِهِ	يَوْمَانِ: يَوْمٌ قَلْبِي وَيَوْمٌ تَنَائِي
فَهُمْ هُمُ صَدُّوا دَنَوًا وَصَلُّوا جَفَوًا	غَدَرُوا وَفَوَّا هَجَرُوا رَثَوًا لَضَائِي

* * *

حَيْثُ الْحَمَى وَطَنِي، وَسُكَّانُ الْغُضَا سَكَنِي، وَوَرْدِي الْمَاءُ فِيهِ مُبَاحَا

وَأُهَيْلُهُ أَرِي، وَظِلُّ نَخِيلِهِ طَرَبِي، وَرُمْلَةُ وَادِيهِ مَرَّاحَا

* * *

مَا تَرَى الْعَيْسَ بَيْنَ سَوْقٍ وَشَوْقٍ لَرَبِّيعِ الرَّبُّوعِ غَرَثِي صَوَادِي

* * *

كَانَ فِيهَا أَنْسِي وَمِعْرَاجُ قُدْسِي وَمُقَامِي الْمَقَامِ، وَالْفَتْحُ بَادِي

* * *

وِظَلَالِ الْجَنَابِ وَالْحَجَرِ وَالْمِيْءِ وَزَابِ الْمُسْتَجَابِ لِلْقَصَادِ
والموازنة:

يُنْجَا بِهَا مَنْ كَانَ يَحْسَبُ هَجْرَكُمْ مَرْحَا، وَيَعْتَقِدُ الْمَزَاحَ مَزَاحَا

* * *

عُمْرُهُ وَاصْطِبَارُهُ فِي اتِّقَاصِ وَجَوَاهُ وَوَجْدُهُ فِي ازْدِيَادِ

* * *

وَيَفْرَحَ مُحْزُونٌ، وَيَحْيَا مُتَيْمٌ وَيَأْنِسَ مُشْتَقٌ، وَيَلْتَذَّ سَامِعٌ

* * *

فَالْوَجْدُ بَاقٍ، وَالْوِصَالُ مُمَاطِلِي وَالصَّبْرُ فَنٍ، وَاللِّقَاءُ مُسَوِّفِي

* * *

مَنِي لَهُ ذُلُّ الْخَضُوعِ، وَمَنْهُ لِي عِزُّ الْمُنُوعِ وَقُوَّةُ الْمُسْتَضْعِفِ

* * *

يا مانعي طيب المنام، ومانحي ثوب السقام به ووجدني المتلف

* * *

فسمعت ما لم تسمعي، ونظرت ما لم تنظري، وعرفت ما لم تعرفي

* * *

فالوجد باق، والوصال مُماطلاي والصبر فان، واللقاء مُسوّفي

* * *

صفاء ولا ماء، ولطف ولا هواً ونور ولا نار، وروح ولا جسم

والجناس:

نحرت لضيئف الطيف في جفني الكرى قرى فجرى دمعى دماً فوق وجنتي
ومنت وما ضنت علي بوقفه تعادل عندي بالمعرف وقتي

* * *

ولولاك ما استهديت برقا ولا شجعت فؤادي فأبكت إذ شدت ورق أيكه
فذاك هدى أهدى إلي، وهذه على العود إذ غنت عن العود أغنت

...

فبَلْ غَلِيلٍ مِنْ عَلِيلٍ عَلَى شِفَا يُبَلِّ شِفَاءً مِنْهُ أَعْظَمُ مِنْهُ

...

وأبعدني عن أربعى بُعد أربع فلي بعد أوطاني سكوناً إلى الفلا
وبالوحش أنسي إذ من الإنس وحشي وزهد في وصلي الغواني إذ بدا
تبلغ صبح الشيب في جنح لمتي فرحن مجزن جازعات بعيد ما

...

فَأَصْبَحَ لِي مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ عَاذِلًا بِهِ عَاذِرًا بَلْ صَارَ مِنْ أَهْلِ نَجْدَتِي

...

وَقَالَ: تَلَا فِي مَا بَقِيَ مِنْكَ. قُلْتُ: مَا أَرَانِي إِلَّا لِلتَّلَافِ تَلَفْتِي

...

سَقَى بِالصَّفَا الرَّبْعِي رُبْعًا بِهِ الصَّافَا وَجَادَ بِأَجِيَادِ ثَرَى مِنْهُ ثُرُوتِي

...

غَرَامِي بِشُعْبِ عَامِرِ شَعْبِ عَامِرِ غَرِيمِي، وَإِنْ جَارُوا فَهَمْ خَيْرُ جِيرَتِي

...

وَمَا جَزَعَنِي بِالْجَزْعِ عَنْ عِبْثٍ وَلَا بَدَا وَلَعًا فِيهَا وَلُوعِي بِلُوعَتِي

* * *

فَاللَّوْمُ لَوْمٌ، وَلَمْ يُنْدَحْ بِهِ أَحَدٌ وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبًّا بِالْغَرَامِ هُجِي؟

* * *

يَهْوِي لِذِكْرِ اسْمِهِ مَنْ لَبَّحَ فِي عَذَلِي سَمِعِي، وَإِنْ كَانَ عَذَلِي فِيهِ لَمْ يَلْبَحْ

* * *

خَلِيلِي، إِنْ جُتُّمَا مِنْ زِلِي وَلَمْ تَجِدَاهُ فَسِيحًا فَسِيحًا

وَإِنْ رُمُّتُمَا مِنْطَقًا مِنْ فَمِي وَلَمْ تَسْمَعَاهُ فَصِيحًا فَصِيحًا

* * *

أَضْحَى بِإِحْسَانٍ وَحُسْنٍ مُعْطِيَا لِنَفَائِسٍ، وَلَأَنْفُسٍ أَخَاذَا

* * *

قَسَمًا بِمَنْ فِيهِ أَرَى تَعَذُّبَهُ عَذْبًا وَفِي اسْتِذْلَالِهِ اسْتِذْذَاذَا

والطباق والمقابلة:

فجسّمي وقلبي مُستحيلٌ وواجبٌ وخَدَيَّ مندوبٌ لجائزٍ عبّرتي

* * *

وأنبضَ وجهه غرامي في محبته واسودَّ وجهه ملامي فيه بالحجج

* * *

أم تلكَ ليلي العامريةُ أسفرتُ لئلاً فصيرتَ المساءَ صباحاً؟
يا راكبَ الوجناء، وقيتَ الردى إن جُبتَ حزناً أو طويتَ بطاحاً

* * *

ما أمرَ الفراقُ يا جيرةَ الحـ سيّ، وأحلى التلاق بعد انفراق!

* * *

عُمُرُهُ واصطبّاره في انتقاصٍ وجَوَاهُ ووجده في ازديادٍ

* * *

للماءِ عُدْتُ ظمًا كأصْدَى وارِدٍ مُنِعَ الفُراتُ وكنتُ أرْوَى صادرٍ
خيرُ الأصحابِ الذي هو آمري بالغِيّ فيه وعن رشادي زاجري

* * *

يُدْثِنِي الحبيبُ، وإن تَناءَتْ دارُهُ، طَيْفُ المَلامِ لَطَرْفِ سَمْعِي الساهرِ

* * *

ولُبَعْدِهِ اسودَّ الضحى عندى كما أبـ يَصُتُّ لِقُربِ مَنْهْ كان دِياجِري

* * *

أَنْتُمْ فُرُوضِي ونَقْلِي أَنْتُمْ حَدِيثِي وشُغْلِي

...

فالموتُ فيه حياتي وفي حياتي قُتلي

وهناك كثرة النداء، وكثرة الاستفهام أو الدعاء بعد النداء:

يا رَاكِبَ الْوَجْنَاءِ، بُلِّغْتَ الْمُنَى، عَجِبْ بِالْحَمَى إِنَّ جُرُتَ بِالْجَرَعَاءِ

...

يا سَاكِنِي الْبَطْحَاءِ، هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ أَحْيَا بِهَا يَا سَاكِنِي الْبَطْحَاءِ؟

* * *

يا رَاكِبَ الْوَجْنَاءِ، وُقِّيتَ الرَّدَى إِنَّ جُبْتَ حَزْنًا أَوْ طَوَّيْتَ بَطَاحًا

...

يا سَاكِنِي نَجْدٍ، أَمَا مِنْ رَحْمَةٍ لِأَسِيرِ أَلْفٍ لَا يُرِيدُ سَرَاحًا؟

...

يا عَاذِلَ الْمُشْتَاكِ جَهْلًا بِالَّذِي يُلْقَى مَلِيًّا، لَا بَلَغْتَ نَجَاحًا

...

يا أَهْلَ وَدْيٍ، هَلْ لِرَاجِي وَصْلِكُمْ طَمَعٌ فَيَنْعَمَ بِاللَّهِ اسْتِرْوَا حَا؟

* * *

خَاطِبَ الْخَطْبِ، دَعِ الدَّعْوَى، فَمَا بِالرُّقَى تَرْقَى إِلَى وَصْلِ رُقَى

...

أَيُّ لِيَالِي الْوَصْلِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ وَمِنْ التَّعْلِيلِ قَوْلُ الصَّبِّ: أَيُّ
والدعاء:

يَا رَاكِبَ الْوَجْنَاءِ، بَلَغْتَ الْمُنَى، عُجْ بِالْحَمَى إِنْ جُزْتَ بِالْجُرْعَاءِ

* * *

يَا رَاكِبَ الْوَجْنَاءِ، وُقِيتَ الرَّدَى إِنْ جُبْتَ حَزْنًا أَوْ طُوِيتَ بِطَاحَا

* * *

أَقْصِرْ، عَدِمْتُكَ، وَاطْرَحْ مِنْ أَثْنَتُ أَحْشَاءَهُ النَّجْلُ الْعُيُونُ جِرَاحَا

* * *

يَا عَاذِلَ الْمُشْتَاكِ جَهْلًا بِالَّذِي يُلْقَى مَلِيًّا، لَا بَلَغْتَ نَجَاحَا

* * *

سَفِيًّا لَأَيَّامٍ مَضَتْ مَعَ جِيرَةٍ كَانَتْ لِيَالِينَا بِهِمْ أَفْرَاحَا

* * *

يَا رَعَى اللَّهِ يَوْمَنَا بِالْمَصَلَى حَيْثُ نَدْعَى إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ

...

وَسَقَى جَمْعَنَا بِجَمْعِ مِلْثَا وَلَيْلَاتِ الْخَيْفِ صَوْبُ عَهَادِ

* * *

وَهَلْ رَضَعْتَ مِنْ ثَدْيِي زَمْزَمَ رَضْعَةً؟ فَلَا حُرْمَتَ يَوْمًا عَلَيْهَا الْمَرَضُ

* * *

رَعَى اللَّهُ مَعْنَى لَمْ أَزَلْ فِي رُبُوعِهِ مُعْنَى، وَقُلْ إِنْ شِئْتَ: يَا نَاعِمَ الْبَالِ

* * *

خَفَّفِي الْوُطْءَ، فَنِي الْخَيْفَ، سَلِّمْ — عَلَى غَيْرِ فُؤَادٍ لَمْ تَطِيْ

...

يَا سَقَى اللَّهِ عَقِيْقًا بِاللَّوَى وَرَعَى ثَمَ فَرِيْقًا مِنْ لُؤْيٍ

وصيغۃ التعجب:

مَا أَعْجَبَ الْأَيَّامَ تُوجِبُ لِلْفَتَى مِنْحًا، وَتَمْنَحُهُ بِسَلْبِ عَطَاءٍ

* * *

تَبَارَكَ اللَّهُ! مَا أَحْلَى شَمَائِلَهُ فَكَمْ أَمَاتَتْ وَأُحْيَتْ فِيهِ مِنْ مُهْجٍ

* * *

مَا أَمَرَ الْفِرَاقَ يَا جِرَّةَ الْحَىِّ وَأَحْلَى التَّلَاقَ بَعْدَ انْفِرَادٍ

* * *

يَا مَا أُمْلِحَهُ رَشًا فِيهِ حَلَا تَبْدِيلُهُ حَالِي الْحَلِيَّ بَذَاذَا

* * *

أَحِبُّ بِأَسْمَرَ صِينٍ فِيهِ بِأَبْيَضٍ أَجْفَانُهُ مِنِّي مَكَانَ سِرَائِرِي

* * *

يَا مَا أُمْلِحَ كُلُّ مَا يُرْضَى بِهِ وَرُضَائِهِ يَا مَا أَحْيَلَهُ بِنِي

* * *

وَيَا مَا أَلَذَّ الذَّلَّ فِي عَزِّ وَصْلِكُمْ وَإِنْ عَزَّ مَا أَحْلَى تَقَطُّعَ أَوْصَالِي

وكثرة القسم، وبخاصة بالشعائر المقدسة والحياة والعمر:

وَحَيَاتُكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، وَهِيَ لِي قَسَمٌ، لَقَدْ كَلَفْتُ بِكُمْ أَحْشَائِي
حُبِّيَكُمْ فِي النَّاسِ أَضْحَى مَذْهَبِي وَهَوَاكُمُ دِينِي وَعَقْدُ وَلَايِي

* * *

وَتَاللَّهِ لَمْ أَخْتَرْ مَذْمَةً غَدَرِهَا وَفَاءً، وَإِنْ فَاءَتْ إِلَى خَيْرِ ذِمَّتِي

* * *

قَسَمًا بِمَكَّةَ وَالْمَقَامِ وَمَنْ أَتَى الْـ سَبِيْتَ الْحَرَامِ مُلَبِّيًا سَيَّاحَا
مَا رَنَحْتُ رِيحَ الصَّبَا شَيْخَ الرَّبِّي إِلَّا وَأَهْدَتْ مِنْكُمْ أَرْوَاحَا

* * *

عَمْرُكَ اللَّهُ إِنْ مَرَرْتَ بِوَادِي يَنْبُعِ فَالْدُهَيْنَا فَبَدْرِ فَعَادِي

...

وَبَلَغْتَ الْخِيَامَ فَأَبْلَغَ سَلَامِي عَنْ حِفَاطِ غُرَيْبِ ذَاكَ التَّنَادِي

* * *

قَسَمًا بِالْحَطِيمِ وَالرُّكْنِ وَالْأُسْـ تَارِ وَالْمَرْوَيْنِ مَسْعَى الْعِبَادِ
وَضَلَالِ الْجَنَابِ وَالْحَجَرِ وَالْمِيـ زَابِ وَالْمُسْتَجَابِ لِلْقَصَادِ
مَا شَمَمْتُ الْبَشَامَ إِلَّا وَأَهْدَى لِفَوَادِي تَحِيَّةٍ مِنْ سُعَادِ

* * *

قَسَمًا بَمَنْ فِيهِ أَرَى تَعْذِيبَهُ عَذْبًا وَفِي اسْتِذْلَالِهِ اسْتِذْذَاذَا

ما استَحَسَّنْتُ عيني سواه، وإن سبى لَكُنْ سِوَايَ وَلَمْ أَكُنْ مَلَاذًا

* * *

وحياتِكُمْ وحياتِكُمْ قَسَمًا، وفي عُمْرِي بغير حياتِكُمْ لم أَخْلَفْ
لو أَنَّ رُوحِي في يَدَيَّ وَوَهَبْتُهَا لِمُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ لم أَنْصَفْ

* * *

عَمْرُكَ اللهُ إِن مَرَرْتَ بِوَادِي يَنْبُعُ فَالِدُهُيْنَا فَبَدْرٍ فَعَادِي

* * *

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمْ، فَأَخْفَانِي أَسَى حَتَّى، لَعَمْرِي، كَدْتُ عَنِّي أَخْتَفِي

* * *

لَعَمْرِي هُمُ الْعُشَّاقُ عِنْدِي حَقِيقَةٌ عَلَى الْجَدِّ، وَالْبَاقُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْهَزْلِ

* * *

وَحَيَاةَ أَشْوَاقِي إِلَيْكَ وَتُرْبَةَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ
مَا اسْتَحَسَّنْتُ عيني سِوَاكَ وَلَا صَبَوْتُ إِلَى خَلِيلِ

والاستفهام بـ"هل":

يَا هَلْ لِمَاضِي عَيْشِنَا مِنْ عَوْدَةٍ يَوْمًا وَأَسْمَحُ بَعْدَهُ بَبَقَائِي؟

* * *

فَاللَّوْمُ لَوْمْ، وَلَمْ يُمَدَّحْ بِهِ أَحَدٌ وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبًّا بِالْغَرَامِ هُجِّي؟
والاقتباس من القرآن:

كَأَنَّ الْكَرَامَ الْكَاتِبِينَ تَنَزَّلُوا عَلَى قَلْبِهِ وَحَيًّا بَمَا فِي صَحِيفَتِي

* * *

فَلَا تُنْكِرُوا إِنْ مَسَّنِي ضَرْبٌ بَيْنَكُمْ عَلَيَّ سُؤَالِي كَشَفَ ذَاكَ وَرَحْمَتِي

...

أَيَا كَعْبَةَ الْحُسْنِ الَّتِي لِحِمَالِهَا قُلُوبُ أُولِي الْأَلْبَابِ لَبَّتْ وَحَجَّتْ

* * *

فَلِلْعَيْنِ وَالْأَحْشَاءِ أَوَّلَ "هَلْ أَتَى" تَلَا عَائِدِي الْأَسَى وَثَلَاثَ "تَبَّتْ"

* * *

وَفِي الْمَهْدِ حِزْبِي "الْأَنْبِيَاءُ" وَفِي عَنَا صَرِي "لَوْحِي الْحَفُوظُ" وَ"الْفَتْحُ" سَوْرَتِي
وَيُمْكِنُ رَدُّ اهْتِمَامِ ابْنِ الْفَارُضِ بِالْحُسْنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ حَسْبَمَا تَوْضَحُ
الشُّوَاهِدُ الْآتِيَّةُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَسْلُوبُ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ، عَصْرُ الْقَاضِي
الْفَاضِلِ وَالْعِمَادِ الْأَصْبَهَانِيِّ وَابْنِ النَّبِيهِ وَالْبَهَاءِ زَهِيرِ وَابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ، إِذْ كَانَ
هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءُ يَجْبُونَ الصَّنَاعَةَ الْبَدِيعِيَّةَ حَبًّا شَدِيدًا (انظر د. محمد عبد
المنعم خفاجي/ الأدب في التراث الصوفي / ٢١٧).

وإلى جانب ما مر من سمات شعرية في شعر ابن الفارض لا بد أن

نذكر التصغير:

كَتَبَ الصَّدِيقُ قُبَيْلَ نَضْحِكَ مُغْرَمًا أَرَأَيْتَ صَبًّا يَأْلَفُ النَّصَّاحَا؟

...

وَأَهْيَلُهُ أَرْبِي، وَظِلُّ نَخِيلِهِ طَرَبِي، وَرُمْلَةٌ وَادِيَّتِهِ مَرَّاحَا

عَمْرُكَ اللَّهُ إِنْ مَرَرْتَ بِوَادِي يَنْبُعُ فَالْدُهَيْنَا فَبَذَرِ فِغَادِي

...

وَقَطَعْتَ الْحَرَارَ عَمْدًا لَخِيْمَا تَقْدِيدِ مَوَاطِنِ الْأَمْجَادِ
وَتَدَانَيْتَ مَنْ خُلِيصٍ فَعُسْفَا نَ فَمَرَّ الظُّهْرَانِ مَلَقَى الْبَوَادِي

...

وَبَلَغْتَ الْخِيَامَ فَأَبْلَغَ سَلَامِي عَنْ حِفَاطِ غُرَيْبٍ ذَاكَ النَّادِي

...

فِي قَرْيَ مَصْرَ جِسْمُهُ، وَالْأَصِيْحَا بُ شَامًا، وَالْقَلْبُ فِي أَجِيَادِ
إِنْ تُعَدُّ وَقْفَةً فَوُتِقَ الصُّحَيْرَا تَ رَوَاحًا سَعَدْتُ بَعْدَ بَعَادِي

...

وَقَبَابُ الرِّكَابِ بَيْنَ الْعُلَمِيَّيْنِ مِنْ سِرَاعًا لِلْمَازَمِينِ غَوَادِي
وَسَقَى جَمْعَنَا بِجَمْعٍ مُلْثَا وَلِيْلَاتِ الْخَيْفِ صَوْبُ عِهَادِ

...

يَا أَهْلَ الْحِجَازِ، إِنْ حَكَمَ الدَّهْرُ رُبَّ بَيْنٍ قَضَاءَ حَتَمٍ إِرَادِي

...

قَدْ سَكَنْتُمْ مِنَ الْفُؤَادِ سُودَا هُ، وَمَنْ مُقَلَّتِي سَوَاءَ السَّوَادِ

* * *

يَا مَا أُمِلَّحُهُ رَشًا فِيهِ حَالَا تَبْدِيلُهُ حَالِي الْحَلِي بِذَاذَا

* * *

عَوِذْتُ حُبِّي بِرَبِّ الطُّورِ مِنْ آفَةٍ مَا يَجْرِي مِنَ الْمَقْدُورِ

* * *

خَيْرُ الْأَصْحَابِ الَّذِي هُوَ أَمْرِي بِالْغِيِّ فِيهِ وَعَنْ رِشَادِي زَاجِرِي

* * *

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سُلِّمَى مُقِيمَةٌ بِوَادِي الْحِمَى حَيْثُ الْمَتِّمُ وَالْعُ

...

وَهَلْ أَرَدَنْ مَاءَ الْعُذْبِ وَحَاجِرِ جَهَارًا، وَسِرُّ اللَّيْلِ بِالصَّبْحِ شَانِعُ؟
وَهَلْ بَرَّبِي نَجْدٍ فَتَوْضَحَ مَسْنَدُ أَهْيَلِ التَّقَا عَمَّا حَوَتْهُ الْأَضَالِعُ؟

...

وَهَلْ ظَلِيَّاتُ الرِّقْمَتَيْنِ يُعِيدُنَا أَقْمَنَ بِهَا أَمْ دُونَ ذَلِكَ مَانِعُ؟

...

وَهَلْ أَمْ بَيْتَ اللَّهِ يَا أُمَّ مَالِكِ عُرْبٌ لَّهُمْ عِنْدِي جَمِيعًا صَنَائِعُ؟

...

لَعَلَّ أَصْحَابِي بِمَكَّةٍ يُبْرِدُوا بِذِكْرِ سُلِّمَى مَا تُجَنِّ الْأَضَالِعُ
وَعَلَّ اللَّيْلَاتِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّمَتْ تَعُودُ لَنَا يَوْمًا فَيُظْفَرُ طَامِعُ

* * *

وَبَذَاتِ الشَّيْحِ عَنِّي إِنْ مَرَرُ تَ بَحِيٍّ مِنْ عُرْبِ الْجَزْعِ حَيٍّ

...
نَشَرَ الكَاشِحُ مَا كَانَ لَهُ طَاوِي الكَشْحِ قُبِيلَ النَّائِي طَيِّ

...
يَا أَهْيَلِ الْوُدِّ أَنِّي تُنْكِرُوا نِي كَهْلًا بَعْدَ عَرَفَانِي قَتِي؟
وَهَوَى الْغَادَةِ عَمْرِي عَادَةً يَجْلِبُ الشَّيْبَ إِلَى الشَّابِّ الْأَحْيِ

...
هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَسَدًا صَادَهُ لَحْظُ مَهَاةٍ أَوْ ظُبِّي؟

...
وَضَعَ الْأَسِي بَصْدْرِي كَهْفُهُ قَالَ: مَا لِي حِيلَةٌ فِي ذَا الْهُوِيِّ

...
سَقَمِي مِنْ سُقَمِ أَجْفَانِكُمْ وَبِمَعْسُولِ النَّيَا لِي دُؤْيُ

...
وَلَمَّا يَعْذِلْ عَنْ لِمَاءِ طَوْ عَ هَوَى فِي الْعَذَلِ أَعْصَى مِنْ عُصِيٍّ
لَوْمُهُ صَبًّا لَدَى الْحَجَرِ صَبًّا بِكُمْ دَلَّ عَلَى حَجَرِ صَبِيٍّ

...
رَوَّحَ الْقَلْبَ بِذِكْرِ الْمُتَحَنَّى وَأَعِدَّهُ عِنْدَ سَمْعِي يَا أَخِي

...
لَمَنِّي عِنْدِي الْمُنَى بُلَّغْتُهَا وَأَهْيَلُوهُ، وَإِنْ ضَنُّوا بَنِيٍّ

...

آهَ وَاشْؤُقِي لِضَاحِي وَجْهِهَا وَظَمَا قَلْبِي لَذِيكَ اللَّمِّيْ

...

وَأَرَى مِنْ رِيحِهِ الرِّاحَ انْتَشَتْ وَلَهُ مِنْ وَلَهٍ يُعْنُو الأَرِيْ
ذو الفقارِ اللَّحْظُ مِنْهَا أَبَدًا وَالْحَشَا مِنِّْي عَمُرُو وَحِيِيْ

...

إِنْ تَنْتَ فَقَضِيْبٌ فِي نَقَا مُثْمَرٌ بَدْرٌ دُجَى فَرَعَ ظُمِيْ

...

وَأَبَى يَتْلُو إِلَّا يَوْسُفًا حُسْنُهَا كَالذِّكْرِ يُتْلَى عَنْ أَبِيْ
خَرَّتِ الأَقْمَارُ طَوْعًا يَقْظَةً إِنْ تَرَاءَتْ لَا كَرُؤْيَا فِي كُرِيْ

...

لَمْ تَكْذُ أَمَّنَّا تَكْذُ مِنْ حُكْمَ لَا تَقْصُصِ الرُّؤْيَا عَلَيْهِمْ يَا بَنِيْ

...

كُحِلَتْ عَيْنِي عَمَّى إِنْ غَيْرَهَا نَظَرْتُهْ إِيَّاهِ عَنِّي ذَا الرُّشْيِ

ومن المعروف أن من أسباب التصغير الرغبة في الاستملاح والتدليل.
ولعل شاعرنا قد بدأ أولاً بتصغير اسم الحبيب ثم عمم هذا الأسلوب فجعله
يشمل كل ما له علاقة بالحبيب حتى لو لم تكن علاقة مباشرة. ويرى د.
زكى مبارك أن ابن الفارض قد يكون أكثر شعراء العربية استعمالاً لصيغة
التصغير وأن هذا المذهب قد اضطره إلى التكلف في التقفية (انظر كتابه:

"التصوف فى الأدب والأخلاق" / ١ / ٢٩٦ - ٢٩٧). وأتصور أنه تفوق فى هذه الخصيصة على المتنبي نفسه، الذى سجل نقاده هذه السمة فى شعره وقام بشأن تفسيرها فى شعره خلاف بين العقاد ومحمد مندور يوما . وقد تناول العقاد هذه السمة لدى المتنبي فى مقال نشره بجريدة "البلاغ" بتاريخ العاشر من ديسمبر ١٩٢٣م، وأعاد نشره لاحقا فى كتابه: "مطالعات فى الكتب والحياة"، ثم تناولها مندور فى "النقد المنهجى عند العرب" مناقشا رأى العقاد ومخالفا له، وهو ما عرضت له فى كتابي: "مناهج النقد العربى الحديث" محاولا أن أكون حكما بين الخصمين، وانتهيت إلى أن رأى العقاد أصح مما قاله مندور .

ومن تلك السمات فى شعر ابن الفارض أيضا الإكثار من أسماء
المواضع من بلاد العرب . وسوف أجتزئ بالمثالين التاليين، ففيهما الكفاية:

أَمِيسُ بَرْقٍ بِالْأَبْرِقِ لَاحَا	أَمِ فِي رُبَى نَجْدٍ أَرَى مِصْبَاحَا
أَم تِلْكَ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَسْفَرَتْ	لَيْلًا فَصَيَّرَتِ الْمَسَاءَ صَبَاحَا ؟
يَا رَاكِبَ الْوَجْنَاءِ، وَقَيْتَ الرَّدَى	إِنْ جُبْتُ حَزْنًا أَوْ طَوَيْتَ بَطَاحَا
وَسَلَكْتَ نَعْمَانَ الْأَرَاكِ فَعُجْ إِلَى	وَادِ هُنَاكَ عَهْدَتُهُ فَيَا حَا
فَبَأَيْمَنِ الْعَلَمَيْنِ مِنْ شَرْقِيَّهِ	عَرَجَ وَأَمَّ أَرَيْنَهُ الْفَوَاحَا
وَإِذَا وَصَلْتَ إِلَى ثَنِيَّاتِ اللَّوَى	فَانْشُدْ فَوَادًا بِالْأَبْطَاحَا
وَأَقْرِ السَّلَامَ أَهْيَلُهُ عَنِّي، وَقُلْ:	غَادَرْتُهُ لِحَنَابِكُمْ مُلْتَاحَا

يا ساكني نجد، أما من رحمة لأسير ألف لا يريد سراحا؟

* * *

عَمُرْكَ اللَّهُ إِنْ مَرَرْتَ بِوَادِي
وَسَلَكْتَ النَّقَا فَأُودَانَ وَدَا
وَقَطَعْتَ الْحَرَارَ عَمْدًا لَحِيمًا
وَتَدَانَيْتَ مِنْ خُلَيْصٍ فَعُسُفَا
وَوَرَدْتَ الْجُمُومَ فَالْقَصْرَ فَالدُّكُ
وَأَثَيْتَ التَّنْعِيمَ فَالزَّاهِرَ الزَّا
وَعَبَّرْتَ الْحُجُونَ وَاجْتَرَّتْ فَاخْتَرُ
وَبَلَغْتَ الْخِيَامَ فَابْلَغْ سَلَامِي

...

يا أَخِلَّيَّ، هَلْ يَعُودُ التَّدَانِي
مِنْكُمْ بِالْحَمَى بَعُودَ رِفَادِي؟

...

كَيْفَ يَلْتَذُّ بِالْحَيَاةِ مُعْنًى
بَيْنَ أَحْشَائِهِ كَوْرِي الزَّنَادِ؟

...

فِي قَرْيَ مَصْرَ جِسْمُهُ، وَالْأُصْحَا
إِنْ تُعَدُّ وَقْفَةً فَوَيْقَ الصُّحَيْرَا
يَا رَعَى اللَّهَ يَوْمَنَا بِالْمَصَلَى
بُ شَامًا، وَالْقَلْبُ فِي أَجْيَادِ
تَ رَوَاحًا سَعَدْتُ بَعْدَ بَعَادِي
حَيْثُ نَدْعَى إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ

وقبابُ الركبِ بينَ العُلَيمِ — من سراعًا للمأزَمينِ غواذي
وسقى جَمْعنا بِجَمْعِ مُلثا — وليئلاتِ الخيفِ صوبُ عهادِ

...

يا أهيلَ الحجازِ، إنَّ حَكَمَ الدَّهْ — رُبَّ بَيْنِ قضاءِ حَتَمٍ إرادي
فغرامِي القديمُ فيكمُ غرامي — وودادي كما عهدتُم ودادي

...

يا سميري، رَوْحَ بِمَكَّةَ رُوحِي — شاديا إنَّ رَغَبَتَ في إسعادي
فذرَّاهَا سِرْبِي، وطِيبِي ثَرَاهَا — وسبيلَ المسيلِ وردي وزادي

* * *

وهناك أيضا تسهيل الهمزة أو زيادتها . وهي سمة لاحظتها في شعر
الحلاج من قبل على ما مر بيانه:

واقرِ السَّلامَ عُرَيْبَ ذِيكَ اللَّوَى — من مُغَرِّمِ دَفِّ كَيْبِ نائي

* * *

فَهُمُ هُمُ صَدُّوا دَنُوا وَصَلُّوا جَفُّوا — غَدَرُوا وَفَوَّا هَجَرُوا رَثُوا لَضَنائي

* * *

وَهُمُ بَقَلْبِي إِنْ تَنَاءَتْ دَارُهُمْ — عَنِّي وَسُخْطِي فِي الْهَوَى وَرِضَائِي
وَعَلَى مَحَلِّي بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ — بِالْأَخْشَبَيْنِ أَطُوفُ حَوْلَ حِمَائِي

* * *

وَأَقْرِ السَّلَامَ أَهْلَهُ عَنِّي، وَقُلْ: غَادِرُهُ لَجَنَابِكُمْ مُلْتَاحَا
مَنْ تَمَنَّى مَالًا وَحُسْنَ مَالٍ فَمُنَائِي مِنْي وَأَقْصَى مُرَادِي

...

قَدْ سَكَنْتُمْ مِنَ الْفُؤَادِ سُودًا هُ وَمَنْ مُقَلَّتِي سِوَاءَ السَّوَادِ

* * *

فَالْمَطْلُ مِنْكَ لَدَيَّ إِنْ عَزَّ الْوَفَا يَحْلُو كَوْضُلٍ مِنْ حَبِيبٍ مُسْعَفٍ

...

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ تَحَرَّشَ بِالْهَوَى: عَرَضَتْ نَفْسَكَ لِلْبَلَا فَاسْتَهْدَفِ

...

فَلَعَلَّ نَارَ جِوَانِحِي بِهُبُوبِهَا أَنْ تَنْطَفِئَ، وَأَوْدَّ أَنْ لَا تَنْطَفِئَ

...

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ، وَلُطْفٌ وَلَا هَوَاٌ وَنُورٌ وَلَا نَارٌ، وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ

...

عُودُوا لِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَا كَرَمًا، فَإِنِّي ذَلِكَ الْخَلَّ الْوَفِي

* * *

وَفَوْقَ لَوَاءِ الْجَيْشِ لَوْ رُقِمَ اسْمُهَا لِأَسْكَرَ مَنْ تَحْتَ الْوَلَا ذَلِكَ الرَّقْمُ

* * *

قُلْ: تَرَكْتُ الصَّبَّ فِيكُمْ شَبَحًا مَا لَهُ مِمَّا بَرَاهُ الشَّقُّ فِي

...
أَيُّ شَيْءٍ مُبْرَدٌ حَرًّا شَوَى لِلشَّوَى حَشْوُ حَشَائِي؟ أَيُّ شَيْءٍ؟

...
رَجَعَ اللَّاحِي عَلَيْكُمْ آسًا مِنْ رَشَادِي، وَكَذَاكَ الْعِشْقُ غِيًّا

...
فَهَبُوا عَيْنِي مَا أَجْدَى الْبُكَاءِ عَيْنَ مَاءٍ، فَهِيَ إِحْدَى مُنَيَّيِّ

...
فَالْقَضَا مَا بَيْنَ سُخْطِي وَالرَّضَى مَنْ لَهُ أَقْصَى قَضَى أَوْ أَدْنَى حَيٍّ

* * *

فَإِنْ اسْتَغْنَيْتَ عَنْ عَزِّ الْبَقَا فَأَلِي وَصْلِي بِذَلِ النَّفْسِ حَيٍّ

...
إِنْ تَشَى رَاضِيَةً قَتْلِي جَوَى فِي الْهَوَى حَسْبِي افْتِخَارًا أَنْ تَشَى

...
خَفَفَنِي الْوَطْءُ، فَفِي الْخَيْفِ، سَلَمٌ —ت، عَلَى غَيْرِ فُؤَادٍ لَمْ تَطْلِي
كَذَلِكَ نَجْدُ ابْنَ الْفَارِضِ يَكْرُرُ أَنَّهُ يَرَى بِسَمْعِهِ:

يَرَاهَا عَلَى بُعْدٍ عَنِ الْعَيْنِ مَسْمَعِي بِطَيْفِ مَلَامٍ زَائِرٍ حِينَ يَقْظَتِي

* * *

رَأَى رَجَبًا سَمْعِي الْأَبْيَّ وَلَوْ مَيَّالًا مُحَرَّمٌ عَنْ لُؤْمٍ وَغِشٍّ النَّصِيحَةِ

* * *

يُدْنِي الحَبِيبَ، وَإِنْ تَنَاءَتْ دَارُهُ، طَيْفُ الْمَلَامِ لَطَرْفِ سَمْعِي السَّاهِرِ
فَكَأَنَّ عَذْلَكَ عَيْسُ مَنْ أَحْبَبْتُهُ قَدَمْتُ عَلَيَّ، وَكَانَ سَمْعِي نَاطِرِي

* * *

بَعْضِي يَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِي وَيَحْـ
وَيُودَّ طَرْفِي إِنْ ذَكَرْتَ بِمَجْلِسِ سُدُّ بَاطِنِي، إِذَا أَنْتَ فِيهِ، ظَاهِرِي
لَوْ عَادَ سَمْعًا مُصَغِّيًا لِمُسَامِرِي

* * *

لَأَرَى بَعِينَ السَّمْعِ شَاهِدَ حُسْنِهِ مَعْنَى، فَاتَّحَفَنِي بِذَاكَ وَشَرَّفِ
وَتَمَّ سَمَةٌ أُخْرَى فِي شَعْرِ ابْنِ الْفَارِضِ أَشَارَ إِلَيْهَا د. زَكِي مَبَارَكٌ هِيَ
تَكَرَّرَ إِشَارَتُهُ، ككَثِيرٍ مِنَ الشَّعْرَاءِ الْقَدَمَاءِ، إِلَى ضَنْى جِسْمِهِ مِنْ فَرْطِ

الصَّبَابَةِ:

خَفَيْتُ ضَنْىَ حَتَّى لَقَدْ ضَلَّ عَائِدِي وَكَيْفَ تَرَى الْعَوَادُ مِنْ لَا لَهُ ظِلُّ؟
وَمَا عَثَرْتُ عَيْنٌ عَلَى أَثَرِي، وَلَمْ تَدْعُ لِي رَسْمًا فِي الْهَوَى الْأَعْيُنُ النَّجْلُ

* * *

وَقَدْ بَرَّحَ التَّبْرِيحُ بِي وَأَبَادَنِي وَأَبْدَى الضَّنَى مِنِّي خَفِي حَقِيقَتِي
فَنَادَمْتُ فِي سُكْرِي النُّحُولَ مُرَاقِبِي بِجُمْلَةٍ أَسْرَارِي وَتَفْصِيلِ سِيرَتِي
ظَهَرْتُ لَهُ وَصَفًا وَذَاتِي بِحَيْثُ لَا يَرَاهَا لِبَلَوِي مِنْ جَوَى الْحُبِّ أَبْلَتْ
فَأَبَدْتُ وَلَمْ يَنْطِقْ لِسَانِي لِسَمْعِهِ هَوَاجِسُ نَفْسِي سَرَّ مَا عَنْهُ أَخْفَتْ
وَضَلَّتْ لِفَكْرِي أذْنُهُ خَلَدًا بِهَا يَدُورُ بِهِ عَنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ أَغْنَتْ

...

فَاطْهَرْنِي سَقَمَ بِهِ كُتُّ خَافِيًا لَهُ وَالْهَوَى يَأْتِي بِكُلِّ غَرِيبَةٍ

* * *

ويا جَسَدِي الْمُضْنَى، تَسَلَّ عَنِ الشَّفَا ويا كَبِدِي، مَنْ لِي بِأَنْ تَقْتَتِي؟
ويا سَقَمِي، لَا تَبْقِ لِي رَمَقًا، فَقَدْ أُبَيْتُ لُبَقِيَا الْعَزْ ذُلَّ الْبَقِيَّةِ
ويا صَحَّتِي، مَا كَانَ مِنْ صَحْبَتِي انْقَضَى وَوَصْلُكَ فِي الْأَحْشَاءِ مَيِّتًا كَهَجْرَةٍ
ويا كُلِّ مَا أَبْقَى الضَّنَى مِنِّي، ارْتَحِلْ فَمَا لَكَ مَأْوَى فِي عِظَامِ رَمِيمَةٍ

* * *

يَشْفَ عَنْ الْأَسْرَارِ جِسْمِي مِنَ الضَّنَى فَيَعْدُو بِهَا مَعْنَى نُحُولٍ عِظَامِي

...

صَحِيحٌ عَلِيلٌ فَاطْلُبُونِي مِنَ الصَّبَا ففِيهَا كَمَا شَاءَ النَّحُولُ مُقَامِي
خَفَيْتُ ضَنْىً حَتَّى خَفَيْتُ عَنِ الضَّنَى وَعَنْ بُرْءِ أَسْقَامِي وَبُرْدِ أَوَامِي
وَلَمْ أَدْرِ مَنْ يَدْرِي مَكَانِي سِوَى الْهَوَى وَكَيْفَ أَسْرَارِي وَرَغْبِي ذِمَامِي

* * *

مَا ثَنَانِي عَنْكَ الضَّنَى فَبِمَاذَا، يَا مَلِيحُ، الدَّلَالُ عَنِّي ثَنَاكَ؟

ويعانى شعر ابن الفارض فى قليل من قصائده من قلق القافية. وهذا راجع إلى أنه قد يلجأ إلى التقفية بحروف صعبة كالذال مثلاً فلا يجد من الألفاظ التى تصلح قوافى إلا القليل، فيضطر إلى استعمال الحُوشَى من الكلمات. كما أنه يطيل شعره دون داع قوى، وهذا يسد عليه أبواب القوافى فيضطر أيضاً إلى التقفية بالحُوشَى من الكلمات. كذلك فالموضوع الذى ينظم

فيه محدود، وهو ذلك اللون من النسيب، الذى يقول مشايعوه إنه فى الحب الإلهى، فضلا عن شطحاته المفزعة التى سقنا بعض الشواهد عليها آنفا . ومن قوافيه الصعبة التى لا تسوغ فى الحلق ولا فى الأذن ولا فى الذهن: "الشماد، ملاذا، بذاذا، وقاذا، بنى يزداذا، بغداذا، ألواذا، بباذا، مشتاذا، وجاذا، لم يتأى، زى، أشى، لم تبى، ذى، خبى". كما أن بعض قوافيه فاترة نثرية للأسباب السابق ذكرها، مثل: "أفعالك الأثرية، بسرعة، فى مُدة مستطيلة، فى جموع كثيرة، على كل هيئة، فى وَسْطِ لُجَّةٍ، تحت ذل الهزيمة، بقفرة، بحال فصيحة، غير ضعيفة، أداء فريضة، بالعصبية، بالأشعة... إلخ". ويعزو زكى مبارك لجوء ابن الفارض لمثل تلك القوافى الصعبة إلى حبه للإغراب ورغبته فى الإدلال على معاصريه بأنه يمتلك ناصية القوافى الشموس (انظر د. زكى مبارك/ التصوف فى الأدب والأخلاق / ١ / ٢٩٥ - ٢٩٦).

وهناك أشعار لابن الفارض تخلو من نفحة الشاعرية، وتكثر هذه النماذج فى المقطوعات القصيرة والنتف، وبخاصة تلك التى حوّلها إلى الغاز. ولا أدري كيف رضى أن ينزل بفنه الشعرى إلى هذا الدرك المتهافت. كذلك يكثر فى التائية الكبرى الجفاف لأنها تتناول موضوعا صوفيا تناولا عقليا يخلو من الحرارة التى نجدها فى بعض أشعاره الأخرى. أما تألقه فيتجلى فى أشعاره التى يعبر فيها عن حبه، ولكن بشرط أن تتجاهل أنها فى الحب

الإلهى، أو على الأقل: ألا نركز على هذا المعنى، وإلا رأيناها مسيئة. ولا أقول أكثر من ذلك، فقد بينت وجهة نظرى فى الأمر كله آنفاً .

وهو فى هذه القصائد عادة ما يتحدث عن أهل الحجاز ذاكراً مواضع فى بلاد العرب يسكنها أحبته أو يمر بها الرسول الذى حملته رسائل الشوق الملهبة إلى هؤلاء الأحبة. وفى هذه الأشعار نجده، ككل أشعاره، يتلاعب بمحسنات البديع تلاعباً حسناً فى كثير من الأحيان فتزيد الشعر جمالاً فوق جمال، وإن لم يمنع هذا من أن تجيء تلك المحسنات فى بعض الأحيان الأخرى متخسبةً تقتقر إلى الرئى والدفع والجمال، فنحس أن ابن الفارض حينئذ قد تحول إلى مدرّس يشرح مسألة عقلية. ومع هذا فإن التائية يظل لها شىء من الجاذبية، لكنها الجاذبية المرعبة، إذ نشعر وكأننا نأظمها أمسكاً بإرربة وراح ينهال بها على أم رأسنا بكلامه المتجاوز الذى يرى فيه نفسه وقد اتحد مع الذات الإلهية فأصبح هو هى، وأصبحت هى هو. إن هذا التجاوز هو الذى يشدنا غالباً فى القصيدة المذكورة، وهو الذى يجعل لها قيمة، وليس ما فيها من فن. وتعانى تلك القصيدة من بعض الغموض جراء العثكلة التى يضطرّ ابن الفارض إلى الوقوع فيها بسبب موضوعها العقلى المتجاوز الذى يقتحم فيه الشاعر منطقة ممنوعة. وللأسف هناك من يشرح تلك القصيدة شرحاً مقتعلاً يحاول به التغطية عما فيها من تجاوزات.

ويرى د. عمر فروخ أن "شعر ابن الفارض ينوء بضعف كثير من التكرار والغموض والتخلخل، ومن الإسراف في الصناعة المعنوية والصناعة اللفظية"، لكنه مع ذلك "شعر عذب أنيق في أكثر الأحيان، والرمز فيه غاية في البراعة وحسن الإشارة" كما يقول هو نفسه (د. عمر فروخ/ طه/ دار العلم للملايين/ تاريخ الأدب العربي/ بيروت/ ١٩٨٩م/ ٣/ ٥٢١)، وإن عاد في موضع آخر من الكتاب فقال عن التائية الكبرى لابن الفارض إن "المعاني الصوفية فيها عميقة معقدة، وقلما يفيد شرحها اللغوي والبياني توضيحاً لمداركها الصوفية"، بما يعنى أن الرمز، فيها على الأقل، ليس بالبراعة ولا حسن الإشارة التي أکدها من قبل. ويُعدّ ابن الفارض، في رأى كاتب مادة "الأدب العربي" بالنسخة الفرنسية من موسوعة إنكارتا (ط٢٠٠٩م)، أكبر شاعر صوفى " *considéré comme le plus grand poète soufi* ". وبالمثل تقرأ في مادة "ابن الفارض" في طبعة ٢٠١٠م من "الموسوعة البريطانية" أن ابن الفارض يعد أرقّ شاعر صوفى في الأدب العربي: " *Arab poet whose expression of Sufi mysticism is regarded as the finest in the Arabic language* "، وأنه رغم ما فى شعره من تصنع ومحسنات بدیعیة وصور تقليدية فإن فى قصائده مقاطع تتسم بجمال أخاذ وإحساس دينى عمیق: " *Although Ibn al-Fārid's poetry is mannered in style, with rhetorical embellishments and conventional imagery, his*

poems contain passages of striking beauty and
 "deep religious feeling".

ويطبع قصائد ابن الفارض وحدة الموضوع والغرض، فشعره كله تقريبا
 فى الغزل، وهو الغزل الإلهى حسبما يقول المعجبون بشعره، فلا تجد فى
 القصيدة كلاما عن أى موضوع آخر. وكثيرا ما يتحدث عن الرسول أو
 الحادى الذى يقود زمام القافلة ويوصيه أن يوصل سلامه إلى أحبته وأن يشرح
 لهم حاله فى الهوى وما يعاينه جرّاء هجرانهم له. وفى تلك الأثناء يذكر
 أسماء المواضع التى يتوقع أن يمر بها الحادى أو الرسول ويلتمس منه أن يفعل
 كذا أو كذا لدن مروره بهذا الموضع أو ذاك. وهو فى معظم شعره هذا
 حريص على إظهار تدهله فى هوى الحبيبة والتعبير عن رضاه بكل شىء يقع
 عليه منها وتذكيرها بلىالى الوصل القديمة التى انقضت وبدأت بانقضائها آلامه
 المبرحة. وكثيرا ما يعكف على مشاعره ورؤاه مفصّلا القول فيها، فضلا عن
 محاولته فى بعض القصائد إقناع القارئ بأنه لم يعد هو هو، فقد اتحد بالذات
 الإلهية وصار الاثنان شيئا واحدا كما مر بيانه. وهذا الاتحاد قد دانه عدد
 من علماء المسلمين مثل ابن تيمية وابن خلدون والذهبي والبلقيني وابن حجر
 العسقلاني وبرهان الدين البقاعي وصالح بن مهدى المقلبي وغيرهم، وإن كان
 هناك من دافع عن ابن الفارض وبرّاه من هذا وأثنى عليه كزكريا بن محمد
 الأنصارى وجلال الدين السيوطى وعبد الوهاب الشعرانى رغم أن التأويلات
 التى تأولوا بها أشعاره لتحسين سمعته لا تنفع أحدا (انظر، فى مناقشة هذه

القضية بشيء من التفصيل، الفصل الرابع من كتاب د. محمد مصطفى
حلمي: "ابن الفارض والحب الإلهي" / ط٢ / دار المعارف / ١٩٨٥م / ١١١ -
١٣٥، وعنوانه: "ابن الفارض بين خصومه وأنصاره".

الشعراني

هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المشهور بالشعراني، ويسميه الصوفية بـ"القطب الرباني" (٨٩٨هـ - ٩٧٣هـ). ولد في قلقشندة في مصر يوم ٢٧ رمضان سنة ٨٩٨هـ، ثم انتقل إلى ساقية أبي شعرة من قرى المنوفية، وإليها نسبته، فيقال: الشعراني، والشعراوي. نشأ يتيم الأبوين، وحفظ القرآن الكريم، كما يقول، وهو ابن ثماني سنين، وواظب على الصلوات الخمس في أوقاتها، ثم حفظ بعض متون العلم، كـ"أبي شجاع" في فقه الشافعية، و"الأجرومية" في النحو، ودرسهما على يد أخيه عبد القادر، الذي كفله بعد أبيه، ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٩١١هـ، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة، فأقام في جامع أبي العباس الغمري حيث لبث يُعَلِّم ويتعلم سبعة عشر عامًا، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند. وحُبِّب إليه علم الحديث فلزم الاشتغال به والأخذ عن أهله، وسلك طريق التصوف. وقد أفاض الشعراني في ذكر شيوخه في كتبه، وبين مدى إجلاله لهم خاصة في كتابه "الطبقات الكبرى". وعاش ٧٥ عامًا خلف فيها، حسبما يقول، ٣٠٠ كتاب في موضوعات شتى، وكلها مسجوعة العناوين على طريقة عصره، ومنها: "الفتح المبين في جملة من أسرار الدين"، و"الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، و"الطبقات الكبرى" المسماة بـ"لوائح الأنوار في طبقات الأخيار"، و"الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة"، وهو موسوعة في علوم القرآن، والفقه وأصوله، والدين، والنحو، والبلاغة، والتصوف، وكشف الغمة عن

جميع الأمة" في الفقه على المذاهب الأربعة"، و"لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق"، و"المقدمة النحوية في علم العربية"، و"اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر"، و"الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر" في الدفاع عن محيي الدين بن عربي، و"درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخواص". ولما توفي الشعراني دُفِنَ بجانب زاويته بين السوريين، وقام بأمرها بعده ولده الشيخ عبد الرحمن (انظر ترجمته بالنسخة العربية من موسوعة "الويكيبيديا").

ويزيدنا الشعراني تعريفًا بنفسه في كتاب "لطائف المنن والأخلاق" إذ يقول: "إني بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن محمد بن زوفا، ابن الشيخ موسى المكّي في بلاد البهنسا بـ"أبي العمران" جدي السادس، ابن السلطان أحمد ابن السلطان سعيد ابن السلطان فاشين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوفا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية ابن الإمام علي بن أبي طالب". وقد ذكر د. توفيق الطويل (في كتابه: "الشعراوى إمام التصوف فى عصره"/ دار إحياء الكتب العربية/ سلسلة "أعلام الإسلام"/ العدد ١٤/ أغسطس ١٩٤٥م/ ١٦) وعبد الحفيظ فرغلى على القرنى (في "عبد الوهاب الشعراني إمام القرن العاشر"/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/ سلسلة "أعلام العرب"/ العدد ١١٦/ ١٩٨٥م/ ٢٠-٢١) مثلاً أنه ينتمى إلى قبيلة بنى زغلة من

عرب المغرب وأنه يرجع بنسبه إلى على بن أبي طالب، وكان جده أبو عبد الله أحمد الزغلي سلطان تلمسان وما والاها، وتصوّف ابنه موسى أبو العمران وبَنَدَ نسبه وملكه وأتى إلى مصر... إلخ. وفى مادة " al-Sha'rani" بالطبعة الجديدة من "دائرة المعارف الإسلامية" (The Encyclopaedia of Islam) أن الجد الخامس للشعراني، طبقا لما قاله الشعراني نفسه، هو موسى بن عمران ابن سلطان تلمسان بالمغرب According to al-Sha'rani, his ancestor five "generations back was Musa Abu 'Imran, son of "the sultan of Tlemcen in North Africa

كذلك كتب حازم ناظم فاضل فى "موقع الأدباء والمترجمين العرب" مقالا عن الشعراني جاء فيه أن "الشعراني هو آخر نجم بزغ في الأفق الأعلى للتفكير الإسلامي والنهج الصوفي والتصوف. هو جماع المثاليات، وهو الذي يرسم الأفق الأعلى لمن يتسامى. وسبيل التصوف إلى ذلك الأفق هو الاستعداد الفطري الممثل في الحب الإلهي ثم الذكر الدائم والخلق الدائم والتطوع المتواصل لما فوق الفرائض والنوافل. ونهاية ذلك الأفق هي مرتبة العبودية الكاملة كما يقررها الأثر المشهور: "عبدى، أطعني تكن ربانيا تقول للشيء: 'كن'، فيكون". وهذا الأفق جبار المرتقى لا يذلل لكل طالب، فلا يطيقه ولا يصبر عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذي اجتباهم واصطفاهم وجعلهم أئمة وهداة وورثة لأنوار النبوة الحمدية: "وما يُلقاها إلا الذين صبروا،

وما يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم" . . . ومقياس عظمة كل عبقرية من العبقریات الدنیة هو استعدادها للترقي في المعارج العلویة وطاقتها على تحمل العبودیة الكاملة والحب الإلهی. والباب الموصل لتلك المعارج هو الاقتداء الكامل والاحتذاء الصادق الصارم بالمثل الأعلى للإنسان الكامل بالنبوة المحمدیة صلوات الله وسلامه على صاحبها. نعم لقد آمنوا أن محمداً رسول الله هو المفتاح الرباني للأبواب الإلهیة حیث تهطل الفيوضات والفتوحات. وتلك هی المدرسة المحمدیة مدرسة التفكير في آیات الله والتعبد المتواصل في محارب الحیاة، وكل ما فی الحیاة محارب ومساجد للمؤمنین الموقنین. مدرسة الحب الإلهی بما فیها من إشراق وإلهام وفيوضات هی التي أنجبت أبا الموهب عبد الوهاب الشعراني. والشعراني عجيبة من عجائب تلك المدرسة، وصنیعة من صنائع الإيمان، ولطیفة من لطائف التقوی، وقبس من أقباس النور".

ثم یمضی الكاتب مشیرا إلى ما یقوله "أحد العلماء المختصین فی دراسات التصوف الإسلامي" من أن "الشعراني كان من الناحیة العلمیة والنظریة صوفیا من الطراز الأول، وكان فی الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصیلاً فی میدان الفقه وأصوله، وكان مصلحاً یکاد الإسلام لا یعرف له نظیراً. وإن كتبه التي تجاوزت السبعین عدداً من بینها أربعة وعشرين (!) کتابا تعتبر ابتكاراً محضاً أصیلاً لم یسبق إلیه أبداً، ولم یعالج فكرتها أحد قبله. ولذلك فقد جاء الشعراني مكافحاً مصلحاً ومرشداً هادياً، فقد حرر التصوف من

الأساطير والبدع وجلاه محمدياً قرآنيًا، وحرّر الفقه من جموده وترّمته، فكان الأصوليّ الأملعي الذي مزج الفقه بجرارة الإيمان فأنقذه من الجفوة والجفاف وحبّبه إلى الناس يوم جعله لا مجرد أحكام شرعية فحسب بل حقائق روحية مشرقة، وحرّر علم الكلام (التوحيد) من نزوات المجسّدين وأهواء المجادلين، وأعادته إلى نوره ورويقه الإيمان الذي عرفه واهتدى به الصدر الأول والتابعون، وأنقذ الأمة الإسلامية من الجدل والحوار والجري وراء الأوهام والخيالات، وردها إلى النبع الصافي في العمل الخالص لوجه الله. ولم يُنسه جهادُه الديني زعامته الإصلاحية، فكان المصلح الاجتماعي المدافع عن الفقير والمسكين والضعيف. ولقد ظلّ الشعراني إلى آخر نفس له في الحياة مجاهدًا لا تلين له قناة، ولا تحفض له راية، ولا تنزل له أحداث، ولا ترهبه قوة. إنه مجاهد في سبيل الله فلا يخشى سواه. شعاره دائمًا كلمته الخالدة: لو انفضّ الناس جميعًا من حوليّ واهتزت شعرةٌ مني فقد كفرتُ بالله". ثم يضيف إلى ذلك بعضًا من أقوال الشعراني ذاته، وهى: "إن الطاعة إذا لم تكن خالصة فإنها تورث صاحبها الجفاء وقساوة القلب"، "لا يتجسس على العورات إلا فاسق، فإن القلب المطهر من السوء لا يظن في الناس إلا خيرًا"، "دوروا مع الشرع كيف كان"، "إياك يا أخي، إذا عرفت العلم، أن تتخذ سلاحًا تقاتل به كل من له عليك حق، فإن ذلك حق أُريد به باطل"، "اعلم يا أخي أن كل من حصل لك بواسطة مجالسته إثم فهو جليس سوء"، "اعلم يا أخي أنه كلما

كثير علم العبدِ كثر حسابه، وكذلك القول في المال والعمر، فيُسأل العالم عن كل مسألة تعلمها: هل عمل بها أم لا؟ وعن كل درهم اكتسبه: هل فتش عليه من حيث الحل أم لا؟".

ولا ريب في نقاسة الكلمات المنقولة هنا عن الشعراني، لكن هناك قضية أخرى يهمننا أن نعرض لها، وهي ما في كتب الشعراني، وبالذات كتاب "الطبقات الكبرى"، من أشياء عن بعض الصوفية لا يمكن أن يرضى عنها مسلم، فضلاً عن أن تكون علامة على أن صاحبها صوفي مقرب إلى الله ينبغي اتخاذها في نظر أهل الطريق مثلاً أعلى. وكان أحد المعلقين على المقال السابق قد كتب أن بعض الباحثين في التصوف عاب على الشعراني كثيراً ترجمته في "الطبقات" لبعض الجانين والمهلوسين واللصوص والخليعي العذار، اذ يقول مثلاً إن منهم من كان يجر المركب بخصيته، ومن يخطب الجمعة عارياً... إلخ، فرد الكاتب ناقلاً النص التالي عن الشيخ عبد القادر عيسى صاحب كتاب "حقائق عن التصوف": "ومن دُسَّ عليهم الإمام الشعراني رحمه الله تعالى، وأكثر ما دُسَّ عليه في "الطبقات الكبرى". ولقد أوضح ذلك في كتابه: "لطائف المنن والأخلاق" فقال: 'وما منَّ الله تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتي كلاً ما يخالف ظاهر الشريعة، وصاروا يستقنون عليّ زوراً وبهتاناً، ومكاتبهم في لباب السلطان، ونحو ذلك. اعلم يا أخي أن أول ابتلاء وقع لي في مصر من نحو هذا النوع أنني لما

حَجَبْتُ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَتِسْعَمِائَةَ زَوْرَ عَلَيَّ جَمَاعَةٌ مَسْأَلَةٌ فِيهَا خَرَقُ
لِإِجْمَاعِ الْأُتَمَةِ الْأَرْبَعَةِ، وَهُوَ أَنِّي أَفْتَيْتُ بَعْضَ النَّاسِ بِتَقْدِيمِ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا
إِذَا كَانَ وَرَاءَ الْعَبْدِ حَاجَةٌ. قَالُوا: وَشَاعَ ذَلِكَ فِي الْحِجْ. وَأَرْسَلَ بَعْضُ
الْأَعْدَاءِ مَكَاتِبَاتٍ بِذَلِكَ إِلَى مِصْرَ مِنَ الْجَبَلِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مِصْرَ حَصَلَ فِي
مِصْرَ رَجٌّ عَظِيمٌ حَتَّى وَصَلَ ذَلِكَ إِلَى إِقْلِيمِ الْغَرْبِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ وَالصَّعِيدِ وَأَكَابِرِ
الدَّوْلَةِ بِمِصْرَ، فَحَصَلَ لِأَصْحَابِي غَايَةُ الضَّرَرِ، فَمَا رَجَعْتُ إِلَى مِصْرَ إِلَّا وَأَجَدُ
غَالِبَ النَّاسِ يَنْظُرُ إِلَيَّ شِزْرًا، فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ فَأَخْبَرُونِي بِالْمَكَاتِبَاتِ
الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ مَكَّةَ. فَلَا يَعْلَمُ عَدَدٌ مِنْ اغْتَابِي وَلَا ثَبَرُضِي إِلَّا اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ. ثُمَّ إِنِّي لَمَّا صَنَفْتُ كِتَابَ "الْبَحْرِ الْمُرُودِ فِي الْمَوَاقِيقِ وَالْعُهُودِ"، وَكُتِبَ
عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ بِمِصْرَ، وَتَسَارَعَ النَّاسُ لِكِتَابَتِهِ، فَكُتِبُوا مِنْهُ نَحْوُ
أَرْبَعِينَ نَسْخَةً، غَارَ مِنْ ذَلِكَ الْحَسْدَةُ فَاحْتَالُوا عَلَى بَعْضِ الْمَغْفَلِينَ مِنْ
أَصْحَابِي، وَاسْتَعَارُوا مِنْهُ نَسْخَتَهُ، وَكُتِبُوا لَهُمْ مِنْهَا بَعْضُ كِرَارِيسَ، وَدَسَوْا
فِيهَا عَقَائِدَ زَائِغَةً وَمَسَائِلَ خَارِقَةً لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَحِكَايَاتَ وَسْخَرِيَّاتٍ عَنْ
جَحَا وَابْنِ الرَّوَنْدِيِّ، وَسَبَكُوا ذَلِكَ فِي غَضُونِ الْكِتَابِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ حَتَّى
كَانَهُمُ الْمُؤَلَّفُ، ثُمَّ أَخَذُوا تِلْكَ الْكِرَارِيسَ وَأَرْسَلُوهَا إِلَى سُوقِ الْكُتُبِيِّينَ فِي يَوْمِ
السُّوقِ، وَهُوَ مَجْمَعُ طُلُبَةِ الْعِلْمِ، فَنَظَرُوا فِي تِلْكَ الْكِرَارِيسَ، وَرَأَوْا اسْمِي عَلَيْهَا،
فَاشْتَرَاهَا مِنْ لَا يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى، ثُمَّ دَارَ بِهَا عَلَى عُلَمَاءِ جَامِعِ الْأَزْهَرِ مَنْ
كَانَ كَتَبَ عَلَى الْكِتَابِ وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ، فَأَوْقَعَ ذَلِكَ فِتْنَةً كَبِيرَةً، وَمَكَّثَ النَّاسُ

يلوثون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة، وأنا لا أشعر .
وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقاني، وشيخ الإسلام الحنبلي، والشيخ شهاب الدين بن الجلي، كل ذلك وأنا لا أشعر . فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرني الخبر، فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء، فنظروا فيها، فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة، فسبوا من فعل ذلك، وهو معروف. وأعرف بعض جماعة من المتهورين يعتقدون فيّ السوء إلى وقتي هذا، وهذا بناء على ما سمعوه أولاً من أولئك الحسدة. ثم إن بعض الحسدة جمع تلك المسائل التي دُست في تلك الكراريس وجعلها عنده، وصار كلما سمع أحداً يكرهني يقول له: إن عندي بعض مسائل تتعلق بفلان. فإن احتجت إلى شيء منها أطلعك عليه. ثم صار يعطي بعض المسائل لحاسد بعد حاسد إلى وقتي هذا، ويستفتون عليّ وأنا لا أشعر. فلما شعرتُ أرسلت لجميع علماء الأزهر أنني أنا المقصود بهذه الأسئلة، وهي مفتراة عليّ، فامتنع العلماء من الكتابة عليها (كتاب "لطائف المنن والأخلاق" للشعراني/ المطبعة الميمنية/ ٢/ ١٩٠ - ١٩١).

وقد ذكر المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه: "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ترجمة الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى. وبعد أن أثنى عليه وعلى مؤلفاته الكثيرة قال: 'وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع، وعقائد زائغة،

ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة، وشنّوا وسبّوا، ورَمَوْه بكل عظيمة، فخذلهم الله، وأظهره الله عليهم. وكان مواظبًا على السنّة، ومبالغًا في الورع، مؤثرًا ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه، متحملًا للأذى، موزعًا أوقاته على العبادة ما بين تصنيف وتسلية وإفادة. وكان يُسمع لزاويته ذوي كدويّ النحل ليلاً ونهارًا، وكان يحبي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى صلى الله عليه وسلم. ولم يزل مقيمًا على ذلك، معظمًا في صدور الصدور، إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته' ("شذرات الذهب في أخبار من ذهب" للمؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ / ٨ / ٣٧٤).

وقال الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه: "اليواقيت والجواهر": "وقد دسّ الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته عقائد زائغة. ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتنوا بما وجدوه تحت وسادته' ("اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر" للشيخ عبد الوهاب الشعراني/ المطبعة الميمنية/ ١ / ٨). وكذلك ذكر الشيخ مجد الدين الفيروزبادي صاحب "القاموس" في اللغة أن بعض الملاحدة صنف كتابًا في تنقيص الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأضافه إليه، ثم أوصله إلى الشيخ جمال الدين بن الخياط اليميني، فشنع على الشيخ أشد التشنيع، فأرسل إليه الشيخ مجد الدين يقول له: 'إني معتقد في الإمام أبي حنيفة غاية الاعتقاد، وصنفت في مناقبه كتابًا حافلاً وبالغت في تعظيمه إلى

الغاية، فأحرقَ هذا الكتاب الذي عندك أو اغسله، فإنه كذب وافتراء عليَّ
 ("لطائف المنن والأخلاق" للشعراني / ١ / ١٢٧). وقال الفقيه الكبير أحمد
 بن حجر الهيثمي المكي رحمه الله تعالى: وإياك أن تغتر بما وقع في كتاب
 "الغنية" لإمام العارفين، وقطب الإسلام والمسلمين، الشيخ عبد القادر
 الجيلاني، فإنه دسه عليه فيها من سينتقم الله منه، وإلا فهو بريء من ذلك.
 وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلعه من الكتاب والسنة وفقه
 الشافعية والحنابلة حتى كان يفتي على المذهبين؟ هذا مع ما انضم لذلك من
 أن الله منَّ عليه من المعارف والحوارِق الظاهرة والباطنة، وما أنبأ عنه ما ظهر
 عليه وتواتر من أحواله... إلى أن قال: فكيف يُصَوَّر أو يُتَوَهَّم أنه قائل بتلك
 القبائح التي لا يصدر مثلها إلا عن اليهود وأمثالهم ممن استحکم فيهم الجهل
 بالله وصفاته وما يجب له وما يجوز وما يستحيل؟ سبحانك! هذا بهتان
 عظيم ("الفتاوى الحديثية" لابن حجر / ١٤٩). وكذلك دسوا على الإمام
 الغزالي عدة مسائل في كتاب "الإحياء"، وظفر القاضي عياض بنسخة من
 تلك النسخ فأمر بإحراقها (اليواقيت والجواهر / ١ / ٨). قال الشعراني رحمه
 الله تعالى: ومما دسوا على الغزالي وأشاعه بعضهم عنه قولهم عنه إنه قال:
 "إن لله عبادة لو سألوهُ ألا يُقيم الساعة لم يُقَمْها، وإن لله عبادة لو سألوهُ أن
 يُقيم الساعة الآن لأقامها"، فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة
 الإسلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه

لأنه يردُّ النصوص القاطعة الواردة في مقدمات الساعة، فيؤدي ذلك إلى تكذيب الشارع صلى الله عليه وسلم فيما أخبر. وإنْ وُجد ذلك في بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة. وقد رأيت كتاباً كاملاً مشحوناً بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة، صَنَفَهُ بعض الملحدين ونسبه إلى الإمام الغزالي، فاطلع عليه الشيخ بدر الدين ابن جماعة، فكتب عليه: كَذَبَ وَاللَّهِ وَاَفْتَرَى مَنْ أَضَافَ هَذَا الْكِتَابَ إِلَى حِجَّةِ الْإِسْلَامِ ("لطائف المنن والأخلاق" للشعراني / ١ / ١٢٧). وقال أيضاً: 'وكذلك دسوا عليّ أنا في كتابي المسمى بـ"البحر المورود" جملةً من العقائد الزائغة، وأشاعوا تلك العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين، وأنا بريء منها كما بيّنتُ في خطبة الكتاب لما غيرتها، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التي عليها خطوطهم' (اليواقيت والجواهر / ١ / ٨). هذا، وقد ملأ خصومه الدنيا حوله حقداً وحسداً، وافتراءً وكذباً وتضليلاً، لا سيما في كتبه المعروفة، وأشهرها "الطبقات الكبرى". فلو قارن المُنْصَفُ بين كلام الشعراني رحمه الله تعالى الذي يعلن فيه تمسك الصوفية بالشريعة... وبين كلامه في "الطبقات الكبرى" لرأى تبايناً ظاهراً، ولظهر له كذب ما في "الطبقات". وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى. قال الشعراني: 'كان رضي الله عنه متقيداً بالكتاب والسنة، ويقول: كل مَنْ رمى ميزان الشريعة من يده لحظةً هلك... إلى أن

قال: وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلّ مراقبيه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي نزيل مكة المشرفة. ثم أخرج لي نسخة "الفتوحات"، التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونيه، فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت "الفتوحات". ثم قال الشعراني رحمه الله تعالى: 'إذا علمت ذلك فيحتمل أن الحسدة دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين' ("اليواقيت والجواهر" للشعراني / ١ / ٩).

وقد أثرت هذه المسألة في موقع "ملتقى أهل الحديث"، فرد أحدهم قائلاً إنه إن كان الشعراني عابداً فلا ينافي، إن صحَّ، أنه كان ضالاً مضلاً. فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف الخوارج بالمروق من الدين مع كونهم يخفرون أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، فكذلك الشعراني وأمثاله، إذ من الممكن أن يكون منهم عبّاد، ولكنهم ضالون منحرفون. أما استشكال البعض بأن الشعراني كتب في الحديث والفقه من رآها لم يكذب يصدق أن كاتبها هو كاتب "الطبقات" فسببه في نظر المعلق أن أمثاله لديهم انقسام في الشخصية لتقسيمهم الدين إلى حقيقة وشريعة: فعندما يكلمك أحدهم في الشريعة يكلمك كلام العقلاء، ثم إذا خاض في الحقيقة

انقلب ١٨٠ درجة وتحول كلامه إلى كلام المجانين. وأما ثناء ابن العماد الحنبلي في كتابه: "شذرات الذهب" على الشعراني فلأنه على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، وهو صوفي مثله، بالإضافة إلى أن العالم الإسلامي في تلك الحقبة كان مغموساً في هذه البدع والخرافات يشبّ عليها الصغير ويشيب عليها الكبير، ومن لم يكن منهم رأته مجارياً لهم مثيلاً على ضلالتهم بجهل أو تأويل، إلا من رحم الله عز وجل.

ثم يمضى المعلق طالبا من كاتب الموضوع أن يقرأ ما كتبه عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه: "فضائح الصوفية" عن الشعراني ليستطيع أن يحكم بنفسه، إذ قال: "هذا هو عبد الوهاب الشعراني يجمع في كتابه: "الطبقات الكبرى" كل فسق الصوفية وخرافات وزندقتها فيجعل كل المجانين والمجاذيب واللوطية والشاذين جنسياً، والذين يأتون البهائم عياناً وجهاراً في الطرقات، يجعل كل أولئك أولياء وينظمهم في سلك العارفين وأرباب الكرامات وينسب إليهم الفضل والمقامات".

وقد رد بعضهم على هذا التعليق بأن بعض من يكرهون الشعراني قد دس في كتبه ما لم يكتبه بنفسه، فقال المعلق: "والذي ظهر لي بما لا يدع مجالاً للشك أن الشعراني كان رجلاً مبتدعاً مخرفاً لأننا، وإن قلنا حتى بوضع كتاب "الطبقات" من أصله، فكتبه الأخرى طافحة بذلك، ومن أهمها "لطايف المنن والأخلاق"...". وهذا في الواقع ما أريد أن أصنعه هنا، فقد اخترت هذا

الكتاب لأرى كيف ترجم الشعراني لنفسه فيه وماذا كانت آراؤه بعيدا عن كتاب "الطبقات الكبرى" المَقُول بتعرضه للدس والتزوير. ثم إن هذا الكتاب قد يكون أصلح كتب الشعراني للتناول النقدي الأدبي، فهو ترجمة ذاتية للرجل. ولسوف نحاول من خلاله التعرف إلى خصائص أسلوبه وطريقة معالجته للموضوعات التي يتناولها وما إلى هذا. وبالنسبة إلى ما قيل عن دس كارهى الشعراني فى كتبه ما يسىء إليه ثم كتاب حديث يتناول هذا الموضوع ويعمل على إثبات الدس هو "القول المبين فى الدس على الإمام الشعراني إمام العارفين"، يحده القارئ على الرابط التالى:
http://www.soufia.org/alsharany_das.html

وأول ما يلفت النظر فى كتاب "لطائف المنن والأخلاق" للشعراني ما قاله هو نفسه فى بدايته، إذ نقرأ ما نصه: "وهذه جملة من النعم والأخلاق التى تفضل الحق تعالى بها على أوائل دخولى فى محبة طريق القوم رضى الله تعالى عنهم أجمعين كان الباعث لى على تأليفها ورقمها فى هذه الطرُوس أمورا: أحدها ليقضى بى إخوانى فيها فيتخلقوا بها ويشكروا الله تعالى على ذلك. وقد مكثت متخلقا بها عدة سنين، ولا يشعر إخوانى بذلك. وكنت أمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون، فقال لى يوما جماعة منهم: 'هذه الأخلاق التى تأمرنا بها لم نجد أحدا تخلق بها من أهل عصرنا حتى تقتدى به فيها'، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تتلقى بها قطعاً لحجتهم، وقلت لهم: 'انظروا إلى هذه الأخلاق التى أذكرها لكم فى هذا الكتاب، فكل نطق

رَأَيْتُمُونِي مُتَخَلِّقًا بِهِ فَاتَّبِعُونِي عَلَيْهِ، وَمَا بَقِيَ لَكُمْ حُجَّةٌ فِي تَرْكِ التَّخَلُّقِ بِهِ .
 فَلَوْلَا ذَلِكَ لَرَبَّمَا كَانَ الْكَتْمَانُ لَهَا أَوْلَى . . . وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ جَمَلَةِ شُكْرِ اللَّهِ
 تَعَالَى عَلَيَّ إِذْ خَلَقَنِي بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ مُعَرِّئًا عَنْهَا . كَمَا أَنَّ مَنْ
 أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْغَرَقِ يَتَأَكَّدُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقُذَ مَنْ رَأَاهُ غَرِيقًا " (لَطَائِفُ الْمُنَنِ
 وَالْأَخْلَاقِ / ١ / ٢) .

ويحسب للشعراني، بلا أدنى شك، تفكيره في مصلحة الآخرين
 وحرصه على أن يتخلقوا بالأخلاق الحسنة، وكذلك تواضعه حين أشار إلى
 أنه كان معرِّئًا عن تلك الأخلاق الطيبة قبل ذلك، وأنه كان كالغريق الذي
 أنقذه الله من الموت فأراد، شكرًا منه لنعمة ربه، أن يبذل جهده لإنقاذ أمثاله
 ممن يوشكون أن يغرقوا . لكننا في نفس الوقت نستغرب ما في كلام الرجل من
 تناقض، إذ بينما يثني على أخلاق أهل الطريق ويراهم المثال الأعلى للآخرين
 إذا به يخبرنا بأنهم لم يكن بينهم من يتخلق بتلك الأخلاق الطيبة في عصره، مما
 اضطره إلى أن يبين لهم أنه يتحلى بتلك الخلائق . وهو ما نفهم منه أنهم لم
 يلحظوا تخلقه بها مع تأكيده أنه متخلق بها طوال الوقت . فكيف يكون
 متخلقًا بها طوال الوقت ثم ينفون هم أن يكون ثم أحد في العصر كله متخلق
 بها ؟ وعلاوة على ذلك نراه يقول إنه وجد من الضروري وقتذاك أن يُظهر
 تخلقه بتلك الأخلاق . فهل معنى هذا أنه لم يكن يُظهر ذلك من قبل ؟ فكيف
 كان سلوكه أوانذاك إذن ؟ الواضح من الكلام أنه لم يكن متخلقًا بها أو على

الأقل: لم يكن حريصا على أن يراعيها فى تصرفاته بحيث لم يلحظها مَنْ حوله من أهل الطريق، وإلا لقد كان الجواب المنطقى من جانبه لهم: "أولم تلاحظوا طوال إقامتكم معى أننى لا أتصرف إلا بوحى من هذه الأخلاق الطيبة؟". أليس كذلك؟ فهأتذا ترى معنا، أيها القارئ، كيف أن ما يقوله الرجل لا يتسق بعضه مع بعض.

وفوق هذا فإنه فى موضع آخر من الكتاب يقول كلاما مختلفا، أو على الأقل: كلاما يعانى من الاضطراب ويُشعر بالتناقض. كيف؟ يقول: "ومما مَنْ الله تبارك وتعالى به علىَّ شهودى فى نفسى أننى دون من أرشد من المريدين فى المقام لأنهم مشايخى بالحال، وأنا شيخهم بالقال، والحال أقوى من القال. وإيضاح ذلك أننى كلما نظرتُ إلى افتقارهم إلىَّ فى تعليم الأدب وتهية ما يأكلون ويشربون أتذكرَّ شدة افتقارى إلى الله تعالى وكثرة إنعامه علىَّ مع كثرة ما أتعاطاه من القبايح" (١٤٨ / ٢). فكيف يرى فى نفسه قدوة لهم مع أنهم أفضل منه فى واقع الأمر، وإن كان هو أفضل منهم فى المقال؟ هذا أمر يبعث على الحيرة. ودعنا من باقى كلامه مما يحتاج إلى التوفيق بين بعضه وبعض.

وشىء آخر أجد بنفسى حاجة إلى مناقشته، وهو: هل يصح أن يقول الواحد منا عن نفسه إن فيه مناقب يقتدى بها الآخرون. ولنلاحظ أن المقصود هنا هو المناقب الخلقية والدينية، وهذا أمر فيه من الحساسية ما

فيه . صحيح أن الواحد منا فى بعض الأحيان قد يرى أنه مستقيم على الجادة وأن الآخرين يقصرون فى ذات الخلق الكريم، لكن علينا فى هذه الحالة أن نعمل على التخلص من هذا الشعور أولاً بأول، فإنه حريٌّ، إن تركناه يتمدد ويسود، أن يفسد علينا أمرنا وأن يصيبنا بالغرور فيُخبط أعمالنا . فإذا لم تستجب النفس لهذه المحاولة فعلينا فى أقل تقدير أن نطامن منه بحيث لا يظهر الآخرون عليه . ذلك أنه ينبغى ترك الحكم فى ذلك الأمر لله عز وجل، فهو العليم بظروف كل إنسان وبقيمة ما أنجز وبمقدار ما فى عمله من إخلاص أو رياء، وهل بذلك كل جهده فيه أم هل اكتفى بأقل جهد . . . إلى آخر ما لا بد من الإحاطة به قبل الشروع فى الحكم على أخلاق الشخص وسلوكه، وبغيره لا يمكن أن يكون الحكم سليماً أو دقيقاً . كما أن التواضع مطلوب منا جميعاً، وإن كان تنفيذ ذلك صعباً على البشر، إلا أن المحاولة فى هذا السبيل جديرة بأن يحرص الإنسان عليها . قد يقال كما قال الشعرانى فعلاً (١/ ٤) إن ذاكر مناقب نفسه قد يفعل هذا تعبيراً عن شكره لله سبحانه . لكن ينبغى أن تنبه إلى أن الأمر هنا ليس أمر شكر للنعمة الإلهية بل أمر تأكيد من الشعرانى بأنه قدوة للآخرين . فالوضعان إذن مختلفان كما ترى . ومع هذا فمن طريف الأمر أن الشعرانى قد خصص فصلاً يؤكد فى أحدها أنه لم يكن يطلب قط مقاماً لنفسه عند الناس (١/ ١٢٩ فصاعداً)، وفى ثانٍ يؤكد أنه لم يكن يرى نفسه معدوداً فى جملة العلماء (١/ ١٦٤ فما بعدها)، وفى ثالث

أنه كان يكره أن يدحه أحد فى المجالس (١/ ١٦٥ وما بعدها) . . .
وهكذا . ومع ذلك نراه يخصص "مطلبيا" (كما يقول) فى اعتقاد كثير من
الإنس والجن فيه (١/ ١٧٤ فصاعدا) .

كذلك ذكر الشعرانى ضمن ترجمته لنفسه فى كتاب "فضائل المنن" أنه
كان يحرص على ألا يمر أبدا فى ظل عمارة أحد من الولاة . يقصد أنهم ظلمة
وأن عمائرهم مبنية من المال الحرام، فلا ينبغى الانتفاع بها أو بظلمها أبدا (١/
٥) . وهى، لو صحت، مبالغة فى التنطس لا معنى لها لأن الظل ليس
انتقاعا بالقصد، بل بالعرض . وحتى لو كان بالقصد هل ينقص الظل بمرور
الإنسان فيه ؟ إن الظل موجود هناك سواء استعمله المارة أو لا . كما أنه لا
يباع مهما يكن الأمر، ومن ثم لا يصح القول إن الواجب التحرز منه . وهل
نسى الشعرانى أن الظل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا ملكية شخصية ؟ ولم
يقل أحد من الفقهاء أو غيرهم من علماء الدين إنه مما يعاقب على استعماله
إذا كان المستعمل له غير صاحب العمارة التى نشأ عنها . وهل يصح أن
يشغل الإنسان ذهنه بمثل تلك الأمور التى لا يمكن التحرز منها ؟ والطريف أنه
سوف ينسى بعد قليل فيذكر أنه كان يتشفع عند هؤلاء الحكام بما يعنى أنه لم
يكن فقط يمشى فى ظل بيوتهم بل كان يدخل تلك البيوت أيضا (١/ ٨) .
ويذهب الشعرانى فيغلو غلوا شديدا حين يتحدث عن إحساسه "بمشاركة
جميع المسلمين فى جميع البليات والحن التى تصيبهم حتى إنى قد أشارك

المعاقبين فى بيت الوالى وأشارك المرأة حال طلقها وأحس بالولادة، ثم مساعدة أصحاب النوبة فى حفظ أدراكهم فى سائر أقطار الأرض، ثم استئذانى أصحاب النوبة كلما خرجت من بيتى لحاجة أو إلى سفر أو رجعت منها أو دخلت بيت حاكم أو طلعت القلعة لشفاعة... " (٨/١) .

واضح أن الرجل يتحدث عن نفسه وكأنه الله فعلا! على أن أطرف شىء قوله إنه كان يشعر بالآلم الحمل كأنه هو المرأة الحامل! ثم هل نفهم من هذا أن السرقة كانت معدومة فى عصر الشعرانى فى العالم كله ما دام يحفظ الأموال والأدراك التى يتولى حراستها الحفر والعسكر فى كل مكان على سطح البسيطة؟ الواقع أن هذه الدعوى "واسعة حبتين" كما يقول العوام!

على أن هذه المبالغة تهون بجانب المبالغة المقيمة المتمثلة فى دعوى الشعرانى أنه كان يتلو القرآن كله فى ركعة واحدة قبل بلوغ سن الرشد (١/٥) . فهذا أمر مستحيل تماما، ولا يقول به عاقل، ولا يصدق من لديه ذرة من العقل. ولا أدرى كيف طاع الشعرانى ضميره لكتابة مثل هذا الكلام المتطرف الذى لا يمكن وصفه بغير الكذب والتدجيل. ومن الطريف أن نراه يخصص مطلقا لشدة زجره أصحابه عن الكذب (٢/١٠٩) . والحق أن أمر الشعرانى محير أشد التحير، إذ بينما نجده يقول كلاما غاية فى الحكمة والتعقل والبصر بالحياة وطباع الناس والإخلاص لمبادئ العلم والفكر المستقيم إذا بنا نؤخذ على حين غرة حين ينسى كل ما قاله من حكمة ووصانا به من

تعقل ووفاء لحق العلم، ويدخل فى مضمار الهلس والتزوير . أم تراه رغم ذلك كله كان يعتقد فى صحة ما يقول وإمكان حدوثه ؟ لكن كيف ؟ أرجو أن أجد من يرشدنى إلى الجواب الصحيح، وله الأجر والمثوبة من الله .

ومن ذلك أيضا دعواه أنه كان يضع، متى أراد، يده على قبر الرسول وهو فى مصر، وأن الجن كانت تطيعه وتعتقد فيه البركة والصلاح (١ / ٩) . ومن جملة اعتقاد الجن فيه أنهم أرسلوا له "نحو خمسة وسبعين سؤالاً فى علم التوحيد لأكتب لهم عليها، وقالوا: قد عجز علمائنا عن الجواب عنها، وقالوا: هذا التحقيق لا يكون إلا من علماء الإنس . وسَمَوْنِي فى السؤال: شيخ الإسلام . فكتبت لهم فى الجواب عنها نحو خمسة كرايس وسميتها: "كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان" . وكذلك أرسلوا لى قصة فيها خطبة غريبة فى شدة الفصاحة واللغات نحو حزب، يسألونى فيها أن أخلص ولد شرف الدين بن الموقع لما أسره جماعة من يهود الجان، فأرسلت أقول لهم: اسألوا غيرى . فقالوا: قد عجز غيرك عن تخليصه منهم . فكتبت له ورقة يحملها، فرجعوا عنه" (١ / ١٧٦) .

وخذ هذه أيضا عندك أيها القارئ الكريم، فقد زعم الشعراى أنه كان يمرض إذا مرض أحد من أصحابه أو ولادة أمره إلى أن يتم شفاؤه فيُشْفَى هو أيضا . بل إنه ليزعم أنه كان يحرس جميع الولاة وبيوت الناس وحوانيتهم وزروعهم وجسورهم كل يوم وكل ليلة رغم أنهم هم أنفسهم قد يَنسَوْنَ القيام

بهذا العمل (١/ ٧) . أَوَقَدْ نَسِيَ أَنَّهُ كَانَ يَتَحَرَّجُ مِنَ الْمُرُورِ فِي ظِلِّ عِمَارَةٍ أَى
 وَال؟ فَلَمْ يَأْتِرْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَحْرُسَ الْوَلَاةَ؟ أَلَكى يَظْلُوا يَظْلَمُونَ
 الْخَلْقَ؟ أَلَمْ يَكُنْ الْأَفْضَلُ أَنْ يَتْرَكَهُمْ دُونَ حِمَايَةٍ حَتَّى يَمُوتُوا فَيَسْتَرِيحَ النَّاسُ مِنْ
 شَرِّهِمْ؟ وَأَيَّةُ قُدْرَةٍ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَحْرُسُ بِهَا أَمْلَاكُ النَّاسِ جَمِيعًا فِي مِصْرَ، بَلْ
 خَارِجَ مِصْرَ أَيْضًا؟ أَهَوَالُهُ مِثْلًا؟ وَهَلْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ فِي عَصْرِ الشُّعْرَانِ لَمْ
 تَكُنْ هُنَاكَ سَرَقَاتٌ وَاغْتِصَابَاتٌ لِلْأَمْوَالِ وَالْمَمْلُوكَاتِ بِطُولِ الْعَالَمِ وَعَرَضُهُ؟

وَمِمَّا مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَى الرَّجُلِ حَسَبَ دَعْوَاهِ الْعَجِيبَةِ "كَشَفَ الْحِجَابَ
 عَنِّي حَتَّى سَمِعْتُ تَسْبِيحَ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا مِنْ صَلَاةِ
 الْمَغْرِبِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ . وَذَلِكَ أَنِّي أَحْرَمْتُ بِصَلَاةِ الْمَغْرِبِ خَلْفَ الشَّيْخِ
 الصَّالِحِ الْوَرَعِ الزَّاهِدِ سَيِّدِ الْأَمِينِ الدِّينِ الْإِمَامِ بِجَامِعِ الْغَمْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى
 عَنْهُ، فَانْكَشَفَ حِجَابِي فَصَرْتُ أَسْمَعُ تَسْبِيحَ الْعُمَدِ وَالْحَيَاطَانِ وَالْحُصُورِ
 وَالْبَلَاطِ حَتَّى دَهَشْتُ وَصَرْتُ أَسْمَعُ مِنْ يَتَكَلَّمُ فِي أَطْرَافِ مِصْرَ، ثُمَّ أَسْتَمِعُ
 إِلَى قَرَاهَا، ثُمَّ إِلَى سَائِرِ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ، ثُمَّ إِلَى الْبَحْرِ الْحَيْطِ، فَصَرْتُ أَسْمَعُ
 تَسْبِيحَ السَّمَكِ . وَكَانَ مِنْ جَمَلَةٍ مَا سَمِعْتُ مِنْ تَسْبِيحِ سَمَكِ الْبَحْرِ الْحَيْطِ:
 'سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْخَلِيقِ، رَبِّ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَرْزَاقِ .
 سُبْحَانَ مَنْ لَا يَنْسَى قُوَّةَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَقْطَعُ بَرَهُ عَنْ عَصَاهُ' (١/ ١٧٧) .

وهذه دعوى عجيبة كلها جهل واستحالة، إذ هل الجمادات والحيوانات تتحدث العربية، وتسجع بها أيضا؟ وهل من المعقول ألا تجد الأسماك ما تسبح به ربها إلا ما كان فيه هلاكها؟ ذلك أنها ذكرت تدبيره سبحانه لأقوات خلقه. والسماك قوت للبشر، وفي تدبير هذا القوت هلاك للسماك نفسه. وقبل هذا كله فإننا نعرف الآن أنه لو كشف الحجاب عن أذن الإنسان فسمع كل شيء لأصابه الصمم من كثرة الأصوات وشدتها، فما بالناس لو كان هذا غير مقصور على الأصوات الموجودة في البيت وحده، بل في البيت والحي والمدينة ومصر كلها والعالم أجمع؟ إن هذا لو حدث لأصيب الإنسان بالجنون بل لمات لوقته. إلا أن الشعراوي يؤلف ولا يبالى. لا نكران أن هذا أدب خيالي جميل تفوق فيه الشعراوي على مؤلفي "ألف ليلة وليلة" كثيرا جدا، لكن لا صلة بينه وبين الواقع بحال من الأحوال. فهو من هذه الناحية كذب أبلق.

ومثل ذلك قوله إن دروسه كانت تحضرها الأعداد الكثيرة من الملائكة والجن. لكن كيف عرف ذلك؟ وهو يقول إنه، لهذا السبب، لم يكن يراعى في أحاديثه عندئذ مستوى الحاضرين فقط. يقصد أن هناك من كان ينبغي مراعاة مستواهم أيضا، وهم الملائكة والجن. ويمضى فيقول إنه لم يكن هناك في عصره من يقع له هذا إلا "سيدي" محمد البكري، الذي لم يكن أحد يفهم من كلامه شيئا لذلك السبب، إذ كان يراعى مقام الحاضرين من أهل الدوائر

العلية لكثرة حضور الملائكة وأكابر علماء الجن والإنس مجلسه . ولهذا كان هناك من يقول إن كلامه غير مفهوم ولا فائدة له (٢ / ٦٨) . ويدعو أن الرجل كان يتكلم لغة أخرى غير لغة البشر، لغة تناسب الجن والملائكة، فلهذا لم يكن الناس يفهمون مما يقول شيئاً . لكن أين يا ترى تعلم هذه اللغة؟ ولماذا لم يكن يراعى أن هناك إنسا أيضا فى مجالسه العلمية ينبغى أن يفهموا ما يقول؟

على أن فى الكتاب جوانب فكرية وإنسانية رائعة وبديعة: لنأخذ مثلا ما كتبه الشعرانى عن سعة أفقه الفقهية وكراهيته للمرء وعدم تعصبه لمذهب من مذاهب الفقه على حساب المذاهب الأخرى، فقد عد ذلك منة من منن الله عليه، "إذ لا أتذكر أنى قلت عن شىء من مذهب المخالف: 'هذا ضعيف' أبدا، بل سداى ولُحْمَتى التسليم للمخالف . وقد كان الإمام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وأرضاه يقول: 'ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى العين والرأس، وما جاء عن أصحابه تَخَيَّرْنَا' . وكذلك نقول: 'ما جاءنا عن الأئمة المجتهدين تخيّرنا اتباع من شئنا منهم'" . ليس ذلك فحسب، بل إنه ليؤكد أنه لا يجب أن يحزم بما فهمه من كلام الأئمة الذين يتبعهم على أنه هو مرادهم، إذ المراد أمر غيبى لا يمكن القطع به، وإلا فلم تختلف الفُهُوم فى تفسير القرآن والحديث؟ ثم يمضى الشعرانى مقررًا أن من تخَلَّق بهذا الخلق قَلَّتْ منازعته لإخوانه ومجادلته لهم بغير حق، بخلاف من كان بالضد من ذلك، فإنه فى نزاع وجدال دائما أبدا (١ / ٣٦ - ٣٨) .

هذا، ولا أحب أن أتقل إلى النقطة التالية دون أن أشير إلى أنني قد لاحظت تكرار استخدام الشعراني لعبارة "السَدَى واللَّحْمَة" بمعنى "جوهر الشخص أو كيانه كله" كما هو الحال هنا، وكما هو موجود أيضا في النصوص التالية: "سَدَاى وَلُحْمَتَى التسليم للمخالف" (٣٦ / ١)، "كانت القناعة من الدنيا باليسير سَدَاى وَلُحْمَتَى فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا" (٤٩ / ١)، "لا تكمل رؤية العبد المنة لله تعالى عليه إلا إن رأى سَدَاه وَلُحْمَتَه ذنوباً" (١٤٠ / ١)، "وأما من شبع من الشهوات فالفضول من لازمه. لا يقدر على ترك الكلام الحرام، فضلا عن الفضول، بل سدها ولحمته كثرة كلام" (١٦٢ / ١)، "جاءنى بعض الحنفية يطلب أن يُتَلَمَذ لى وألْقَنه، فرأيت سَدَاه وَلُحْمَتَه نفساً وكَبِيراً فلم أُجِبْه" (٢ / ٣٦).

ولنأخذ أيضا ما قاله الشعراني عن شيخه على الخواص، إذ ذكر أنه "كان رضى الله عنه يوصى عياله على القُطِيطَة، لا سيما فى نهار رمضان، ويقول إن الناس لا يأكلون نهارا فلا تجد القُطِيطَة ما تأكله وتضيع مصالحها. ورأيت رضى الله عنه كثيرا ما يضع للنمل الدقيق أو الفتات على باب جحرها، ويقول رضى الله تعالى عنه: تغنى النملة عن الخروج للسعى على قوتها وقوت رفقتها، فإنها لا تخرج حتى تباع نفسها على أنها لا ترجع إلا بشىء، فتعرض نفسها لوقوع حافر أو نعل عليها، فإما تموت وإما تنكسر

يُداها أو تُرَضَّح أضلاعها فتمرض زمانا طويلا وتقاسى من الألم ما لا يقاسى
أحدنا لو كُسِرَت يده أو أضلاعه ونام على قور سبعة أشهر وأكثر . . . وقد
كان سيدي على الخواص يقول: إذا كان عندكم شيء من العسل أو السكر
فصبوا من ذلك شيئا على باب جحر النمل أو فى الموضع الذى تمر فيه على
اسمها، ولا تجعلوا لها قطرانا على الإناء إلا بعد ذلك، فإن من عسّر على
حيوان طريق الوصول إلى رزقه فرمما عسّر الله تبارك وتعالى عليه طريق رزقه
كذلك جزاءً وفاقاً بحكم العدل الإلهى . . . وقد حكى لى الحاج محمد
الحلبى، قال: كنت أطرد القطة كلما وقفت على وأنا أكل، فجاءتنى فى المنام
وقالت: مثلك يطرد القطة ويخل بأكلها، وقد خَوَّلَكَ الله تعالى فى النعمة
ووسّع عليك؟ فقلت: 'أضغاث أحلام'، وطردتها، فجاءتنى فى المنام
وقالت لى مثل الأول، فقلت: 'أضغاث أحلام'، وطردتها ثانى مرة، فجاءتنى
فى الثالثة، فصرتُ أطعمها من كل شيء أكلتُ منه" (١/ ١٨٨ - ١٨٩).

ولا ننس أن ما نادى به الخواص وكان يصنعه إنما هو اتباع للهدي
النبوى النبيل، إذ تقرأ فى الحديث الشريف: "دخلت امرأة النار فى هرة
ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشَاش الأرض". كما جاءت إحدى
الخادِمات من مولاتها بهريسة لعائشة رضى الله عنها "فوجدتها تصلي
فأشارت إلى أن: ضعِها، فجاءت هرة فأكلت منها . فلما انصرفت أكلتُ من
حيث أكلت الهرة، فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنها

ليست بنَجَسٍ . إنما هي من الطوافين عليكم . وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بفضلهما" . وفى حديث آخر "قرصت نملة نبيًا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأُحرقت ، فأوحى الله إليه : أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرِقْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تَسْبِجُ ؟" ، وفى حديث ثالث : "نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلاً فانطلق لحاجته ، فجاء وقد أوقد رجل على قرية نمل : إما في الأرض وإما في شجرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم فعل هذا ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله . قال : أَطْفِئْهَا ! أَطْفِئْهَا !" ، وعن أبى هريرة : "بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي . فنزل البئر فملاً خُفَّهُ ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر" ، وعنه أيضاً : "بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت موقها فسقته ، فغفر لها به" .

ويذكر الشعراني بين مناقبه التى من الله سبحانه وتعالى بها عليه "طيب نفسى بإعطاء القطاة أو الكلب ورك الدجاجة التى بين يدي إذا رأيتها تتوقع الإحسان بالقرائن . وكثيراً ما أعطيتها الدجاجة كلها كاملة إذا كانت جوعانة . فعلم من ذلك أننى ، بطريق الأولى ، لا أجرى وراءها إذا خُطِفَتْ

الدجاجة المحمرة، ولا أمكن أحدا من أن يجرى وراءها لأنى قد أعطيتها ذلك بطيبة نفس. ثم إن جَرى أحد وراءها رأيت أن إرعابها وإزعاجها يُذهب أجر الدجاجة وكأننا لم نعطها شيئا، بل ربما لم تكن الدجاجة تفى بضرر إرعابها. واعلم يا أخى أن الهرة ما خطفت الدجاجة مثلا من بين أيدينا إلا بعد أن جربتنا فى البخل والشح عليها، وبعد أن رأت الواحد منا يجرّد اللحم عن العظام حتى لا يُبقىَ عليها جلدة ولا عصبا. فما خطفت حتى أيسّت من إحساننا لها مع أنها ما أقامت عندنا إلا لظنها فينا الكرم والبر وأننا نرمى لها شيئا تأكله إذا وقفت بين أيدينا. فإنها تفهم الأمور، ولكنها عاجزة عن النطق بما تفهمه" (١/ ١٨٨).

وأنا، بعد، متحير لا أدري رأسى من رجلى أمام هذا الكلام الجميل النبيل الحكيم: أترى الرجل كان يفعل هذا حقا؟ أم تراه يتزبد كى يعطى الناس من حوله صورة وضاعة عنه وعن سلوكه ومشاعره وخلقه فيروج عندهم ويُقبلوا عليه ويضعوه الموضع العالى بين "رجال الطريق" كما يحب هو وأمثاله أن يسموا أنفسهم؟ ذلك أن له كلاما فى غير هذا الموضع لا يمكن أن يدخل العقل. لكن من السهل أن يقال إن هذا غير ذاك، وإن البساطة والتلقائية اللتين تبلغان حد السذاجة، وكذلك التفصيلات الدافئة التى لا يبدو عليها تعمل ولا تكلف، كل ذلك دليل على أنه كان يقول الصدق أو يجعلنا نشعر وكأنه يقول الصدق. ولس معنى أن إنسانا يبالغ فى كلامه فى بعض

الأحيان أنه لا بد أن يبالغ في كلامه بالضرورة في كل حين . وأيا ما يكن الأمر فإن هذه السطور لَحَرِيَّةُ أَنْ تُكْتَبَ بماء الذهب حتى لو كانت غير صحيحة، بل لا بد أن تُنْقَشَ نقشا على الضمائر والقلوب والعقول . لقد بلغت مستوى سامقا في إنسانية التعامل مع العجماوات الضعيفة . إنني لأكتب هذا الكلام وقلبي يغمره الحنان على الشيخ كما غمر قلبه الحنان على القبط الجائعة . إن مجرد خطوط هذه الفكرة على بال الرجل لهو أمر عجيب وكريم . ولا أظن الرجل يمكن أن يزيف مشاعره في مثل هذا الموضوع . والله أعلم .

بقى استعماله هنا لكلمة "جِعانة": ترى هل هي صيغة صحيحة؟ الذى أعرفه أنها "جَوْعَان" بالواو لا بالياء، وعلى وزن "فَعْلَى: جَوْعَى" فى صيغة المؤنث لا "فعلانة" . فأين الصواب فى ذلك؟ لقد بحثت فى "الموسوعة الشعرية" الإماراتية فلم أجدها فى الشعر إلا عند محمد عثمان جلال من المحدثين، وفى زجل عامى لا شعر فصيح . وهذا هو الشاهد الوحيد الذى عثرت عليه:

أرسل لهم طير بمنقار والطير جيعان وجارح
أما فى النشر فوجدتها فى بعض كتب التاريخ والأدب من العصور المتأخرة مثل كتاب "النجوم الزاهرة" لابن تغرى بردى، و"فَوَاتِ الْوَفِيَّاتِ" لابن شاكر الكتبي، و"فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" لابن عَرَبْشَاه، و"نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى، و"الوافى بالوفيات" لصالح الدين الصَّفَدَى، و"أعيان

العصر وأعوان النصر" لصالح الدين الصفدى أيضا فى الشاهد التالى: "ثم إن ابن حمدان قطع الكلام، وقال: يا خوند أنا جيعان، وقد اشتهيت كركيا يُشوى لي. فقال: هاهنا كركي مشوي. هاتوه. فأتوا به وأنا قاعد". ومن عجب أنه هو نفسه قد خطأ هذا الاستعمال ونص على ذلك فى كتابه: "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف" فقال: "ويقولون: 'جيعان' بالياء. والصواب: 'جوعان' بالواو". وفى "تاج العروس" للزبيدي "مادة 'جوع'" (نقرأ ما يلى: "يقال: جاعٌ يَجُوعُ جُوعًا ومَجَاعَةً، فهو جائعٌ وجُوعَانٌ. وجِيعانٌ خطأ. وهي جائعةٌ وجُوعَى، من قومٍ ونِسْوَةٍ جِيعٍ، بالكسر، وجُوعٌ، كركعٍ، وجِيعٌ، على القلب كما فى اللسان". وبهما رُوي قول الحاذرة: ومُجِيشٌ تغلي المَرجَلُ تحته عَجَلْتُ طَبَخْتُهُ لِرَهْطِ جُوعٍ هَكَذَا أَنشَدَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ، وَيُرْوَى: جِيعٌ". فالشعرانى إذن، فى استعماله: "جيعان"، كان يسير على ما درج عليه بعض الكتاب فى العصور المتأخرة.

ومن ذلك الوادى النبيل عند الشعرانى أيضا وصفه لمشاعره حين يقصد بيت أحدهم فى أمر من الأمور فيسمع صاحب الدار بالداخل يأمر أهله أن يقولوا له إنه غير موجود، إذ يقرر صُوقِينَا أن مثل ذلك التصرف لا يكره أبدا. أليس قد قال الله فى كتابه: "وإن قيل لكم: ارجعوا، فارجعوا. هو أذكى لكم؟" ولنستمع إلى ما قاله هو نفسه بقلمه. وأعترف أننى تأملت

للرجل وأكبرته فى ذات الوقت وهو يحكى لنا هذه التجارب المؤلمة ويدافع عن تصرفه فى تلك الظروف دفاعاً أشهد أنه دفاعٌ متحضرٌ رغم أننى لو وجدت نفسى فى موقفه ذلك لتألمت. إلا أن الحقَّ أحقُّ أن يقال ويُتبع رغم أنف العبد لله. قال: "ومما منَّ الله به علىَّ عدمُ تكدُّرى ممن ذهبَ إلى زيارته ولم يأذن لى فى الدخول: من عالمٍ أو أميرٍ أو صالحٍ أو غيرهم، حتى إني لو سمعته يقول من وراء الباب: 'بئس من جاء، أو قولوا له: فلان ما هو هنا، أو ما هو فارغ، أو أغلقوا دونه الباب... أو نحو ذلك' لا أتكدر. وهذا الخلق غريب قل من يتخلق به، وغالب الناس يتكدر. وهو جهل عظيم بالقرآن، فإنه تبارك وتعالى قال، وهو أصدق القائلين: 'وإن قيل لكم: ارجعوا، فارجعوا. هو أزكى لكم'. فشئى شَهِدَ الله سبحانه وتعالى بأنه أزكى للعبد، فكيف يليق به أنه يتكدر إذا حصل ذلك له؟ وبالجملة فلا يحصل هذا الخلق إلا لمن راض نفسه على يد شيخ صادق حتى ذهب رعوته أو حصل له جذبة إلهية، وإلا فمنْ لازمه غالباً التكدر لمن لم يفتح له الباب ولم يجعله. بل بعضهم يخرج فيه شاعراً يهجوهُ فى المجالس، ويصير بعض الجهلة يقول له: 'ما كان ينبغى أن يغلق الباب على مثلك'، ويجعل له الحق على صاحب الدار، فيزداد بذلك غيظاً وحمقاً. ولو أنهم قالوا له: غيظك منه حمق لأن الله تبارك وتعالى قد جعل الأمر إلى صاحب الدار لا إليك. ولو أنه جعل الأمر إليك لكان نهى صاحب الدار عن قوله لك: ارجع. ولعمري إن الزيارة من مثل هؤلاء الرعاع

مذمومة. ولو تركوها لكان أولى لهم وللمرؤور لأنها زيارة لغير الله عز وجل"
(١/ ١٩٠).

ولقد صدق الشعراني في وصف الأمر كله، وكان دقيقا غاية الدقة وهو يتدسس إلى ما يعتري نفس الطارق من مشاعر وما يعلق به الناس من حوله على الأمر. ثم لقد كان راقيا غاية الرقى وهو يعرض حكم القرآن في هذه المسألة ناصحا لنا أن نتخلق بأخلاق القرآن رغم ما درج عليه الناس في مثل هذه الحالة من شعور بالإهانة جرّاء عدم السماح لهم من رب البيت بالدخول. إنها قطعة أدبية رائعة رغم خلوها التام من الاحتقاء الأسلوبى أو التعبير اللغاف الذى نستعمله فى مثل هذا الموقف، إذ لجأ الرجل إلى الصراحة التى تصل إلى حد الألم، واصطنع الأسلوب الغفل الذى لا يعرف شيئا من التزيق أو التلوين على أى وضع من الأوضاع، ومع هذا فإن ما قاله يكتسح القلب اكتساحا. قد يقول قائل إن الشعراني غليظ الإحساس، ولهذا لم يكن يحس بالحرج ولا الكمد. ولن أجادل من يقول ذلك، بل سأفترض أنه صحيح، فما النتيجة من وراء هذا؟ الحق أن النتيجة سوف تبقى نفس النتيجة، وهى شعورى بالتعاطف الشديد معه، رغم أنه ليس بينى وبين الرجل أية صلة شخصية، لكن هناك مع ذلك الصلة الإنسانية العامة التى تنخسنى فى جنبى بل فى قلبى حين أتمثله وهو يسمع ما يقال فى حقه من وراء الباب. أقول هذا موافقا، من باب الجدول ليس إلا، على اتهام الرجل

بغلظ الإحساس، وإلا فحديثه ينفخ بالصدق فى هذا السياق رغم أنى لم أسكت عنه فيما رأيته مؤضعاً للنقد فى شخصيته وسلوكه، بل قلت رأيى بكل صراحة ودون تلجلج أو منححة.

ومن كلام الشعرانى الرائع البديع قوله: "ومما من الله به تبارك وتعالى على كثرة تواضعى وتعظيمى لكل عالم أو فقير زرتُه وتقيلى يده أو رجله بطيبة نفس، ثم لا أرى أنى قمت بواجب حقه على لا سيما أن لى اسما فى المشيخة عندهم، فيقولون: إذا كان الشيخ فلان يقبل رجل شيخنا فذلك دليل على أن شيخنا أعلى منه مقاما، فيزيد اعتقادهم فيه وارتفاعهم به. وكثيرا ما أقبل عتبة باب ذلك الشيخ أو باب زاويته بحضرة تلاميذه إذا دخلتُ وإذا خرجتُ، وهم ينظرون، وإن كان ذلك الشيخ دونى فى مقام المعرفة. وإنما أفعل ذلك مع ذلك الشيخ لعلمى بعكوف أصحابه عليه دونى. ولو أنى كنت أعلمُ منهم أنى لو عظمت نفسى قدّمونى على شيخهم حين علمتُ أنى أعلى مقاما منه ما كنت أقبل رجل ذلك الشيخ ولا عتبة بابه، إذ لا فائدة فيه حينئذ، بل الفائدة الدينية فى أخذهم عنى حينئذ. وإيضاح ذلك أن العارف كلما علا مقامه كلما كان أعرف بتقريب الطريق واختصارها على المريدين. وكل الدعاة إلى الله خُدام لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن رَغِمَ منه أنف ذلك الشيخ الأول. فعلم أنه ليس لنا أن نمدح أنفسنا بالمعرفة ونفضلها على ذلك الشيخ إلا بحقه، وإلا كان ذلك حراما علينا

وغشا للمسلمين" (١/ ٢٠٦). وهذا، والحق يقال، باب من التواضع عظيم حتى لو كانت بعض تفاصيله تثير منا العجب والدهشة. ولو كان الشعراني يصنع هذا من باب المجاملة والسياسة والكياسة لكان أمرا جميلا في كل حال. ذلك أن التواضع والرقعة والسلاسة في التعامل مع الآخرين هو بلا جدال شيء عظيم، ومن شأنه أن ييسر تعامل الناس بعضهم مع بعض ويجعل عجلة الحياة تسير في سهولة ويسر، ودون تعب أعصاب أو أحقاد.

على أن هناك بضع نقاط لغوية أود أن أترث إزاءها قليلا: أولاها تكرير الشعراني كلمة "كلما" مرتين في جملة الشرط: مرة مع فعل الشرط، ومرة مع جوابه، وهو ما لا تعرفه العربية الصحيحة. لقد كنت أظن أن سبب هذا التكرير هو تأثرنا في العصر الحديث بالأسلوب الإنجليزي والفرنسي الذي يكرر "the more" أو "plus" على التوالى (هكذا: The more that changes, the more it's the same thing: Plus ça change, plus c'est la même chose). ولكن ها هو ذا الشعراني، الذي لم يكن يعرف أية لغة أوروبية يكرر "كلما". وقد تكرر هذا الخطأ في قوله: "كلما كثرت الأيدي وأكلوا أطيب الطعام كلما أفرح، عكس البخيل" (١/ ١٧٣).

وثم نقطة أخرى لاحظتها في الكتاب، وتعلق باستعمال "كلما" أيضا، إذ وجدت الشعراني في بعض الأحيان يجعل فعل الشرط لـ "كلما" فعلا مضارعا، وهو ما يستنكره النحويون، إذ يشترطون أن يكون فعلها وجوابها

فعلين ماضيين . ومن ذلك قول عبد الغنى الدقر فى "معجم القواعد العربية" (مادة "كلما") : "كلما: هي كُلُّ دَخَلَتْ عليها 'مَا' الْمَصْدَرِيَّةُ الظَّرْفِيَّةُ وَقِيلَ: 'مَا' نَكْرَةً مَوْصُوفَةً بِمَعْنَى 'وَقْتُ' ، فَأَفَادَتِ التَّكَرَّارَ نَحْوُ: كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقًا قَالُوا: ...' (الآية ٢٥ من سورة البقرة) . ولا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي، وَهِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْفَتْحِ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ . وَالْعَامِلُ فِيهَا جَوَابُهَا، وَهُوَ فِعْلٌ مَاضٍ أَيْضًا" .

والمقصود طبعاً حين يأتى جوابها بعدها، وإلا فمن المقبول جداً أن يقول الواحد منا مثلاً: "أنا دائماً أضربه كلما بكى من غير سبب" . وقد أذكر أن أحد زملائي فى جامعة قطر قد وجدنى استعملت، مرةً فى أحد كتبى، جواب "كلما" مضارعاً، فأنكر على ذلك، وهو ما لم أجادله فيه، وإن كنت نبهته إلى أن "كلما" قد وردت عندى ضمن جملة اعتراضية بحيث يمكن إعراب الفعل المضارع خبراً قبل أن يكون جواب شرط . وكعادتى ذهبت أنقب فى الكتب التراثية لعلنى أعثر على ما يهدينا بشأن هذا الاستعمال، إذ عودتنى الأيام والتجارب أنه ليس كل ما يقال فى التخطئة اللغوية صحيحاً، بل كثيراً ما يتسرع اللغويون وأشباه اللغويين فيخطئون استعمالاً له وجه أو وجوه قوية أو كان العرب يستعملونه دون تخرج، لكن المتطسين لا علم لهم به، فيظنون أن من يستعمله منا الآن مخطئ . المهم أننى وجدت لاستعمال جواب "كلما" فعلاً مضارعاً عدة شواهد، بل عثرت فوق

ذلك على شواهد أخرى تقول إن العرب كانوا يستعملون فعل الشرط أيضا في
جملة "كلما" فعلا مضارعا . فمثلا يقول الشاعر الجاهلي ابن أم حزنة:
خَلا أَنَّهُمْ كُلَّمَا أَوْرَدُوا يُضِيحُ قَعْبًا عَلَيْهِ ذَنْوَبُ

ويقول خفاف بن ندبة السلمي، وهو شاعر مخضرم:
جُلُمُودُ بَصَرٍ إِذَا الْمُنْقَارُ صَادَفَهُ فَلِ الْمُشْرِجِ عُ مِنْهَا كُلَّمَا يَفْعُ

ويقول كعب بن زهير، وهو مخضرم أيضا:
أَلَا لَيْتَ سَلَمَى كُلَّمَا حَانَ ذِكْرُهَا تَبْلَغُهَا عَنِّي الرِّيحُ النَّوَافِحُ

ويقول ليبد بن ربيعة العامري:
نَغْلُوهُمْ كُلَّمَا يَنْمِي لَهُمْ سَلَفٌ بِالْمَشْرِفِيِّ وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ أَمَرُوا

ومن شعراء العصر الإسلامي يقول المَرَار بن منقذ:
صُورَةُ الشَّمْسِ عَلَى صُورَتِهَا كُلَّمَا تَغْرُبُ شَمْسٌ أَوْ تَذُرُّ

* * *

وَكَاْنَا كُلَّمَا نَغْدُو بِهِ نَبْتَغِي الصَّيْدَ بَبَارٍ مُنْكَدِرُ

ويقول الفرزدق الشاعر الأموي المشهور:
إِذَا حَارَبَ الْحَجَّاجُ أَيَّ مُنَافِقٍ عَلَاهُ بِسَيْفٍ كُلَّمَا هَزَّ يَقْطَعُ

ومن الأمويين أيضا يقول الكميت بن زيد:

تَكَادُ الْعُلَاةُ الْجَلْسُ مِنْهُنَّ كَلِمَا تَرْمُرُ تُلْقِي بِالْعَسِيبِ قَذَالَهَا

ويقول الوليد بن يزيد:

لَهَا حَبَبٌ كُلَّمَا صَفَّقَتْ تَرَاهَا كَلْمَةً بَرَقَ يَمَانِي

ويقول جرير:

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوْكَلَّمَا رَفَعُوا لَبِنَ تَجَرَّعُ

ويقول عمر بن أبي ربيعة:

كَلَّمَا تَوَعَّدَنِي تَخْلَفُنِي ثُمَّ تَأْتِي حِينَ تَأْتِي بَعْدُ

ويقول مجنون ليلى:

فَلَوْ كَانَتْ إِذَا احْتَرَقَتْ تَفَانَتْ وَلَكِنْ كُلَّمَا احْتَرَقَتْ تَعُودُ

* * *

وَطَالَ امْتِرَاءُ الشَّوْقِ عَيْنِي كُلَّمَا نَزَفْتُ دُمُوعًا تَسْتَجِدُّ دُمُوعُ

ويقول نصيب بن رباح:

وَكَاثَ رَكَابِي كُلَّمَا جِئْتُ تُتَحِي لَدَيْكَ وَتُنِي بِالرَّضَا حِينَ تَصْدُرُ

ويقول يزيد بن مفرغ الحميري، وكانت جملي تشبه تركيب البيت:

قَدْ جَلَّ قَدْرُ الشَّيْبِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا بَدَتْ شَيْبَةٌ يُعْرِى مِنَ اللَّهِوِ مَرْكَبُ

وأظن أن فيما مر من الشواهد الكفاية وما فوق الكفاية. وعلى هذا فحين يقول الشعرانى مثلاً: "أعطنى المال لآتى لك بالبخور الذى يبطل الموانع لتصير تبخر به كلما تأخذ لك منه شيئاً" (٥٤ / ١)، "صار كلما يلوح لى بارقة من حضوره تذهب لوقتها" (١٦٩ / ١)، و"كلما كثرت الأيدي وأكلوا أطايب الطعام كلما أفرح، عكس البخيل" (١٧٣ / ١) فهو لا يفتزع شيئاً من عنده، بل له شواهد من الشعر القديم. ومع هذا فإننى بوجه عام لا أستريح فى هذه الحالة إلى الخروج على التركيب الغالب، وإن كنت لا أخطئه. كذلك لا يصح أن ننسى ما يصنعه الشعر من التغطية بحلاوة موسيقاه على ما لا يحسن من التراكيب، وهو ما لا يتوفر للنثر كما هو حال الشعرانى، فضلاً عن أننا لا نؤاخذ الشاعر بنفس الشدة التى نؤاخذ بها الناثر لمعرفتنا أن الشاعر لا يمشى مشياً طبيعياً بل يحجل فى القيود، ومن ثم كان لا بد من التسامح معه بما لا تسامح فيه مع كتاب النثر. أى أن الشعر هو السبب فى خروج الشاعر على ما هو متعارف عليه، أو على الأقل: على ما هو شائع، وهو أيضاً السبب فى أننا نغفر له هذا الخروج. وهى إحدى مفارقات الإبداع، أو فلنقل: إحدى مفارقات الحياة. ولعله من المفيد أن أقول إن زميلى، وهو أستاذ سورى، ما إن سمع منى الشواهد التى تنقض ما كان يظنه صحيحاً لا شبهة فيه حتى فاء إلى الرضا فى التواللظة قائلاً: 'لقد قطعتُ جَهِيْزَةً قَوْلَ كُلِّ خطيبٍ، وهو ما سرنى جداً لأن هذا هو الموقف الذى ينبغى أن

يتخذ العلماء، لا العناد وركوب الرأس بالباطل كما يقع للأسف من بعض العلماء الآخرين.

وثم شيء آخر فى جملة الشعرانى المتقدمة، ألا وهو قوله: "تصير تبخر به" حيث جعل خبر "تصير" المضارع فعلا مضارعاً، وهو ما لا أذكر أنى قابلته فى الشعر أو النثر القديم. أقول: "لا أذكر" فقط ليس إلا، ومعروف أن الذاكرة كثيراً ما تعبت عبثاً مزعجاً بل مهيناً لصاحبها. وأتصور أن الخبر عادة ما يأتى فى مثل هذا الموضع اسم فاعل: "تصير مبخر بها" أو تتغير الجملة كلها لتكون على النحو التالى مثلاً: "لتأخذ فى التبخير بها"، أما لو كان الفعل الناسخ ماضياً فيمكن فى هذه الحالة أن نقول بكل بساطة: "صرت تبخر به". ولست أقول إن هذا الذى فعله الشعرانى خطأ، بل أقول فقط إنه غريب لأننى لست أذكر أنى قابلته من قبل. وهذا كل ما هنالك. وقد تكرر هذا التركيب عند الشعرانى، ومنه قوله: "ثم يصير يُسمعه الكلام الجافى حتى يسافر بلا حسنة" (١/ ١٣٥)، "وتصير تتسخط وتقول: اللهم أرحنا من هذه العيشة" (١/ ١٥٠)، "فيصير يخالفنا فى الشفاعات" (١/ ١٦٨)، "ويصير بعض الجهلة يقول له: . . ." (١/ ١٩١)، "فأصير أنا وهو فى حرب عظيم، وآخر الأمر أفارقه، ويصير هو يُنكر على" (٢/ ١٨٤)، "ثم هم بعد ذلك على قسمين: إما أن الشيخ يطعمهم من الصدقات والأوساخ فيتلف بواطنهم، وإما أن يصيروا يسألون الناس" (٢/ ٣٦). ومثل ذلك أفعال

الشروع، إذ لا أذكر أنني قابلتها عند القدماء أو عند كبار الكتاب والشعراء
الحدثين بصيغة المضارعة. ومن ثم فمن السهل علينا أن نقول مثلاً: "أخذ
محمد يدافع عن نفسه"، ولكن لا نقول عادة: "يأخذ محمد يدافع عن نفسه".
وبالمثل يعجبني قول الشعراني إن من الخطأ الحكم على طائفة من
الطوائف بناء على شخص واحد أو مجموعة واحدة منها، فإن تعميم الحكم
مزلق خطر، ويكرهه الله سبحانه. وهذا مبدأ عظيم من مبادئ العلم، وإن
كما كلنا تقريباً إذا ما كتبنا أو تحدثنا نسينا هذا التحفظ فعممنا الحكم.
وكثيراً ما أُنبيه لهذا أو ينبهني إليه بعضهم فأعذر بأنني لا أقصد أن هذا
العيب الذي أكون بصدد الإنكار على مرتكبيه موجود في كل شخص من
الطائفة أو الأمة التي أتكلم عنها، بل على التغليب لا أكثر، وهو ما ينبغي أن
يفهمه السامع دون أن أنصّ عليه نصّاً.

كذلك ينبهنا الشعراني إلى مبدأ مهم غاية الأهمية، وهو أن الباطل باطل
في ذاته حتى لو وقعت معجزة يستعين بها صاحبها على إقناعنا بأنه حق.
يقول الشعراني: "ومما من الله تبارك وتعالى به على حسن ظني في الطوائف
المنتسبين إلى طريق الفقهاء عموماً كالأحمدية والبرهانية والرافعية والمطاوعة
بالشرقية والصعيد، ولا أحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة
بحكم الإشاعة عن أهل خرقته، فقد يكون ذلك الشخص على نعت
الاستقامة دون غيره، وإنما أحكم عليه إذا شاهدته يخالف السنة وقامت

بذلك عندي بيئة عادلة، فإن كل طائفة من هؤلاء فيها غالبا الجيد والردىء،
والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جَوْرٌ وتهوُّرٌ غالبا . ولم يزل الناس
يستقنون على طائفة المطاوعة ونحوهم، فينبغى للمفتى أن يخلص عبارته
ليخلص ذمته، ويقول: 'إن كان من ذكرٍ يعتقد كذا وكذا فهو فاسق مثلاً أو
مبتدع'، وذلك لأن فيهم الصالح والولى . وتقدم فى هذه "المنز" عن سيدى
على البدوى تلميذ سيدى أبى العباس المرسى أنه قال: 'دخلت زاوية
القلندرية فرأيت منهم فعلاً تخالف ظاهر الشرع فأنكرت عليهم، فرفعت
رأسى، وإذا بشخص مترجع فى الهواء يقول لى: "تنكر على القلندرية وأنا
منهم؟"، قال: فتركت الإنكار' . ويحتاج من يترك الإنكار بمثل ذلك إلى علم
وافر يفرق به بين الولى والشيطان، فربما كان ذلك المترجع فى الهواء شيطانا
فيحصل لذلك الذى ترك الإنكار التلبس فى دينه، ويفوته الأجر المترتب على
ذلك الإنكار . فإياك يا أخى أن تحكم بالبدعة على من نسب إلى المطاوعة
مثلاً بمجرد كونه معدوداً منهم، فقد تعدّ الناس فيهم من ليس منهم ممن تزياً
بزيهم . وإياك أن تسلّم للمبتدعين أحوالهم رعاية أن يكون لهم شبهة صحيحة،
بل دُرْ مع ما عليه أهل السنة والجماعة حيث كان، وأحمِ سمعك وبصرك،
وامش على نور السنة" (١٨ / ٢) . ولعل القارئ تنبه إلى قول الشعرائى:
"يخلص ذمته"، ذلك التعبير المصرى الصميم الذى يشير إلى توخى الإنسان
قول الحق أو فعله، وهو ما يعبر عنه فى الفصحى بـ "إبراء الذمة" .

إلا أن ذلك كله كوم، واعتقاد الشعراني بإمكان تربع شخص فى الهواء شىء آخر من شأنه أن يُفسد الأمر برُمته، إذ هو كلام غير علمى بالمرّة. ومع هذا فقد كان الشعراني يعتقد تمام الاعتقاد فى مثل هذه المعجزات التى يسميها الصوفية: "كرامات" ليهربوا من اتهام الناس لهم بأنهم يسوون أنفسهم بالأنبياء. ومن ذلك قوله (١١٨ / ٢): ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على رؤية شخص من الثقات الأئمة المباركين الاثنى عشر من أهل البيت وقد دخلوا مصر، فقال لهم: ما أتى بكم إلى مصر فى هذه الأيام؟ فقالوا: جئنا نزور الشيخ عبد الوهاب الشعراني، فإننا لا نعلم أحدا فى مصر يحبنا كمحبته. قال الرائي: ولم أر على وجه الأرض أحدا أنور وجهها منهم ولا أحسن ثيابا ولا أحسن رائحة، فإن وجوههم كالأقمار. قال: ورأيت أمامهم الإمام على بن أبى طالب، ويليهِ الحسن والحسين، ويليهِم الإمام زين العابدين، ثم محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم موسى الكاظم، ثم على الرضا، ثم محمد التقي، ثم حسن العسكري، ثم محمد المهدي الظاهر فى آخر الزمان رضى الله عنهم أجمعين. فما سررتُ بعد رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا بمثل هذه الواقعة، فإنه دليل على أن أهل البيت كله يحبونى ويأخذون بيدي فى عرصات القيامة، فإنهم لا يفارقون جدّهم صلى الله عليه وسلم. ومن كان فى زمرة الحبيب الشفيع المشفع سيد المرسلين على الإطلاق لا يغشاه كرب إن شاء الله تعالى. وليس لى من تعقيب على هذا النص إلا كلمة واحدة

هى: ما دام الأئمة الاثنا عشر قد أتوا لزيارة الشعرانى، فكيف لم يزوروه بعد أن تجشموا كل هذا التجشم فى سبيل تلك الزيارة من قيام من القبور وتجمع فى نقطة انطلاق واحدة وانتقال إلى القاهرة، واكتفوا بأن رآهم أحد الثقات الذى حكى الموضوع للشعرانى مجرد حكاية؟ أليس معنى هذا، حتى لو صدقنا بوقوع الحادثة، أن الكلام كله فاشوش؟

ومن المضحك الذى يغيب أن بعض الكتاب فى عصرنا يرددون ما يقوله الشعرانى عن الكرامات التى وقعت له معتقدين وقوعها، ومنهم مثلاً عبد الحفيظ فرغلى على القرنى، إذ كرر فى كتابه عن الشعرانى أكثر من مرة تكرير المصدق أن الشعرانى، لما ترقى فى معراج الروحانية، كان يطير من سطح مسجد الغمري بالقاهرة إلى سطح بيته (انظر كتابه: "الشعرانى إمام القرن العاشر" / الهيئة المصرية العامة للكتاب / سلسلة "أعلام العرب" / العدد ١١٦ / ٤٨، ٥٢). الله أكبر! هل هذا معقول؟ لكن الأستاذ القرنى يؤكد أن الكرامات قد أيدها العقل والنقل (المرجع السابق / ١٠٠). وأنا لا أحب الجدل فيما يمكن أن نحسمه على أرض الواقع، التى هى أفضل من ملايين المجادلات، وأقول دائماً لمن يزعم وقوع الكرامات منه أو من غيره: لماذا لا يستخدم أصحاب الكرامات كراماتهم فيما يفيد الأمة بدلاً من تلك الأشياء التى لا تقدم ولا تؤخر؟ هاكم إسرائيل مثلاً، فأرونا كراماتكم فى هزيمتها وإزالتها مراغمةً للكفار الذين أرونا عجائب قدرتهم العلمية والسياسية

والعسكرية فى إقامتها والحفاظ عليها حتى الآن وسط مئات الملايين من المسلمين، والمسلمون بحمد الله فيهم من أهل الطريق أصحاب الكرامات هذه الأيام ما يكفى لأداء هذه المهمة الجليلة وزيادة! ونترك لهم تدبير الوسيلة التى يزيلونها بها: دعاءً ضدها، أو نقلاً تجاهها، أو نقلاً عليها، أو تراباً يحثونه فى وجوه أهلها، أو أى شىء آخر مما يرون أنه كفيل بأداء تلك المهمة المهمة! ثم إن للصوفيين عند أمريكا لمنزلة، وأى منزلة! فلم لا يستغلونها لتنفيذ هذا الأمر الذى عى به العرب والمسلمون أجمعون، وحاق بهم من جرائم الكوارث التى لم تكن تخطر لهم على بال. وقد تستجيب أمريكا لهم فتكفيهم الدعاء والنفت والتقل وحث التراب، وكفى الله المتصوفين القتال!

ومع مناداة الشعرانى، كما رأينا قبل قليل، بضرورة توقي التعميم فى الحكم وتأكيده أن مما من الله تبارك وتعالى به عليه حُسن ظنه فى الطوائف المنتسبة إلى طريق الفقراء عموماً كالأحمدية والبرهامية والرافعية والمطاوعة بالشرقية والصعيد بحيث لا يحكم على أحد منهم بخروجه عن الشريعة المطهرة بحكم الإشاعة عن أهل خرقة، إذ قد يكون ذلك الشخص على نعت الاستقامة دون غيره، وإنما يحكم عليه إذا شاهده يخالف السنة وقامت بذلك عنده بينة عادلة، فإن كل طائفة من هؤلاء فيها غالباً الجيد والردىء، والحكم على جميع الطائفة بحكم واحد جورٌ وتهورٌ غالباً، أقول إنه مع مناداته بهذا يفعل أحياناً عكس ما يقول عكساً شديداً، إذ يذكر د. توفيق الطويل

أنه "كان يتهجم فى بعض الأحيان عن غير حيطة وحذر، فنراه يصرح بأن الملامية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على شريعة الله لأن أفعالهم يكذبها طريق شيوخهم من الصدق والزهد وصحيح الكرامات والتقيد بظاهر الكتاب والسنة" (د. توفيق الطويل/ الشعرانى إمام التصوف فى عصره/ ٦٩ - ٧٠).

لكن حرص الشعرانى على أن يكون لكل واحد من أهل الطريق حرفة يعيش منها وكراهيته للبطالة هو أمر يدل على وعى بالحياة وطبيعتها وأنها تقوم على الإنتاج والإبداع لا على الكسل والبلادة وسقوط الهمة وانتظار الطعام والشراب واللباس من الآخرين. وهو بهذا الكلام يجرى على سنة الإسلام، التى تكره السؤال والعيش عالة على الآخرين: "ومما من الله تبارك وتعالى به على حث كل من يجتمع بى من الإخوان على الاشتغال بالحرف والصنائع وعلى دوام إقامتهم فيها إن كانوا من أهل الحرف قبل اجتماعهم بى. وهذا الخلق قليل من يتنبه له من متصوفة الزمان، بل يزينون لمن يجتمع بهم ترك الاشتغال بالحرفة والاشتغال بأحزابهم وأورادهم. ثم هم بعد ذلك على قسمين: إما أن الشيخ يطعمهم من الصدقات والأوساخ فيتلف بواطنهم، وإما أن يصيروا يسألون الناس. وبعضهم يأمر المريد أن يخلى دكانه ويُعرض عن الدنيا فينفقه ثم يطلب دكانا بخلوة فلا يجده. فبعد أن كان يطعم الناس صار الناس يطعمونه، وبعد أن كان يعطى السائلين صار هو يسأل الناس. وقد وقع

لبعض إخواننا أنه أخلى دكانه وترك البيع والشراء وصار يذكر الله تعالى ويأكل من هدايا الظلمة والعمال وغيرهم، فقال له سيدي أفضل الدين رحمه الله تعالى: 'يا أخى، النصيح من الإيمان، وإنك لم تُخلق شيخاً، فارجع إلى دكانك واشتغل بذكر الله تعالى مع الحرفة'، فلم يسمع أبداً، فكشف الله تبارك وتعالى حال ذلك الفقير بعد شهر، وما بقيت نفسه بعد المشيخة تنكيس لعمل الحرفة، فكان كمن تولى مشيخة الإسلام ثم عُزل، فما بقى يعمل نائباً ولا شاهداً. وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله تعالى يقول: 'حكم الفقير الذى لا حرفة له حكم البومة الساكنة فى الخراب ليس فيها نفع لأحد'. ولما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة لم يأمر أحداً من أصحابه بترك الحرفة التى بيده، بل أقرهم على حرفهم وأمرهم بالنصح فيها. وكان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول: 'الكامل هو من يسلك الناس وهم فى حرفهم لأنه ما من سبب مشروع إلا وهو مقرب للعبد من حضرة الله عز وجل، وإنما يُبعد الناس من الحضرة الإلهية عدم إصلاح نيتهم فى ذلك الأمر سواء العلم والعمل وسائر الحرف المشروعة'. وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول: 'إنما يستلذ بالبطالة وتعطيل السبب من فسد حاله وقلّت مروءته، فأثر الدعة والراحة وتجمّل لهذا الخلق وانتظرهم أن ينفقوا عليه كالنساء. ولو كان عند هذا بعض مروءة لقدم مرارة السبب والمشقة على حلاوة التلذذ بالمأكل والمشرب والملبس من صدقات الناس'

(٣٧ - ٣٦ / ٢) . وما قاله عن إقرار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه على حرفهم وأشغالهم يذكرنا على سبيل التضاد بما فعله السيد المسيح، حسبما يخبرنا العهد الجديد، من أمره لبعض حواريه أن يتركوا حرفهم ويتبعوه .

ويعجبني جدا إقرار الشعراني أنه لم يصل قط إلى حد الكمال . ولعل القارئ يقول: وما العجب في هذا، ونحن نعرف أن أحدا من البشر لا يمكن أن يبلغ الكمال؟ فأقول له: إن للصوفية دعاوى طويلة عريضة في هذا الشأن . فحين نرى واحدا كالشعراني يقول إنه لم يبلغ قط درجة الكمال فهذا أمر طيب جدا: "ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على عدم شهودي الكمال في مقام إسلامي أو إيماني أو إحساني . فإن من شرط المسلم الكامل أن يسلم المسلمون من لسانه ويده، ومن شرط المؤمن الكامل أن يكون الغائب عنده فيما توعدده الله به أو وعده كالحاضر على حد سواء . ومن شرط المحسن أن يعبد الله كأنه يراه على الدوام لا في وقت دون وقت . وأنى لمثلي أن يكون بهذه الصفة؟ وقد سألت مرة فقيرا: لِمَ لَمْ تَكُ تأخذ عن فلان؟ وذكرت له واحدا من مشايخ هذا الزمان، فأبى، فقلت له: لأي شيء؟ فقال: لأن شرط المسلم أن يسلم المسلمون من لسانه ويده، وهذا لم يسلم أولاد شيخه من لسانه ويده، فكيف بغيرهم؟ وإذا كان هذا لم يحصل الكمال في أول المراتب، فكيف يدعى دخول حضرة الله تعالى؟" (٣٧ / ٢) .

وللشعرانى فى كتابه: "لطائف المنن والأخلاق" كلام عن أسلوبه فى التعامل كله بساطة وتلقائية تبلغ حد السذاجة حتى ليستبعد الإنسان استبعاداً أن يكون قد زوّق الحديث: "وما أنعم الله تبارك وتعالى به على كثرة صبرى على زوجتى وجارىتى إذا مرضت. ولا أستنكف من أن أمسح ما تحتها من القاذورات إذا عجزت عن الذهاب إلى بيت الخلاء أو الجلوس على الطشت مثلاً كما كانت تفعل معى إذا مرضت. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وإن طال مرضها واحتجت إلى التزوج لم أتزوج عليها لئلا أجمع بذلك عليها مرضين: حسياً ومعنوياً. وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنة لهيجان الشهوة إلى وقت شفاء زوجتى أو موتها، كل ذلك قياماً بحق الصحبة ولو ليلة واحدة، وشفقةً على خلق الله تعالى، وليعاملنى الله تعالى بمثل ما أصنع معها إذا مرضت. قال تعالى: "مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ". وإذا مرضت ومعها طفل صغير حملته عنها فى المرض وداعبته ولاهيته حتى يسكت، وأسهر لأجله الليلة كاملة كما أسهر كذلك لأجلها، ولا سيما إن كان الولد ربيبى كما فرضت ذلك، وإن لم يقع لى. فإنى إن أعطيته لوالده إذا كان حياً حصل لأمه الضرر، ولا يمكنه أن يدخل بيتى يداعب ولده، وأمّه فى عصمة غيره. وهذا الأمر قل من يفعله مع ربيب، بل يدعو عليه ويتمنى موته، ويقول: اللهم ارحمنا منه" (٢/ ٢٢). وكما يرى القارئ فإن الشعرانى ينزل هنا إلى أرض الواقع فى ذكر التفاصيل لا يتخرج من شىء

على الإطلاق رغم ما فى الموضوع من حرج شديد، فى الوقت الذى يرتفع فيه إلى سماء المثالية عند الكلام عما ينبغى وما لا ينبغى من التصرفات فى هذا الموقف أو ذاك. وهوىستعمل كلمة "الطشت" بالشين كما يفعل المصريون فى حديثهم اليومى لا "الطُسْتُ" كما نجد لها عادةً فى كتب التراث، وإن كان بعض اللغويين يقولون إنها كلمة أعجمية كانت فى الأصل بالشين، ثم انقلبت الشين سينا، إلى جانب لغويين آخرين يرون أن نطقها بالشين خطأ (انظر مادة "ط س ت" فى "تاج العروس" مثلاً).

هذا ما قاله الشعرانى عن كراهيته إدخال الحزن على قلب زوجته بالزواج عليها من امرأة أخرى حتى لو كانت مريضة بمرض يمنعها من إعطائه حقوقه الزوجية فى الفراش. ومع هذا نجده يتحدث فى موضع آخر من الكتاب (٣٢ / ٢) عن "زوجات" له. ونص كلامه هو: "ومما من الله تبارك وتعالى به على حفظ زوجاتى من حضور الأعراس التى لا ينضبط أصحابها على القوانين الشرعية بل يخالطونها بعدة محرمات كضرب الآلات والمحبتين الذين يحكون الحكايات السخریات مع اختلاط الرجال بالنساء ومع عدم التورع من كل من الفريقين عن الوقوع فيما لا ينبغى...". فهل كانت له أكثر من زوجة؟ أم هل يتحدث عن زوجات تزوجهن واحدة بعد واحدة كلما ماتت له زوجة؟ نقرأ فى الصفحة الثامنة عشرة من الجزء الأول من الكتاب أنه تزوج أربعاً على التعاقب، أى أنه لم يجمع على ذمته فى أى وقت من

الأوقات أكثر من زوجة. وهُنَّ طبقاً لما ذكره فى كتابنا الحالى (٢/ ١٥٩):
زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن. وقد نقل عبدالحفيظ فرغلى على القرنى
أسماءهن فى كتابه عن الشعرانى، (ص ٥٤).

كذلك يلفت انتباهنا أن الشعرانى يدعو إلى عدم مشاورة الزوجة
لسببين: الأول أن كلا من الزوجين يحب الآخر حباً شديداً، والحب لا يصلح
للمشاوره لأن حبه لمن يشاروه يجعله يبحث عما يسره لا عما يصلح أمره.
والثانى ذهاب عقل المرأة من أصله كما يقول (٢/ ٤٤). ليس ذلك فقط، بل
إنه، فى موضع آخر من الكتاب وبعد كلام له فى هذا الاتجاه، ينقل عن أخيه
نقل الموافق المصدق أن "مَنْ أَكْثَرَ مِنْ مَجَالَسَةِ النِّسَاءِ فَسَدَ عَقْلُهُ، وَمُنَعَ مِنْ
الحكمة، وفاته الفضائل" (٢/ ١١٨). وفى هذا الكلام ما يكمل رؤيتنا
لموقفه من زوجته، التى كتبت أظن أن لها وضعاً أفضل من هذا فى حياته.
ولست أوافق فى كل ما قاله بخصوص مشاورة النساء، فكثيراً ما أشارت
الزوجة على زوجها بما يفيد ويقيه المتاعب والمعاطب، وفى ذات الوقت
كثيراً ما نراها تشير عليه بما يزعجه ويعقد المشاكل بدلاً من حلها. ولكن هل
الرجال أفضل من النساء كثيراً فى هذا المضمار؟

وبالمناسبة نراه يستعمل فى هذا السياق كلمة "بَسَطَ" بمعنى "سَرَّ"،
وهو استعمال مصرى صميم. وواضح أنه يعود على الأقل إلى ذلك التاريخ،
وليس استعمالاً محدثاً. ومثله استعمال الرجل كلمة "عِيَال" كناية عن

زوجته أو زوجاته فى كل من الموضعين السابقين . وبالمناسبة أيضا فقد رأيته، فى هذا السياق نفسه، يستعمل التركيب التالى: "لأن محبة الزوجين لبعضهما بعضا فى الغالب محبة طبع وشهوة". وهو تركيب لا تعرفه العربية، إذ ليس هناك أى وجه لنصب كلمة "بعضا"، اللهم إلا إذا قيل إن الطّباع قد أخطأ وإن أصل الكلام هو: "لأن محبة الزوجين بعضهما بعضا". هذا من ناحية الإعراب وتصويبه، لكن هل يصح أن نستخدم فى هذا السياق كلمة "بعض" بدلا من أن نقول مثلا: "لأن محبة كلا الزوجين للآخر...". ؟ ذلك أن "بعض" فى الجملة الحالية إنما تشير إلى شخصٍ فردٍ لا إلى جماعة من الناس. وهذا يذكرنى على نحو ما بما يدعو إليه المدققون اللغويون فى لغة چونبول، إذ يفرقون بين "each other" و "one another"، فعلى سبيل المثال نقرأ فى ط٢٠٠٥م من معجم "مريام ووبستر" (Merriam-Webster Collegiate® Dictionary)، تحت عنوان "each other"، ما يلى: "each of two or more in reciprocal action or relation "looked at *each other* in surprise". Some handbooks and textbooks recommend that *each other* be restricted to reference to two and *one another* to reference to three or more. The distinction, while neat, is not observed in actual usage. *Each other* and *one another* are used interchangeably by good writers and have been since at least the 16th century". لكن ذلك لا يمنعنى القول بأن فى أسلوب الشعرانى سلاسة وتلقائية وحيوية عجيبة

واقترابا من لغة الحديث مع المحافظة على صواب اللغة نحوا وصرفا ومعجما، اللهم إلا هذه الهنات القليلة بل النادرة. وهو، رغم تلك الهنات التي لا تعد شيئا يُذكر لو قارناه بأساليب معظم كتاب عصرنا من المشاهير الذين تطن أسماؤهم في كل الأنحاء، أسلوب ممتع متعة كبيرة.

لكن من المستغرب أن يكره الشعراني الغناء وسماعه، مع أن الصوفية مشهورون بالترخص في هذا الباب، فالمعروف عنهم أنهم مشغوفون بالسماع والغناء. وكان ابن الفارض، كما رأينا، يحب ذلك، وللغزالي بحث طويل في ذلك الموضوع يحلل فيه الغناء والاستماع إليه بشرط ألا يكون فيه شيء محرّم. ولهذا قلت إنني أستغرب هذا الموقف من الشعراني. قال: "وما أنعم الله تبارك وتعالى به على كراهة سماعي للغناء على الآلات المطربة من حين كنت صبيا، عملاً بنهي الشارع صلى الله عليه وسلم عن ذلك. فلما بلغت ودخلت طريق محبة الفقراء ازدادت في هذا نفرة، اتهاما لنفسى أنها تسمع ذلك فيؤثر فيها غفلة عن الله تعالى وعن الذكر والصلاة مع أن النهي عن شيء إذا ثبت عن الشارع صلى الله عليه وسلم لا يتوقف اجتنابه على معرفة علته. وهذا أسلم ممن سمع ذلك وجعل علة التحريم هو الغفلة عن ذكر الله وعن الصلاة، وإن لم يحصل من ذلك غفلة فلا بأس به في حقه. وتقل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والفقهاء والصوفية ذكرهم الشيخ أبو المواهب الشاذلي في كتاب له في ذلك. قلت: وجمهور

الحقّيقين على خلافه إلا بشرطه لأن الله تعالى لا ينهى عن شىء على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ويبّحه بشرطه إلا ويصير المتعاطى له ممن لم يتصف بالعصمة على خطر. ويمكن عدم صحة ذلك للصحابة رضى الله عنهم. والكُمّل أبعد عن مواطن الرّيب من غيرهم. وروى أبو عبد الله الحاكم مرفوعاً: "لله أشدُّ أذناً إلى الرجل الحَسَن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته". قال بعضهم: ففى هذا الحديث إباحة سماع الغناء لأن سماع الله لا يجوز أن يقاس على محرم. قال: وهو حديث صحيح على شرط الشيخين. وخرج بـ"قَيْنَتَه" قَيْنَةً غيره، فلا ينبغى سماعها، بل ربما حرم ذلك كما وردت به الأحاديث فيمن خسف الله بهم الأرض لما سمعوا القينات. وبالجملة فقد استقرّ ظاهر المذاهب الأربعة على الفتوى بالتحريم فى نحو العود إلا بشرطه عند بعضهم. فليس لمقلد أن يخالفهم ويسمع العود أو نحوه أبداً" (٢/ ١٧ - ١٨).

وقد عاد الشعرانى إلى إبداء رأيه فى الغناء مرة أخرى عند حديثه عن منع زوجاته من حضور ولائم الأعراس إذا كان فيها غناء أو محبّطون (٢/ ٣٢)، والمقصود بالمحبّطين الممثلون الهزليون، وإن كان الطّباع قد كتبها: "المخبطون". وقد وردت كلمة "المحبّطين" فى كتاب آخر للشعرانى هو كتاب "الطبقات الكبرى"، إذ كتب فى ترجمته للشيخ محمد بن أبى جمره أنه "كان يقول: إياكم والإنكار على الناس فيما يحتمل التأويل، فإنى رأيت فقيهاً أنكر

على فقير صنعة الخيال مع المحبطين، فأخرج الفقير للفقير بابا في الخيال وأجلس الفقيه على مكان، وجاء الفيل فلفه بزلمته، وضرب به الأرض فمات". و"الخيال" هو فن التمثيل عند العرب، و"الباب" هو التمثيلية.

وهناك أشياء في الكتاب تجمع بين الغث والبديع في جديدة واحدة. فمن هذا قول الشعراني: "ومما من الله به على حضور قلبي مع الله تبارك وتعالى حال أكلى وشربى. وشهودى ذلك من فضل الله تعالى على لا أستحق ذرة منه، بل لا أقوم بواجب حقه تبارك وتعالى على لو سفت الرماذ. ثم إذا وقع لى أنى أكلت غافلا عن ذلك المشهد أو شربت استغفرت الله تبارك وتعالى حتى يغلب على ظنى أن الله تبارك وتعالى قبل استغفارى فضلا منه. وإنما لم أقل: أستغفر الله مرة فقط لأن مثلنا ربما لا يقع له حضور فى استغفاره إلا بعد سبعين مرة وأكثر. وسمعت سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه يقول: ما أسبغ الله تعالى علينا النعم بالأصالة ليمكر بنا، وإنما أسبغها علينا ليجمع قلوبنا عليه ولا نخرج من حضرته تبارك وتعالى إلا لعذر شرعى. وكان الحق تبارك وتعالى يقول: من كنت كافيه عن الحرف والصنائع التى تحجبه عنى بما سخرته له من الرزق على يد عبادى من حيث لا يحتسب ولا تستشرف نفسه إليه، فلائى شىء يخرج من حضرتى؟" (١/١٨٩).

أما البديع فذلك الشعور من قَبْلِ الشعراني بالمنة الإلهية وعدم هناء الأكل أو الشرب له إلا بتذكر الله صاحب تلك المنن وشكره عليها واستغفاره إياه إن نسى أن يفعل ذلك . وهو شعور نبيل يليق بالكبار من عباد الله . أقصد كبار النفس والروح، فهؤلاء لا يَنسَوْنَ ربهم فى غمرة استمتاعهم بالنعمة مهما كانت صغيرة . أما ما لا يعجبني فى النص فهو إشارته إلى أنه هو وأمثاله لا يَكْدُون وراء لقمة العيش، بل يعتمدون على ما يحمله إليهم غيرهم من طعام وشراب ومسكن وكساء لقاء تفرغهم للعبادة، ناسيا أن الجرى على المعاش هو أفضل ألوان العبادة، وأن هناك من الذنوب ذنوبا لا تكفرها صلاة ولا صيام، بل يكفرها الهموم فى طلب العيش كما قال الرسول الكريم فى إحدى دُرَرِهِ العبقريّة، وأن الذى يمد يده بالعطاء أفضل ممن يد يده بالأخذ، فاليد العليا خير من اليد السفلى . ومعلوم أن الرسول لم يكن يحب قط أن يعيش بعض الناس عائلة على بعض، بل يريد أن يكد كل منا ويكسب قوته وقوت أولاده بنفسه حتى يكون المجتمع المسلم مجتمعا قويا صلبا عزيزا كريما كل أفرادهِ منتجون مبدعون يحرص كل منهم على أن تكون يده دائما هى اليد الباذلة المعطية .

وقد التفت د . زكى مبارك إلى جانب مهم جدا فى كتاب الشعراني، وهو ما فيه من لحات قوية إلى بعض جوانب المجتمع المصرى أوانذك، أى فى القرن العاشر الهجرى . فعلى سبيل المثال نجد الشعراني يتحدث عن زاويته

وما يوجد فيها من الخيرات التى ينعم بها نزلاؤها من المتصوفة ومدعى التصوف دون أن يتعبوا فى سبيل ذلك قليلاً أو كثيراً . ولم التعب ما دام غيرهم يوافيهم بكل ما لذ وطاب من الأطعمة والمشروبات والملابس؟ وهنا نجد الشعرانى يتحدث عن "كثرة وجود الرزق عندى فى الزاوية حتى إنه يفيض عن أهلها وأهلى منه إلى الأصحاب فى دورهم من أرز وعسل ودجاج وأوز وغير ذلك"، فضلاً عن تفرقه على نزلاء زاويته ما يأتيه من مال، وإيوائه بضع عشرات من العميان وتزويجه نحو أربعين مجاوراً . ذلك أنه كان يأتيه فى العام الواحد نحو عشرة قناطير من عسل النحل (ويسميه: "العسل النحل" كما نقول فى مصر عادة، وكان "النحل" صفة لـ "العسل" لا مضافاً إليه)، ونحو خمسة عشر قنطاراً من العسل الأسود، ومن القمح نحو ثلاثمائة أردب، ومن البطيخ الهندى (ولا أدرى ما البطيخ الهندى) نحو ألفى حبة . . . " (١/ ١٨ - ١٩) . وأظن أن القارئ بدأ يرقه يتحلب مثلى وأنا أطلع أسماء هذه الأطعمة اللذيذة! . وقد فصل د . توفيق الطويل القول بعض التفصيل فى الحديث عن زاوية الشعرانى وبُلهنية العيش التى كان ينعم بها المجاورون فيها فى الوقت الذى كان أهل مصر من فلاحين وتجار وصناعية يقاسون المشقة والحرمان والظلم على أيدي رجال الدولة . وهو يتساءل بحق: كيف يستقيم هذا التمتع العميم مع ما يدعيه المتصوفة من زهد فى الدنيا ورضا بالقليل؟ ثم يحاول أن يفسر الأمر بأن الشعرانى قد يكون

أراد من وراء التوسعة على فقراء زاويته أن يجذبهم إليها، حتى إذا ما اطمأن بهم المقام أخذهم بالزهد تدريجياً وارتقى بهم فى مدارج الكمال (انظر كتابه: "الشعرانى إمام التصوف فى عصره" / ٢٦ - ٣٥). لكن هذا توجيه غير مقنع، إذ إنهم يظلون فى الزاوية لا يرحونها آكلين شاربين متزوجين ساكنين دون أن يتجشموا مليماً واحداً. وبالله من يكره ذلك؟ وتالله أين الزهد فى هذا؟ إن الزاهد الحقيقى هو الذى يكد ويكدح ولا يمد يده إلى أحد لينال الدنيا دون تعب، وكذلك هو الذى يخرج من بعض ماله وينفقه على المحتاجين العاجزين عن الكسب. أما من يُخلد إلى زاوية الشعرانى وأمثالها فهو قابض على الدنيا بيد وأظفار من فولاذ. وليس الزهد بالمزاعم، وإلا فكل الناس زاهدون.

وبالمثل نجد الشعرانى يتحدث عن مشايخ الأعراب والأرياف وما كان لهم من سيطرة على القرى فى ذلك الوقت، إذ كان الفلاحون يعملون لهم الولائم التى يحضرها علماء الدين. وقد تغنى الشعرانى بتعففه عن حضور تلك الولائم قائلاً إن زوجة صاحب الوليمة "ربما عجنت وخبزت وطبخت فى اليوم مرتين، وتصير تسسخت وتقول: 'اللهم أرحنا من هذه العيشة'. وربما أكرهها زوجها على ذلك وضربها بالعصا ضرباً مبرحاً". وهوى ذكر أن بعض المشايخ كان يدور فى البلاد، ومعهم مريدوهم وأتباعهم، مرهقين بذلك الفلاحين أيماً إرهاق، وأن بعضهم كالشيخ دمرداش الحمدي كان إذا دُعِيَ إلى

طعام ذهب بمفرده وأتى على الطعام كله وحده. بل إنه، كما يقول الشعراني مبالغاً كمادته فى بعض الأحيان، قد أتى فى إحدى المرات على طعام يكفى ثلاثائة شخص! ليس ذلك فقط، بل كان بعض المشايخ "يعزمون أنفسهم" على طعام الأيتام ويلتهمونه، إذ يُغري الشيخ أم الصبيان الأيتام بأنه سوف يجعل أولادها شيوخاً إذا صنعت وليمة للمشايخ. وهنا أيضاً نجد الشعراني يتغنى بأنه لا يفعل ذلك. كذلك نراه يصور ألوان المظالم والشدائد التي يتعرض لها الفلاحون من ضرب وتعذيب إلى أن تعصر الحكومة آخر ما لديهم من قوت. وكان حكام الريف يرسلون الهدايا إلى مشايخ القاهرة من العلماء والصوفية، وهى تتراوح بين الحبوب والطيور والحيوانات. وهنا كذلك نجد الشعراني حريصاً على القول بأنه لا يأكل شيئاً مما يرد إلى زاويته من الهدايا، وأنه يقوم بذبح الحيوانات التي تأتيه ويفرقها على جيرانه.

ومن كلامه فى هذا السياق قوله: "بلغنا أن الكاشف ومشايخ العرب يأخذون هذه الضحايا، وربما كانت تلك النعجة لأيتام أو فقراء أخذها شيخ البلد منهم قهراً... وما وقع لي أن بعض الكُشّاف بالغبية أرسل لي خمسة كباش، فقلت لقاصده: أنا لا أقبل شيئاً من الكشاف"، وإن كان قد ذكر رغم هذا أنه حضر ذات مرة وليمة من هذه الولايم، إلا أنه تقياً ما أكله، ناسياً أنه قد سجل على نفسه فى مواضع أخرى من الكتاب أنه كان يحضر تلك الولايم ويأكل منها كالشيوخ الآخرين. كذلك كان صناعية القاهرة يعملون

بكل وسعهم لإقامة مثل هذه الولائم . ولنستمع لما يقول الشعراني في هذا الموضوع: "ومما من الله تبارك وتعالى به عليّ حمائي من الأكل من طعام الصنایعي الذي يعمل بالقوت، لا سيما إن كان قد طعن في السن، إلا إن كفاؤه على ذلك بإعطائه ثمنه أو بتوجهي إلى الله تبارك وتعالى أن يُنزل له البركة الخفية في رزقه بقية عمره . وسبب التورع عن مثل ذلك كون الصنایعي يقاسى شدة في كسبه طول يومه حتى يعان ما يقارب أسباب الموت، فلا ينبغي لمن كان له مروءة أن يأكل من مثل ذلك". ومن ألوان الأطعمة التي سجلها الشعراني في كتابه: الفطير والعجمية والسنبوسك والحلو والأرز والكتافة (انظر مثل تلك الحكايات في ص ١٣١، ١٣٣-١٣٦، ١٥٠-١٥١، ١٧٠ وما بعدها من الجزء الأول من الكتاب، وص ١٦١ وما بعدها من الجزء الثاني). وكانت الموالد تقام على عهد الشعراني كما كانت تقام في طفولتي لكل شيخ ذي ضريح . وقد تحدث صوفيّنا عن ذلك الموضوع مرارا في كتابه الذي بين أيدينا كما في ص ١٧١ مثلا من الجزء الأول منه .

كذلك تعرض الشعراني في كتابه إلى ما شاع في عصره ولا يزال حتى الآن من تفاخر أهل الميت بكثرة من يحضر مأتمهم، وحذر منه، وطلب من أصحاب الميت أن يراعوا أن للناس أشغالا يتركونها لأداء واجب العزاء فلا ينبغي من ثم حبسهم طويلا من أجل هذا الواجب . ومن هنا كراهيته دعاء الناس إلى الحضور منذ أول النهار وانتظارهم إلى العصر للصلاة على الميت،

فيظنون من ثم متلهفين على مصالحهم المهمة، وبخاصة إذا كان اليوم يوم سوق وشراء حاجيات البيت الأسبوعية. "وقد وقع لبعض الإخوان أنه دعا الناس للصلاة على أخته من بكرة النهار إلى صلاة العصر، فصار غالبهم يقلل الرحمة عليها ويستحى أن يقوم ويخرج لحاجته، وبعضهم خرج من غير حضور للصلاة. وأما الجماعة الذين تكلفوا وحضروا الصلاة فأخبروني أنهم لم يحضرهم نية صالحة ولا حضر لهم قلب فى الدعاء. وبالجملة فإن الناس الآن يتفاخرون بكثرة من يحضر جنازتهم مثل زفة الختان، ويتخاصمون بسبب ذلك فيقول الواحد منهم: 'هذه الجنازة أو الزفة أكثر ناساً، فيقول الآخر: 'حاشا لله!' (٢/ ٢٣).

ويشيع فى مصر القول بأن فلانا وفلانا أكلا عيشا وملحا معا. تقصد أنه قد صار بينهما ذمام لا بد لكل منهما من حفظه. ويوصف من لا يحافظ على هذا الذمام بأنه "خان العيش والملح"، أى صار غدارا حقيرا. وفى كتاب الشعرانى إشارة إلى هذا المعنى، مما يدل على أنه قديم فى مصر يرجع إلى عدة قرون على الأقل: "ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على حفظى لمقام صاحبى ومن أكلت معه لقمة بملح فى وقت من الأوقات ولا أخونه بالغيب لأجل تلك اللقمة. وهذا الخلق قد صار فى هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر. فربما أكل الشخص مع صاحبه نحو عشرة أراذب من الخبز فلا يحفظ له مقاما، بل يجعل فيه العُجْر والبُجْر إذا وقع بينه وبينه نفس، بخلافى أنا،

فإني بحمد الله تعالى لا أذكر مَنْ عاداني وسمع الناس بيني وبينه النميمة إلا بخير حفظا للعيش. فاعرف زمانك يا أخى، ولا تركز إليه. وقد كان هذا الخلق فى اللصوص إلى أيام السلطان قايتباى رحمه الله تعالى".

وما دمت فى ذكر العيش فإن الشعرانى يسجل فى كتابه ما كنت ألاحظه فى صغرى من تحرج الناس من رؤية كسرة من الخبز ملقاة على الأرض دون أن يحملوها وينحوها جانبا بعد أن يقبلوها ويضعوها فوق أعينهم. فهذا هو ذا الشعرانى يقول: "ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على إعطائى الخبز حقه من الإكرام والتعظيم والتقبيل ووضعها على العين. وبذلك تدوم نعمته علينا إن شاء الله تعالى. وعن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت: 'دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فرأى كسرة يابسة فى جدار البيت وقد علاها الغبار، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلها ووضعها على عينه، ثم قال: يا عائشة، أحسنى مجاورة نعمة الله عز وجل، فإن النعمة قلما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم'" (٢/ ١١٧). وقد بحث عن هذا الحديث الذى نسبه الشعرانى إلى عائشة فلم أجده، ولكن وجدت الحديث التالى عن أم هانئ بنت أبى طالب: "دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل عندكم من شيء؟ فقلت: لا إلا كسرة يابسة وخل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قرّيه، فما افتقر بيت من إدام فيه خل".

ومما كان المجتمع المصرى على أيام الشعرانى يعتقد فيه ويبذل كل جهد فى سبيل الفوز به: "المَطْلَب"، أى الكنز من الكنوز التى كان الناس فى ذلك الزمن يتصورون أنها مدفونة فى الأرض. يقول الشعرانى فى ذلك: "مما أنعم الله تبارك وتعالى به على من حين كنت طفلا عدم إصغائى إلى قول من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء أو يقدر على فتح المطالب. وهذا من أكبر نعم الله عز وجل على، فقد تلف فى ذلك كثير من الفقراء وطلبة العلم، ثم رد ذلك التلف على أديانهم، قتلت قلوبهم وخربت من محبة الله ورسوله والصحابة والتابعين وسائر المقرّبين، فإنه لا يصح المحبة لأحد إلا بالتخلق بأخلاقه صلى الله عليه وسلم. وما أحد من الأنبياء وأتباعهم الصادقين يحب الدنيا أبدا. فمن ادعى محبتهم مع محبة الدنيا فهو كذاب. وقد كان لى عدة أصحاب على تقوى وخير، فخالفونى وعاشروا النصابين، فأتلفوا أموالهم وأديانهم، وضعوا ما كان معهم من المال فى شراء العقاقير والبخورات وأجرة الحفارين للكيمان والقبور والآبار، وصاروا لا دنيا ولا آخرة، إلى أن ماتوا. وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله تعالى يقول: ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم: من يحب اللواط، ومن يعمل الكيمياء، ومن يريد فتح المطالب. وقد أخبرنى سيدى أبو البقاء بن البارزى أن شخصا نصب عليه فأتلف عليه نحو ثلاثين ألف دينار، فصار يأخذ منه كل قليل المائة دينار وأكثر ويطنخ، فتطلع الطبخة فاسدة، فيقول له: المرة الثانية تصحّ

إن شاء الله تعالى . فما زالت الطبخة تطلع زغلا حتى أفنى جميع ما كان معه من المال . فقلت له: فأين كان عقلك ؟ فقال: وهل لحب الدنيا عقل ؟ وأخبرني سيدى محمد بن الشيخ أبى شعرة الماوردى أحد أصحاب سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى رحمه الله تعالى أن نصابا قال له: بلغنى أن فى قاعتك مطلبا عظيما ، ومقصودى: أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف نشترى بها بخورات ونحلى بها الخدام . وكان هذا النصاب يعرف علم السيمياء ، فأخذه وأدخله القاعة وأطلق له عشبا معروفا عنده ، فانفتح فى مخيلته الفاسدة باب بجانب بيت الخلاء ، فنزل هو وإياه فوجدا كيمان الذهب والفضة كالتلال ، وإذا بملك الكنز نائم على سرير قوائمه من ذهب ، وهو مغطى بشباب من حرير ، وعليه شبكة من لؤلؤ ، فقال له: بقى عندك شك ؟ فقال: لا . فقال: أعطنى المال لآتى لك بالبخور الذى يبطل الموانع لتصير تبخر به كلما تأخذ لك منه شيئا ، وإلا فكل شىء أخرجه منه أخذه منك الخادم . فأعطاه جميع ما كان بيده من النقد ، وأخذ أساور أمه الذهب وعصابة زوجته حتى خلّاه على الأرض السوداء ، ثم قال له: أنا رائح أسعى لك فى البخور . فخرج هو وإياه ، وأغلق باب المطلب فلم يجد له بعد ذلك أثرا إلى يوم تاريخه . . . " (١ / ٥٤) .

ولا شك أن القارئ يستطيع أن يجد بين المصريين من لا يزال من السذاجة بحيث يضحك عليه النصابون بحيلهم التى لا تنتهى والتى تجوز

بمنتهى اليسر على عقول الأغبياء المسعورين وراء الدنيا ممن قال فيهم الشيخ المضحوك عليه: وهل لحب الدنيا عقل؟ كذلك أحب أن ألفت النظر إلى كلمة "النصاب" فى نص الشعرانى، وهى كلمة مصرية ما زلنا نستعملها حتى اليوم بمعنى المخادع الذى يضحك على الآخرين المتلهفين إلى الكسب السريع ويأخذ منهم أموالهم برضاهم التام طمعا منهم فيما يمنيهم به من المكاسب الهائلة السريعة دون أى جهد . وشىء ثالث هو تعبير "خلاه على الأرض السواء"، وهو تعبير لا أذكر قط أنى سمعته من أحد أو قرأته عند أحد . أما ما نقوله فى مثل هذا السياق فهو: "خلّاه (أى تركه) على الحديدة"، أى مفلسا تمام الإفلاس .

وعن المطالب أيضا يقول الشعرانى فى كتاب آخر من كتبه: "قلت لشخص من أبناء الدنيا: تعال اسهر معنا هذه الليلة . وكانت ليلة العيد الأصغر، فتعلل بأن السهر يضره، فقلت: بالله عليك اصْدُقْنى . إذا أردت أن تفتح مَطْلَبًا وأبطأ عليك البُخُور الذى تطلقه من العشاء إلى الفجر، هل كنت تسهر إلى الصباح تترقب مجيئه؟ فقال: نعم! فقلت له: فإذا أبطأ من بعد الفجر إلى المغرب، هل كنت تترقبه ولا تنام؟ قال: نعم! فدرّجته إلى تسعة أيام، وهو يجد أنه يقدر على السهر من غير وضع جنبه إلى الأرض . فقلت له: فى اليوم العاشر؟ قال: لا أقدر . فقلت له: يا أخى، فإذا أنت تُؤثّر الدنيا على الآخرة؟ قال: نعم" (من كتاب الشعرانى: "لواقح الأنوار"،

نقلا عن "التصوف فى الأدب والأخلاق" للدكاترة زكى مبارك / ١ / ٣٥١ - ٣٥٢). ولهذا الأمر أصل، إذ كان الأغنياء يخفون أموالهم فى أرضية بيوتهم خوفا من اللصوص والحكام الظلمة الذين يستولون على الأموال بغير وجه حق. وما زلنا حتى الآن نستخدم تعبير "وضع فلوسه تحت البلاطة"، مما هو قريب من تلك العادة القديمة. ومن الطبيعى أن يعثر بعض الناس على مثل تلك الدفائن فى البيوت الخربة التى مات أصحابها دون أن يستخرجوا ما كانوا قد أخفوه تحت أرضها، فيظن الآخرون أن ذلك متيسر متى استرضوا الجن، الذين يقومون، فى اعتقادهم، بدور المرشدين إلى مواضع الكنوز من خلال إحراق البخور والتعزيم وما إلى ذلك.

وتحدث الشعرانى أيضا عن الحشيش فنبه إلى ضرره واجتهد فى تبغيض تعاطيه لكل من يعرفه من المدمنين، لكن دون أن يعنفه، بل يلاطفه ويطعمه الكفاة والبسبوسة ويثنى عليه أمام الآخرين كى يكسبه ويصبح كلامه على قلبه خفيفا على حد قوله. ثم مضى الشعرانى فذكر أن للحشيش مائة وعشرين مضرة دنيوية وأخروية، وأنه يورث البدن ثلاثمائة مرض لا دواء لأى منها، وهى الجذام والبرص والخرس والاستسقاء وضيق النفس والسل وتآنة الفم والنسيان والضجر والخيالات الفاسدة ونسيان الحال والمآل وتضييع المال والكسل عن الصلاة واختلال العقل وموت الفجأة... إلخ. واستطرق من ذلك إلى الحكم عليه بالحرمة طبقا لما أفتى به أكثر علماء

الإسلام رغم أن بعضهم فى البداية كان قد أفتى بحليته، ثم لما استبان له ضرره رجع عن هذه الفتوى وقال بتحريمه. ثم ذكر الشعرانى أن الحشيش قد ظهر فى العالم الإسلامى منذ القرن السادس الهجرى حسبما كتب ابن تيمية. ومن رأيه أن من أراد التوقف عن تعاطيه فعليه أن ينقص مقدار ما يتناوله منه يوميا شيئاً فشيئاً حتى يقلع عنه تماماً فى آخر المطاف. وقد ألحق به فى الحكم وتسبب الضرر: الأفيون وجوزة الطيب والبنج والبرش (١/ ١٣٣ - ١٣٤).

وهناك أشياء فى تصرفات الشعرانى لا يمكن أن يقبلها الإنسان أو يوافق عليها: منها قوله: "كنت أطلع كتب القوم كـ"رسالة" القشيري و"عوارف المعارف" و"القوت" لأبى طالب المكي و"الإحياء" للغزالي ونحو ذلك، وأعمل بما ينقدح لى من طريق الفهم ثم بعد مدة يبدو لى خلاف ذلك، فأترك الأمر الأول وأعمل بالثانى... وهكذا، فكنت كالذى يدخل دربا لا يدرى هل ينفذ أم لا، فإن رآه نافذا خرج منه، وإلا رجع، فإن فائدة الشيخ إنما هى اختصار الطريق للمريد لا غير. ومن سلك بغير شيخ تاه وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ مثال دليل الحجاج إلى مكة فى الليالى المظلمة. ومن جملة ما جاهدت به نفسى من غير إشارة شيخ أننى كنت جعلت لى حبلا فى سقف الخلوة محورا على عنقى إذا جلست ولا يصل إلى الأرض لو اضطجعت، فكنت أجعله فى عنقى من العشاء إلى الفجر،

فمكثت على ذلك سنين" (١/ ٤٩). وهو تصرف غشيم يدل على افتقار تام إلى التبصر والحكمة. ذلك أن أقل عقل يستطيع أن يبصر سخف هذا التصرف بل ضرره الوخيم، إذ من الممكن أن يخنق الحبل صاحبه إذا انكفأت رأسه حين يغلبه النعاس، فضلا عن أن العبادة لا يحسن أن تؤدى بهذه الطريقة، والله سبحانه لا ينفعه أن يعذب الناس أنفسهم من أجل مزيد من السهر، ويكره لعباده أن يصلوا فى تجاهل بشريتهم أو يتجاوزوا طاقتهم على ذلك النحو المقيت. وهذا مما لا تحتاج معرفته إلى أن يكون للشخص منا شيخ ينهيه عن ذلك، وإلا فأين العقل العام والحكمة التى يعرفها كل إنسان؟

ومثل ذلك فى السخف بل يزيد عليه قوله: "كانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولُحْمَتى فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا، ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من منذ بلغت، ولم يزل الحق تبارك وتعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا. وعرضوا علىّ الألف دينار فرددتها، ولم أقبل منها شيئا. وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فأنثرهما فى صحن جامع الغمرى فيلتقطهما المجاورون. وتركت أكل لذيذ الطعام ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين، ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك. وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ولا تاجر يبيع على الظلمة ولا فقيه لا يسد فى وظيفته

ويأكل معلومها ولا غيرهم من جميع المتهورين فى كسبهم. وضافت على الأرض كلها ونفرت من جميع الناس ونفروا منى، فكنت أقيم فى المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة، وأقمت فى البرج الذى فوق السور من خرابة الأحمدى مدة سنة. وما رأيت أصفى من تلك الأيام. وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة، وضعفت بشريتى وقويت روحانيتى حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنسوب على حصن جامع الغمرى فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة الشهوات... ولما غلب على طلب العزلة عن الناس تنكرت منى جميع قلوب أصحابى ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام واللغو وعدم المجالسة. وكنت كثيرا ما أخرج إلى موارد البرك التى يغسل الناس فيها الفجل والخس والجزر والبقل فالتقط منها ما يكفينى ذلك اليوم مما أعرضوا عنه، وأشرب عليه من ذلك الماء، وأشكر الله تعالى على ذلك. وكنت لا أكل طعام فقير لا كسب له من المتعبدى فى الزوايا من غير كبير اشتغال خشية أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر. وكذلك كنت لا أكل طعام قاض ولو كان من أهل الدين لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس. ثم إنى تركت أكل طعام كل من يمسك الميزان والكيل والذراع.

ثم طويت عن طعام جميع الناس فلا أكل إلا عند أوائل درجة الاضطراب، وذلك حين لا تجد أمعائى شيئاً تشتغل به، فيلذع بعضها بعضاً . وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر، ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار، ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر، فأصلى الظهر ثم أذكر إلى العصر، ومن صلاة العصر إلى المغرب، ومن صلاة المغرب إلى العشاء . . . وهكذا . فمكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى برقع القرآن بين المغرب والعشاء، ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة . وربما نزلت بشيأى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى نوم" (١ / ٤٩) .

وهذا كله كلام فارغ لا يمكن أن يقنع قطرة . وإنى لأستغرب كيف أنه قد ركز كلامه كله على حرمة الأكل مما لدى الآخرين تحرزاً من أن يكون قد دخله شئ من الحرام . وهذا شعور أخلاقى جميل، ولكن لماذا لم يختصر المسافة كلها ويربح نفسه من هذا الصداق الذى لا يبدو أن له نهاية فيبحث لنفسه عن حرفة يكسب منها رزقاً حلالاً لا يجد الشك فيه إلى نفسه سبيلاً؟ أليس هذا هو أحسن الحلول؟ بل أليس هذا هو الحل الوحيد؟ بلى، إلا أن الشعرانى لم يحاول أن يفكر فيه ولا أن يقترب بقلمه منه . كما أن كلام الشعرانى عن أكل التراب قد بلغ الغاية فى التنطع والزيف والاستخفاف بعقولنا . هل التراب مما يمكن أكله؟ وهبّه مما يمكن أكله، هل هو مما يمكن أن

يتناوله الإنسان دون أن يتضرر جسمه منه؟ ثم إذا كان صُوفِيًّا يرى أن كل شيء يكسبه الناس حرام فى حرام، فلماذا كان يأكل بقايا فُجُلهم وخَسَمهم وجَزَرهم وبقولهم، وهذا كله داخل فى الطعام الحرام؟ وهل ماء البرك يصلح للشرب؟ لا أقصد من الناحية الصحية، فهو بكل يقين لا يصلح، بل أقصد الناحية الذوقية. هل يعرف القراء من يمكن أن يعيش على التراب وماء البرك العطن الموبوء أسابيع كاملة؟ أم هل يعرف القراء أحدا لا ينام ليلا ولا نهارا ويظل فى عبادة دائمة لا تتوقف أبدا كالشعرانى طبقا لدعواه، وبدلا من الانهيار لعدم النوم وقلة الطعام إذا بقواه الروحانية، على العكس مما كنا نتوقع، تنشط وتسمو فيطير الرجل فى الهواء، وكأن الجسد قد انعدم أو صار على الأقل كالريشة؟ ثم فلنترك كل ما قلناه، ونسأل: هل كان الرسول أو صحابته يفعلون هذا؟ أم هل أمر النبى به أو استحسنته أو أبدى رضاه عنه؟ والملاحظ أن تلك المعجزة لا تتم إلا بعيدا عن أعين الناس. لماذا؟ حتى يسهل على مدعيها ادعاؤها دون أن يقول له أحد إن هذا لم يحدث.

وحين كان الشعرانى يعيش فى الخرائب، من أين يا ترى كان يأكل ويلبس؟ ومن كان يغسل له ملابسه؟ وكيف كان يستحم؟ وأين كان يقضى حاجته؟ من المؤكد أن منظره فى تلك الأيام لم يكن يختلف عن منظر بعض المجانين الذين ينامون على رصيف مسجد السيدة أو الحسين، وقد تلبدت شعورهم وطالت أظفارهم وتكونت طبقة من القذارة على أجسادهم،

وعشش الرَّمَصُ فى أعينهم . ويزيد الأمر بشاعة عندما نسمعه يؤكد أنه كان لا يضع على جسمه إلا خرقا من أكوام الزباله، وهى خرق لا تصلح على الإطلاق لسبب بسيط: أنها متهرئة فلا تماسك أبدا . ثم من يستطيع أن يخطط خرقا كهذه؟ واضح أن الأمر كله لا يمكن قبوله أبدا . وهبنا تفاضينا عن هذا، فماذا فعل فى قول رسولنا العظيم: "النظافة من الإيمان"، و"إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"، و"لا رهبانية فى الإسلام"؟ وكيف تصرف إزاء قوله سبحانه: "ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟" (النساء / ١٤٧) . ليس ذلك فحسب، إذ نرى الشعرانى يقول إنه كان يقضى الساعات جالسا فوق الصارى؟ فمن المعروف لكل الناس أن الصارى عبارة عن عرق خشبى لا يمكن أن يجلس عليه الإنسان إلا كما يجلس تقريبا على خازوق . فهل هذا ما يريد منا الشعرانى أن نفهم من حديثه عن الصارى؟ لطفك اللهم! ودعنا من أنه كان يصعد فى الهواء إلى قمة الصارى لا عن طريق تسلقه كما يفعل الناس، بل بارتفاع جسده مباشرة جراء خفته بسبب الرقى الروحانى المزعوم!

ثم هناك قراءة القرآن كله فى ركعة . ترى هل هذا ممكن؟ طبعا لا . والفيصل فى الأمر هو الحساب، والحساب لا يخطئ ولا يحاجب أحدا . إن قراءة جزء من القرآن لا تستغرق أقل من نصف ساعة بالسرعة المتوسطة، والصوفية بطبيعة الحال سوف يقرأون الجزء فى وقت أطول لأنهم يعكفون

على العبادة عكوفاً ولا يروُن لأنفسهم عملاً آخر فى الدنيا، فلم العجلة إذن؟ لكن دعنا نقول إنهم يأخذون فيه نصف ساعة مثلنا لا أكثر. ولما كان القرآن مشتملاً على ثلاثين جزءاً فمعنى ذلك أن قراءة القرآن كله تحتاج إلى خمس عشرة ساعة، فكيف يقرؤه المصلى فى ركعة واحدة؟ إن هذا معناه أن الشعرانى قد استغرق فى هذه الركعة وحدها ذلك الوقت الطويل، ومن ثم فحين يكون قد انتهى من الصلاة الرباعية مثلاً يكون قد مضى من الوقت ستون ساعة. أى أنه يأخذ فى صلاة الظهر على سبيل المثال يومين ونصفاً، وهو ما يترتب عليه أنه سوف تفوته صلوات يومين ونصف. بل إن هذه الصلاة اليتيمة لن تتم فى وقتها بل بعد وقتها بأكثر من يومين. والآن هل رأى القارئ بنفسه كيف أن ما قاله الشعرانى لا يصح أبداً؟

يقول د. توفيق الطويل إن الشعرانى إنما كان يتحدث بناء على تركيبته النفسية الناشئة عن ثقافة عصره. يقصد أن الشعرانى كان يتصور وقوع هذا فعلاً (انظر كتابه: "الشعرانى إمام التصوف فى عصره" / ٤٣-٤٤). لكن المسألة ليست مسألة تصورات خداعة يظنها صاحبها حقائق واقعية، بل مسألة حساب لا يمكن أن يخطئ. يمكن أن يقال بذلك التفسير مثلاً فى توهم أحد الأشخاص أنه رأى عفرية مثلاً، بينما هو لم ير إلا رجلاً متشحاً بالسواد ولا تظهر ملامحه فى الظلام فظنه عفرية، أما فى حساب الساعات والأيام فلا يمكن أن يكون. وإذن؟ الواقع أنه ليس هناك إلا "إذن" واحدة لا أظن القارئ

محتاجا منى إلى النص عليها، فهي من الوضوح بمكان مكين. لقد كان الشعرانى يقول: "أخذ علينا العهد أن ندارى كل طائفة بقولنا: 'نحن معكم، ومن عصبتكم'"، و"أخذ علينا العهد أن ندور مع أهل زماننا ونخدع لهم كما ينخدعون لنا وتلّون لهم كما يتلّون لنا"، وهو ما عقب عليه د. توفيق الطويل بأنه "لا يبعد على مثل هذا الرجل أن يخادع ويداور" (انظر د. توفيق الطويل/ الشعرانى إمام التصوف فى عصره/ ١٤٨-١٤٩). وفى رسالة أهل رومية (٧/٣) نقرأ: "إِنَّهُ إِنْ كَانَ صَدَقَ اللَّهُ قَدْ ازدَادَ بِكَذِبِي لِمَجْدِهِ، فَلَمَّا ذَا أَدَانُ أَنَا بَعْدُ كَخَاطِي؟".

وفوق ذلك فإن الشعرانى يُعرب لنا عن ترجمه التام من أكل أى شىء مما فى أيدي الآخرين لأنه حرام حرام حرام. ترى أنى كان يأكل هو وفقراؤه فى الزاوية التى أنشأها لهم؟ أليس مما كان يقدمه له هؤلاء الآخرون؟ فكيف انقلب حلالا ما كان حراما قبل قليل؟ وأخيرا قد وضع القرآن حدا لوقوع المعجزات إذ قال إنه لم يمنع الله من وقوع المعجزات بعد مجىء الإسلام إلا أن الأولين قد كذبوا بها ولم يستفيدوا منها. وكان الرسول، حسبما نقرأ فى القرآن، إذا ما طالبه الكفار بآية (أى معجزة) يرد عليهم: "سبحان ربى! هل كنتُ إلا بشرا رسولا". وهذه هى عظمة الرسول محمد والدين الذى أتى به الرسول محمد، فهو الدين الوحيد الذى لفت أنظار الناس إلى أن الكون قائم

على سنن وقوانين وموازين غاية فى الدقة لا يمكن أن يجد لها الإنسان تبديلا ولا تحويلا طبقا لما نقرأ فى القرآن المجيد .

وبعد، فالكتاب عبارة عن فقرات متوسطة الطول غالبا، وكل فقرة تبدأ بقول الشعرانى: "ومما من الله تبارك وتعالى به على" لم يخزمها ولا مرة واحدة فى حدود ما لاحظت، ثم ينطلق فيذكر منقبته التى خصص لها الفقرة، معضدا كلامه بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة أو الحكايات اللطيفة أو بعض الأقاويل التى ينقلها عن هذا أو ذاك من شيوخه الصوفيين كعلى الخواص وإبراهيم المتبولى مثلا. ومن شأن هذا كله أن يضفى على الأسلوب جاذبية وقتنة.

وعلى الناحية الأخرى تبدو سذاجة الشعرانى فى غير قليل من أو الفقرات التى اشتمل عليها كتابه، وذلك حين يتحدث عن الكرامات التى يزعم أنها وقعت له أو لأحد من شيوخه حديث الموقن أنها أمر طبيعى تماما . وأحسب بل أوقن أنه لو عاش فى عصرنا هذا ما قدر على ترديد مثل هذه المزاعم رغم أن المسلمين لا يزالون متخلفين علميا لدرجة مخجلة. فما بالناس لو كانوا متقدمين علميا وفكريا كما يريد دينهم العبقري العظيم أن يكونوا؟

ويتميز أسلوب الشعرانى بالبساطة والسلاسة البالغتين مع الصحة اللغوية إلا فيما ندر من هنات لا تؤثر على حكمنا بشيء، وبخاصة إذا علمنا

أنه ترك وراءه كتباً كثيرة جداً . وقد رأينا كيف يقترب أسلوبه من لغة الحديث اليومي فى كثير من الأحيان مع احتفاظه بالصحة النحوية والصرفية والمعجمية . وأشهد لقد قرأت الرجل فوجدت طريقته فى التعبير ممتعة ومنعشة رغم أنى لم أَلْجهداً فى مخالفته فيما أومن أنه خطأً ، وكثيراً ما فعلت ، فلم أُورِّ ولم أجمجم ، بل أعلنتها صريحة لا مواربة فيها . وقد نصصت على بعض استعمالاته الأسلوبية التى ما زلنا نستعملها نحن المصريين فى الفصحى أو فى العامية . وكتاباتهُ تخلو تماماً من السجع والجناس والمحسنات البديعية رغم أن هذه التزاويق كانت لها سوق رائجة فى ذلك الزمان ، وإن كانت عناوين كتبه التى اطّلت عليها أو قرأت عنها مسجوعة كلها . أى أن سجعه مقصور على العنوان لا يرحه إلى الكتاب .

وقد حاول زكى مبارك أن يفسر خلو كتابات الشعرانى من الأسجاع وغيرها من المحسنات فقال إن هذه سمة الكتابات الصوفية جميعاً ، إذ إن الأدباء حين يكتبون فإنهم يضعون أعينهم على أقطاب الأدب فى القرنين الثالث والرابع الهجريين يحذون حذوهم ، على حين يكتب الصوفية وهم مأخوذون بالوطن الذى يعيشون فيه وبالعامية الذين يختلفون إليهم ، وهم فى الأصل يحتقرون الزخرف ولا يبالون أين يقع . ولهذا نجد الصبغة المحلية تظهر فى جميع الكتب التى ألفها الصوفية بلا استثناء (انظر زكى مبارك/ التصوف فى الأدب والأخلاق / ١ / ٣٨٠) . وواضح أن زكى مبارك يتحدث عن

الكتب، أى عن النشر لا الشعر، وإلا فقد رأينا مثلاً فى فصل سابق كيف أن ابن الفارض يحرص على تزويق شعره بالحسنات البديعية المختلفة.

هذا، وليس فى معجم الشعرانى اللفظى أو التركيبى ما يُخَوِّج إلى التفتيش فى المعاجم، فهو يكتب بتلقائية عجيبة، ولكن بقلم ذى دربة يعرف أين يجد ما يريد دون أن تعتريه ركافة من أى نوع. وكأن أحمد فارس الشدياق قد قصد أسلوبه حين قال ما قال فى استحسان النشر المرسل البسيط، إذ بيّن أن أحسن الكتابة إنما "يتعلق بطرق التعبير وحسن الأساليب عند ضم الكلام بعضه إلى بعض"، وذلك كأن تقول: "ذهبت أمس إلى فلان لأسأله عن شىء فلم أجده إذ كان غائبا، فلما حضر أخبر بزيارتي فتأسف كثيرا، فلم يلبث أن جاء ليعتذر لى عن غيابه فلم يجدنى فزاد تأسفه، وتأسفت أنا أيضا لأن سؤالى إياه كان أمرا مهما. قصدت زيارته مرة أخرى فلم أجده، ثم زارنى أيضا فلم يجدنى. وهكذا حتى مضى علينا أسابيع عدة ولم نجتمع". ثم يعقب قائلا: "فهذا الأسلوب سهل بيّن واضح حسن كل الحسن، إذ ليس فيه تقديم ولا تأخير ولا تعقيد ولا خروج عما تقتضيه البساطة والطبيعية والتناسق الصناعى حتى إن المنصف ليعتقد بأنه لا يمكن تغييره وتبديله" (عماد الصلح/ أحمد فارس الشدياق- آثاره وعصره/ ط٢/ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر/ بيروت/ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م/ ١٦٦-١٦٧).

ومن هنا وجدنا مايكل ونتر (Michael Winter)، فى ترجمته للشعرانى بموقع "Historians of the Ottoman Empire"،
 يثنى على أسلوبه قائلاً إنه " Sha'rawi was and still is a popular writer thanks to his readable style and humanistic approach". ونفس الشيء نجده فى ترجمته بكل من الطبعة الجديدة من "دائرة المعارف الإسلامية" الاستشرافية (The Encyclopaedia of Islam Biographical والأوربيين من "موسوعة تراجم المتصوفين" (encyclopaedia of Sufis: Africa and Europe)، إذ نقرأ فيهما أنه كان يحظى بشعبية كبيرة لغزارة علمه وسهولة أسلوبه.

والشعرانى صريح فى كتاباته لا يبالى ما نباليه اليوم من بعض الحساسيات، فنراه يتحدث عن زوجاته بشيء كبير من الصراحة غير متحرج، ويصرح برأيه فى النساء بوجه عام، وهو رأى لا يسرهن كثيرا، وبخاصة إذا كن ينتمين إلى تيار النسوية، الذى لا يرى أى فرق بين المرأة والرجل، ومن ثم لا يقبل أن تكون هناك معاملة خاصة بأى منهما تبعا لاختلاف ظروف كليهما عن الآخر بيولوجيا ونفسيا واجتماعيا وما إلى ذلك. ففى حديثه عن زوجته نراه يتناول جوانب من شأنها أن تبعث القارئ على التكمش والانتباض كما هو الحال عند حديثه عن القاذورات والوساخات التى كان يقوم بإمالتها عن جسدها حين تمرض، أو عن دخولها

بيت الخلاء، أو عن غياب العقل من أدمغة النساء بما فيهن زوجته، أو عن حرصه على تذكر الله كلما "اجتمع" مع زوجته (٢٠٥ / ١)، أو عن عدم بقاء أى من زوجاته دون الغسل من الجنابة ولو ساعة، أو تأخيرهن الصلاة عن وقتها إلا بسبب حيض أو نفاس، أو الإشارة إلى عدم اطلاعه على زوجته وهى تقضى حاجتها (١٥٩ / ٢)، أو عن قيام زوجة شيخ صوفى أجزم كشيخ بشرب ما يسيل من قدميه من صديد الجذام (١٤٦ / ١). ومن صراحته التى لا تناسبنا اليوم كلامه عن حرصه الشديد على عدم خروج الريح منه وهو فى المسجد: هكذا بنفس اللفظ دون أن يحاول التكنية عما يريد قوله أو تلطيفه. ليس ذلك فقط، بل يدخل فى التفصيلات ويكرر اللفظة المحرجة دون أن يشعر بأى حرج أو تردد. يقول: "ومما منَّ الله تبارك وتعالى به على كراهتى لخروج الريح فى المسجد منى أو من غيرى تعظيما لجناب الله عز وجل. كما أن من نعمته على سهولة خروجى من المسجد لإخراج الريح خارجه من غير تكلف، وذلك لأن الريح من جملة بخار النجاسة الصاعد من المعدة، وهو معدود من الرجس حتى إن بعضهم أفتى بأنه لو حمل مُصْرَآنًا فيه فُسَاءٌ وضُرَاطٌ محبوس لم تصح صلاته... إلخ" (١٩٧ / ٢). وإذا كان الشئ بالشئ يُذكر فإن كلمة "مُصْرَآن" ليست مفردا، بل جمعا لـ "مَصِير"، وهو اللفظ الواجب استعماله هنا بدلا من "المصران". أى أن "المصران" هى الأمعاء، وأما "المعى" فيقابله "المصير"، وهو المراد هنا. ويبقى قولنا:

"مصارين"، وهو جَمْعُ الجَمْع. إذن فـ"مُصْرَان" فى كلام الشعرانى خطأ شائع.

وأيا ما يكن فكلام الشعرانى عن زوجاته بوجه عام هو مما يشذ به عن اتجاه العصر بل العصور القديمة كلها عندنا، فلا أذكر أن أحدا ممن قرأت لهم فى التراث تحدث عن زوجته بخير أو بشر. وكان الرجل، فيما يبدو، لطيف المعشر رغم كل ما قلناه فى حقه. وقد ضحكت كثيرا وأنا أقرأ الحكاية التالية التى قصها علينا عن إحدى زوجاته وغيرتها العنيفة من ضرّتها رغم أنها ليست ضرّة حقيقية بل ضرّة متوهّمة. قال: "ومما من الله تبارك وتعالى به على إقامة العذر لزوجتى إذا تزوجت عليها أو تسريت، ولا أطلبها بالصبر جزما لعلمى بأن ذلك لا تطبيقه غالب النساء. وقد وقع لزوجتى أم عبد الرحمن أننى مزحت معها يوما وقلت لها: 'أنا أسبق إلى الجنة بضرّتك تفرش لك بيتك وتملأ لك الأباريق وتنتظرك حتى تجيئى إلينا'، فحلفت بالله العظيم إنها لو دخلت الجنة ورأت ضرّتها هناك رجعت وأقامت خارج الجنة أبد الأبدين حلفاً لا تورية فيه" (١/ ١٣٤). وهذا من أظرف ما قرأت، ولا أظن غير الشعرانى يمكنه أن يقول لقرائه مثل هذا الكلام عن زوجته.

ومن ملامح أسلوب الشعرانى أيضا التصوير الحى لأى منظر يريد أن يحدثنا عنه. ولقد وقفت مليا أمام الصورة التالية التى يرسم فيها لنا مؤسوسا من مؤسوسى الضوء، وهى صورة تستدر الشفقة والرحمة لمثل هذا النوع

من البشر الذين قابلت بعضهم على طريق حياتي، واعترااني لبعض الوقت في شبابي ما كان يعترتهم من الوسوسة، ولكن في الصلاة لا في الوضوء. إلا أنها بفضل الله ورحمته لم تكن شديدة ولم تستمر معي طويلاً، بل سرعان ما مكنتني الله من التغلب عليها ونبذها وراء ظهري. قال: "ومما أنعم الله تبارك وتعالى به عليّ عدم وسوستي في الوضوء والنية والقراءة وغير ذلك مع كوني بالغت في التورّع إلى حد المبالغة التي لم يصل إليها هؤلاء المؤسّسون أوائل اشتغالي بالعلم... وهذه النعمة من أكبر نعم الله تعالى عليّ، فإن الوسوسة قد عمّت غالب الناس الآن حتى إن بعضهم ترك الوضوء والصلاة وقال: 'لا يعجبني وضوء أصلي به ولا قراءة أقرأها'. وشهدت أنا بعيني مؤسّساً دخل ميضأة ليتوضأ قبل الفجر من ليلة الجمعة فلا زال يتوضأ للصبح حتى طلعت الشمس، ثم جاء إلى باب المسجد فوقف ساعة يتفكر، ثم رجع إلى الميضأة فلا زال يتوضأ ويكرر غسل العضو إلى الغاية، ثم يرجع وينسى الغسل الأول حتى خطب الخطيب الخطبة الأولى، ثم جاء إلى باب المسجد فوقف ساعة ورجع، فلا زال يتوضأ حتى سلّم الإمام من صلاة الجمعة وأنا أنظره من شبك المسجد، ففاته صلاة الصبح والجمعة، وذلك حرام بإجماع المسلمين. ومثل هذا قد خرج عن قواعد الدين حتى إنك لو قلت له: 'توضأ كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ، أو صل كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي' لا يرضيه ذلك، ويرى أنه لو فعل ما فعل رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى وضوئه وصلاته لا يصح وضوؤه ولاصلاته. وذلك من الضلال المبين لطاعته عدو الله الشيطان وعصيانه للشارع أمين الرحمن" (١٣٦ / ٢).

وهى صورة ناطقة معبرة أتم التعبير عن حال هؤلاء الموسوسين. ويزيدها متعة أن الشعرانى لم يتنبه إلى ما فى كلامه من تناقض ربما كان المسؤول عنه انسياقه مع نزعة الفنية فى التصوير والتعبير، فقد بالغ وأضاف إلى القصة ما لم يحدث رغبة منه فى إقناعنا بسوء حال هؤلاء الناس وإماتعنا بما يبدعه قلمه، بل استمأعه هو نفسه قبلنا بما يبدعه هذا القلم، وإلا فكيف تابع الرجل الموسوس طوال ذلك الوقت منذ ما قبل الفجر إلى ما بعد صلاة الجمعة؟ أترأه ظل فى المسجد كل هذه الساعات الطوال التى تبلغ ثمانى تقريبا؟ ولنفترض أنه لم يرجع إلى بيته لينام أو يفطر أو يرى ما تحتاجه زوجته من مطالب البيت فيقضيها لها أو يدخل على الأقل المرحاض استجابة لنداء الطبيعة أو انشغل بصديق أو مرید أتى إليه يكلمه فى موضوع من الموضوعات، فهل ظل طوال تلك الفترة لا يعمل شيئا من تسبيح لله أو قراءة للقرآن مثلا؟ ثم، وهذه داهية الدواهى، كيف استطاع متابعة الرجل أثناء صلاتى الفجر والجمعة، ودعنا من السنن التى تسبق هذه وتلك، ودعنا كذلك من سماع الخطبتين؟ لقد قال صاحبنا عن ذلك الموسوس: "فلا زال يتوضأ حتى سلم الإمام من صلاة الجمعة وأنا أنظره من شباك المسجد، ففاته

صلاة الصبح والجمعة"، وهو ما يعنى أنه لم يكن يصلى بل كان يرقب الرجل طوال الوقت من شباك المسجد منذ الاستعداد لصلاة الفجر إلى الانتهاء من صلاة الجمعة، فضلا عن صعوبة اقتناعنا بأن هناك من المُؤسَّسين من تصل حالته إلى هذا المدى. ثم، وهذه طامة أخرى، كيف، وهو الرجل الحنون العطوف الذى يتألم للبشر جميعا ويحمل عنهم معاناتهم وآلامهم حتى إنه ليشعر مع الحامل بالآلم الحمل والمخاض كما رأيناه يقول فى موضع آخر من الكتاب، قد طوّعت له نفسه ترك الرجل يقاسى كل هذه المقاساة دون أن يتحرك قلبه شفقة عليه فيمشى إليه ويحاول أن ينقذه من الكرب الذى هو فيه؟ اللهم الطف بنا وبِعقولنا! وهذا يذكرنى بما قرأته بأخيرة من أن أسدا هجم على رجل فقتله والتهم جزءا منه، وكان هناك مصور تصادف وجوده فى المكان، فما كان منه إلا أن شرع مصوّره ليسجل ذلك الحدث الفريد الذى يضمن به سبقا صحفيا لا يتهماً بسهولة، تاركا الوحش يفتك بالرجل، ومركزا فقط على السبق الصحفى وعلى أن تجيء الصورة دقيقة ومعبرة!

نبذة عن المؤلف

- إبراهيم عوض
- من مواليد قرية كئامة الغابة- غربية فى ٦ / ١ / ١٩٤٨م
- تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠م
- حصل على الدكتورية من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢م
- أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس
- البريد الضوئى: Ibrahim_awad9@yahoo.com
- المؤلفات:
- معركة الشعر الجاهلي بين الرافعى وطه حسين
- المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته
- لغة المتنبى - دراسة تحليلية
- المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلي فى تاريخ الإسلام (مترجم عن
- الفرنسية مع تعليقات ودراسة)
- المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية

للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد

عنتر بن شداد - قضايا إنسانية وفنية

النابعة الجعدي وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغاني - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن

الفرنسية)

فصول من النقد القصصي

سورة طه - دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربي (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمة نسرين على الإسلام

والمسلمين - دراسة نقدية لرواية "العار"

مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي

الحمدي

نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام - أستاذ جامعي يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا

(ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ في رسالة "الرد على النصارى"

كاتب من جيل العمالة: محمد لطفي جمعة - قراءة في فكره

الإسلامي

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى

الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن إسحاق

سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوّهة - دراسة حول الشعر العربي في ضوء الاتجاهات

النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه

في الشعر الجاهلي - تحليل وتذوق

في الشعر الإسلامي والأموي - تحليل وتذوق

في الشعر العباسي - تحليل وتذوق

في الشعر العربي الحديث - تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

أدباء سعوديون

دراسات في المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية - أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبري إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامي وتطاولاته المفصوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفي جمعة وجيمس جويس

"وليمة لأعشاب البحر" بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية

لكن محمدا لا بواكي له - الرسول يهان في مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربي الحديث

دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من

جديد

عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين

الفرقان الحق: فضيحة العصر

لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه

التذوق الأدبي

الروض البهيح في دراسة "لامية الخليج"

سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب - فصول مترجمة ومؤلفة

في الأدب المقارن - مباحث واجتهادات

مختارات إنجليزية استشرافية عن الإسلام

نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجري (مترجم
عن الفرنسية)

فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام
بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ - ماذا يقولون عن الإسلام؟
(نصوص وردود)

دراسات في النثر العربي الحديث
"مدخل إلى الأدب العربي" لهاملتون جب - قراءة نقدية (مع النص
الإنجليزي)

مسير التفسير - الضوابط والمناهج والاتجاهات
"تاريخ الأدب العربي" للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل
ومناقشة (مع النص الإنجليزي)

الأسلوب هو الرجل - شخصية زكي مبارك من خلال أسلوبه

فنون الأدب في لغة العرب

فصول في الأدب المقارن والترجمة

رسالة ابن غرسية الشعبية والرسائل التي ردت عليها - دراسة
مضمونية أسلوبية

محاضرات في الأدب المقارن

"الأدب العربي - نظرة عامة" لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص
الإنجليزي)

بشار بن بُرد - الشخصية والفن

الحضارة الإسلامية - نصوص من القرآن والحديث ولحات من التاريخ

في التصوف وأدب المتصوفة

- علاوة على مثل هذا العدد من الدراسات والكتب المنشورة في

المواقع المشبكية المختلفة، وعلى رأسها موقعه الشخصي

الفهرست

٥	تقديم
٧	فى التصوف
٥٧	رابعة العدوية
١٢٧	الحلاج
١٧٥	ابن الفارض
٢٣٩	الشعرانى
٣٢١	نبذة عن المؤلف